أجاثا كريستي

كلب الموت

مجموعة قصصية

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أجاثا كريستي

كلب الموت

وقصص أخرى

مجموعة قصصية بوليسية

1933

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

كلب الموت

I

لقد سمعت عن الأمر للمرة الأولى من ويليام بي. ريان, وهو مراسل صحفي أمريكي. كنت أتناول العشاء معه في لندن عشية عودته إلى نيويورك، وحدث أن ذكرت له أنني سوف أتجه إلى فولبريدج في الصباح.

نظر لأعلى وقال بحدة: "فولبريدج بمقاطعة كورنوال؟".

قليل من الناس من يعرفون أن هناك بلدة تسمى فولبريدج بمقاطعة كورنوال، فعند ذكر فولبريدج, يسلّم الناس بأن الحديث عن بلدة فولبريدج الواقعة بمقاطعة هامبشاير؛ لذلك أثارت معرفتهَ فضولي.

أجبته: "نعم، هل تعرفها؟".

عبر عن دهشته، ثم سألني عما إذا كنت أعرف منزلاً يسمى تريرني هناك.

ازداد فضولي.

"جيد جدًا حقًا. في الحقيقة سوف أذهب إلى تريرني؛ ففيها منزل أختي".

قال ويليام بي. ريان: "حسنًا، إن لم يكن ذلك غريبًا!".

اقترحت عليه ضرورة أن يتوقف عن ملاحظاته المبهمة ويفصح عما يتحدث عنه.

قال لي: "حسنًا، لكي أفعل ذلك يجب أن أسترجع تجربة حدثت لي في بداية الحرب".

تنهدت. فالأحداث التي أرويها وقعت عام 1921. وكان آخر ما يريده أي رجل هو أن يتم تذكيره بالحرب. وقد كنا ـــــ حمدًا لله ـــــ قد بدأنا في نسيانها....علاوة على أنه على حد علمي, فإن ويليام بي. ريان يطيل الكلام عن تجاربه مع الحرب لدرجة لا تصدق.

ولكن لم يكن هناك سبيل لإيقافه الآن.

"في بداية الحرب، الأمر الذي تعرفه قطعًا، كنت في بلجيكا من أجل الصحيفة التي أعمل لحسابها. حسنًا، هناك بلدة صغيرة: سأسميها إكس.كانت بلدة صغيرة للغاية، إلا أنه كانت هناك دار عبادة. حسنًا هذه البلدة الصغيرة كانت تقع في طريق الزحف

الألماني. وصلت قوات الفرسان".

تململت في جلستي. فرفع ويليام بي. ريان يده ليطمئنني.

قال لي: "لا بأس. إنها ليست حكاية عن وحشية الألمان، ربما تكون كذلك، ولكن الأمر ليس كذلك. في الواقع، انعكس الموقف تماماً، ووصل الجنود إلى دار العبادة: وصلوا إلى هناك فانفجر المكان برمته".

قلت له بفزع شديد: "أوه!".

"أمر غريب، أليس كذلك؟ طبعاً حدث ذلك بدون استعداد، يمكنني القول إن الجنود الألمان كانوا يُصَلّون ثم يتجولون في المكان بمتفجراتهم. ولكن بدا أنهم لا يحملون أي شيء من هذا القبيل. لم يكونوا مثل الجنود الذين يستخدمون المتفجرات. على الصعيد الآخر، ما الذي من الممكن أن تعرفه مجموعة من السيدات المتدينات عن مواد شديدة الانفجار".

وافقته الرأي: "إنه أمر غريب".

كنت مهتماً بالاستماع إلى رواية الفلاحين عما حدث. وقد حسموا الموضوع برمته بما لا يدع مجالاً للشك. فوفقاً لهم كانت معجزة من الطراز الأول حدثت في العصر الحديث. بدا الأمر كأن واحدة من السيدات المتدينات لديها قوى خارقة ـــــ سقطت مغشياً عليها ـــــ ثم دخلت في غيبوبة ورأت مجموعة من الرؤى. ووفقاً لهم فقد قامت بحيلة سحرية. استدعت صاعقة من السماء لتفجر جنود العدو، ففجرتهم على الفور، وانفجر كل ما يحيط بالمكان. مجرد معجزة، هذا كل ما في الأمر!.

لم أتوصل حقاً إلى حقيقة الأمر، لم يكن لدي وقت. ولكن المعجزات كانت موضة العصر. لقد كتبت عن الموضوع ووضعته في شكل قصص، وأرسلته إلى الصحيفة التي أعمل لحسابها. وقد قوبلت بشكل جيد جداً في الولايات المتحدة. كانوا يحبون هذا النوع من الروايات.

ولكنني (ولا أعلم ما إذا كنت ستفهم ذلك) في أثناء الكتابة، أصبحت شغوفاً بالأمر. شعرت بأنني أريد أن أعرف ما حدث حقاً. لم يكن هناك ما يمكن رؤيته في المكان نفسه. لا يزال هناك حائطان قائمان، على أحدهما علامة مصنوعة من الرماد الأسود تشبه شكل كلب ضخم.

كان الفلاحون في المنطقة يخشون هذه العلامة لدرجة الموت. كانوا يسمونها كلب الموت، مما دفعهم لعدم المرور بهذه المنطقة بعد حلول الظلام.

دائماً ما تكون الخرافات مثيرة للاهتمام. شعرت بأنني أريد أن أرى السيدة التي قامت بهذه الحيلة السحرية. بدت وكأنها لم تمت، فقد ذهبتْ إلى إنجلترا مع مجموعة أخرى من اللاجئين، فحملت نفسي عناء تعقبها.ثم علمت أنها أُرسلت إلى تريرني

فولبريدج بمقاطعة كورنوال.

أومأت برأسي.

"لقد استضافت أختي كثيراً من اللاجئين البلجيكيين في بداية الحرب، حوالي عشرين لاجئًا".

"حسنًا، لقد أردت دومًا أن أبحث عن السيدة إذا كان لدي وقت. أردت أن أعرف روايتها عن هذه الكارثة. بعد ذلك وبسبب انشغالي المستمر، نسيت الأمر وسقط من ذاكرتي، كما أن كورنوال بعيدة عن هنا. في الواقع نسيت الأمر برمته حتى ذكرت فولبريدج الآن".

قلت له: "يجب أن أسأل أختي أولاً. فربما سمعت شيئًا عن الأمر. فقد عاد جميع البلجيكيين إلى وطنهم منذ فترة طويلة".

"هذا طبيعي. وفي حالة ما إذا كانت أختك تعرف أي شيء عن الأمر، فسأسعد كثيراً إذا أطلعتني عليه".

قلت له بحماسة: "بالطبع سأفعل".

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

II

في اليوم الثاني بعد وصولي إلى تريرني تذكرت هذه الرواية. كنت أتناول الشاي مع أختي في الشرفة.

قلت لها: "كيتي، ألم يكن من بين اللاجئين البلجيكيين الذين آويتهم إلى منزلك سيدة متدينة؟".

"سيدة متدينة ربما الأخت ماري أنجليك، أليس كذلك؟".

قلت لها بحذر: "ربما أعنيها. حدثيني عنها".

"يا إلهي! لقد كانت أكثر مخلوقة غريبة رأيتها في حياتي. أنت تعلم أنها لا تزال هنا".

"ماذا؟ في المنزل؟".

"لا، لا، أقصد في القرية. دكتور روز، هل تذكر الدكتور روز؟".

هززت رأسي نفيًا.

"أذكر رجلاً عجوزاً في الثالثة والثمانين من عمره تقريبًا".

"دكتور ليرد. آه! لقد توفي. لقد جاء الدكتور روز إلى هنا منذ بضع سنوات. إنه شاب شغوف للغاية بالأفكار الجديدة. وقد كان مهتمًا كثيرًا بالأخت ماري أنجليك. كانت تعتريها هلاوس وحالات غريبة؛ ربما تكون مثيرة للاهتمام إلى حد مخيف من وجهة نظر طبية. كم هي مسكينة، فليس لها مكان تذهب إليه، أظنها مخبولة تمامًا، مثيرة للخوف إذا كنت تفهم ما أعنيه. لم يكن لديها مكان تذهب إليه، فوفر لها الدكتور روز بعطفه منزلاً في القرية. أعتقد أنه يكتب دراسة أحادية ـــــ أو أيًا كان ما يكتبه الأطباء ـــــ عنها".

توقفت عن الكلام ثم أردفت قائلة:

"ولكن ما الذي تعرفه عنها؟".

"لقد سمعت حكاية مثيرة للفضول".

رويت لها الحكاية التي سمعتها من ريان. أظهرت كيتي اهتمامًا كبيرًا بها.

قالت: "إنها تبدو مثل الأشخاص الذين يمكنهم تفجيرك، إذا فهمت ما أعنيه".

ازداد فضولي أكثر وقلت لها: "أعتقد حقًا أنني يجب أن أرى هذه السيدة الشابة".

"لتفعل ذلك، فحقًا أريد أن أعرف رأيك فيها. اذهب لزيارة الدكتور روز أولاً. ما رأيك أن تذهب إلى القرية بعد تناول الشاي؟".

وافقت على اقتراحها.

وجدت الدكتور روز في منزله وقدمت له نفسي. بدا شابًا صغيرًا مليحًا، إلا أن شخصيته كان فيها شيء أرفضه، فقد كان من الصعب للغاية تقبله تمامًا.

عندما ذكرت الأخت ماري أنجليك ازداد انتباهه. بدا من الواضح أنه مهتم كثيرًا بها. رويت له القصة التي سمعتها من ريان.

قال والتفكير بادٍ عليه:" آه! هذا يفسر قدرًا كبيرًا من الأمر".

نظر إليّ بسرعة وتابع كلامه.

"الأمر مثير للاهتمام فعلاً. وصلت السيدة إلى هنا ومن الواضح أنها تعاني صدمة عصبية شديدة. كانت في حالة من الاضطراب الذهني. كانت تهذي بهلاوس غريبة للغاية، كما أنها من أغرب الشخصيات التي يمكنك مقابلتها. لعلك تود الذهاب معي لزيارتها. إنها تستحق المشاهدة حقًا".

وافقت على الفور.

بدأنا في رحلتنا إليها. كنا نقصد بيتًا صغيرًا في أطراف القرية. كانت فولبريدج من أكثر الأماكن المليئة بالمناظر الخلابة، وهي تقع على مصب نهر فول؛ حيث الجزء

الأكبر منها على الضفة الشرقية، أما الضفة الغربية فهي منحدرة للغاية بشكل لا يسمح بالبناء عليها، رغم أن عدداً قليلاً من المنازل مقام هناك. كان منزل الطبيب مقاماً على منحدر منزلق للغاية من الجانب الغربي، ومن هناك تنظر إلى أسفل لترى الأمواج الكبيرة تضرب بقوة الصخور السوداء.

كان المنزل الصغير الذي كنا نتقدم نحوه يقع للداخل بعيداً عن البحر.

قال الدكتور روز: "كبيرة الممرضات تعيش هنا، فلقد رتبت لأن تقيم الأخت ماري أنجليك معها، كما أنها يجب أن تكون تحت إشراف ممرضة ماهرة".

سألته بشغف: "هل هي طبيعية في تصرفاتها؟".

أجاب بابتسامة على وجهه: "بإمكانك أن تحكم بنفسك خلال دقيقة".

كانت كبيرة الممرضات ـــــ وهي سيدة بدينة وقصيرة وذات وجه مليح ـــــ على وشك ركوب دراجتها عندما وصلنا.

قال لها الطبيب: "صباح الخير أيتها الممرضة الجميلة، كيف حال مريضتك؟".

"إنها كعادتها يا دكتور؛ جالسة هناك مشبكة كفيها وعقلها شارد. أغلب المرات لا تجيبني عندما أحدثها، رغم أن السبب في ذلك قد يرجع إلى أنها لا تفهم قدراً كبيراً من اللغة الإنجليزية حتى الآن".

أومأ روز برأسه، وركبت الممرضة دراجتها مبتعدة عنا، فصعد إلى باب المنزل، وطرقه بشدة، ثم دلف إلى الداخل.

كانت الأخت ماري أنجليك مضطجعة على كرسي طويل قريب من النافذة، فأدارت رأسها عندما دخلنا.

كان وجهاً غريباً شاحباً، يبدو كأنه شفاف، وكانت عيناها واسعتين. بدت هاتان العينان تعكسان مأساة لا أول لها ولا آخر.

قال الدكتور بلغة فرنسية: "صباح الخير أيتها الأخت".

"صباح الخير دكتور".

"اسمحي لي بأن أقدم لك صديقاً: السيد أنستروثر".

انحنت، ومالت هي برأسها وعلى وجهها ابتسامة باهتة.

سألها الطبيب وهو يجلس بجوارها: "كيف حالك اليوم؟".

"أنا كعادتي". توقفت عن الكلام ثم أردفت قائلة: "لا شيء يبدو حقيقياً بالنسبة لي. هل مرت أيام، أم شهور، أم سنوات؟ لا أعرف. أحلامي فقط هي التي تبدو حقيقية بالنسبة لي".

"إذن، ما زلت تحلمين كثيراً".

"دائماً، دائماً وأبداً، هل تفهمني؟ الأحلام تبدو حقيقة أكثر من الحياة".

"هل تحلمين بموطنك بلجيكا؟".

هزت رأسها نافية.

"لا، أنا أحلم ببلدة ليس لها وجود على الإطلاق. ولكنك تعرف ذلك يا دكتور. لقد أخبرتك بذلك مرات عديدة". توقفت عن الكلام ثم قالت فجأة: "ولكن ربما يكون هذا السيد طبيباً أيضاً، ربما طبيب أمراض مخ؟".

قال روز مطمئناً إياها: "لا، لا"، وبينما كان يبتسم لاحظت كم كانت أنيابه غريبة جداً، وتراءى لي أن فيه ما يشبه الذئب. ثم تابع قوله:

"ظننت أنك قد تكونين مهتمة بلقاء السيد أنستروثر، فهو يعرف بعض الأمور عن بلجيكا. وقد سمع مؤخراً أخباراً عن دار العبادة التي كنت فيها".

تحركت عيناها نحوي، وتسللت إلى وجنتيها حمرة بسيطة.

أسرعت بالقول: "إنه لا شيء في الحقيقة. ولكنني كنت أتناول العشاء الليلة السابقة مع صديق كان يصف لي أطلال جدران دار العبادة".

"إذن هي أطلال!".

لم يكن تعجبها شديداً، وكانت تتحدث إلى نفسها أكثر مما كانت تتحدث إلينا. ثم نظرت إليّ مرة أخرى وسألت بتردد: "أخبرني سيدي، هل قال لك صديقك كيف تحطمت دار العبادة ـــــ على أي نحو؟".

قلت لها: "لقد انفجرت"، ثم أردفت قائلاً: "الفلاحون يخشون المرور من هذا الطريق بالليل".

"لماذايخافون؟".

"بسبب وجود علامة سوداء على أحد الجدران المحطمة. ينتابهم خوف مرتبط بخرافة ما".

اتكأت نحو الأمام.

"أخبرني سيدي بسرعة، بسرعة أخبرني! ما شكل هذه العلامة؟".

أجبتها قائلاً: "إنها على شكل كلب ضخم. الفلاحون يسمونه كلب الموت".

"آه!".

خرجت من شفتيها صرخة بكاء.

"إذن هذا صحيح، هذا صحيح. كل ما أذكره صحيح. إنه ليس كابوسًا أسود. لقد حدث ذلك! حدث ذلك!".

سألها الطبيب بصوت منخفض: "ما الذي حدث أيتها الأخت؟".

استدارت نحوه بهمة.

"تذكرت. هناك على الدرجات، تذكرت. تذكرت الطريق إليه. لقد استخدمت القوة كما اعتدنا استخدامها. وقفت على درجات المذبح وطلبت منهم ألا يقتربوا أكثر. طلبت منهم أن يغادروا في سلام. ولكنهم لم يستمعوا لي، واقتربوا رغم تحذيري لهم. ولذلك ـ" اتكأت للأمام وقامت بإيماءة غريبة، "ولذلك أطلقت كلب الموت عليهم..."

تراجعت على مقعدها وكل جسمها يرتعش، وعيناها مغمضتين.

وقف الطبيب، وأحضر لها كوبًا من أحد الدواليب، وملأ نصفه بالماء، ثم أضاف قطرة أو اثنتين من زجاجة صغيرة كان يحملها في جيبه، ثم أحضر لها الكوب.

قال لها بلهجة آمرة: "اشربي هذا".

أطاعته، بدون أدنى تفكير كما بدا لي. وهامت عيناها بعيدًا كأنهما تتأملان رؤى داخلية تراءت لها.

قالت: "إذن كل هذا صحيح. كل شيء، مدينة الدوائر. من يستخدمون البلورة ـــــ كل شيء. كل هذا صحيح".

قال روز: "يبدو كذلك".

كان صوته منخفضًا، يبعث على الطمأنينة، كان من الواضح أنه يريد أن يشجعها وألا يقطع حبل أفكارها.

قال لها: "حدثيني عن المدينة: أظنك وصفتها بمدينة الدوائر؟".

أجابته بطريقة مغيبة وبدون أدنى تفكير.

"هذا صحيح، كانت هناك ثلاث دوائر. الدائرة الأولى للمُختار، والثانية للسيدات المتدينات، والدائرة الخارجية لرجال الدين".

"ماذا عن المركز؟".

التقطت أنفاسها بسرعة، وانتابتها خشية لا توصف بدت على صوتها.

"منزل البلورة...".

وبينما خرجت الكلمات من شفتيها، اقتربت يدها اليمنى من جبينها ورسمت بإصبعها شكلاً عليها.

بدا جسمها كأنه أصبح أكثر صلابة، أغمضت عينيها، ومالت قليلاً، وفجأة جلست منتصبة وسرت رعشة في جسمها، كأنها استيقظت فجأة.

قالت بحيرة: "ما هذا؟ ما الذي كنت أقوله؟".

قال روز: "لا شيء. أنت متعبة. يجب أن ترتاحي قليلاً. سوف نتركك".

بدت تائهة قليلاً، ونحن نهم بالمغادرة.

قال الدكتور روز بعدما خرجنا: "حسنًا، ما رأيك في ذلك؟".

رمقني بنظرة حادة ونظر إلى جانبي.

قلت له ببطء: "أعتقد أن عقلها مشوش تمامًا".

"صدمك الأمر؟".

"لا، في الواقع، لقد كانت ـــــ فى الحقيقة ـــــ مقنعة بشكل غريب. عندما كنت أستمع لها، شعرت بأنها فعلت بالضبط ما ادعته، كأنها صنعت معجزة كبيرة. وإيمانها أنها فعلت ذلك جعل الأمر يبدو كأنه حقيقي إلى حد كبير. لهذا ـــــــــــــــــ"

"لهذا تقول إن عقلها مشوش تمامًا، ولكن لنأخذ الموضوع من زاوية أخرى. لنفترض أنها صنعت هذه المعجزة فعلاً، لنفترض أنها صنعتها بنفسها، ودمرت بناية ومئات الناس".

قلت وعلى شفتي ابتسامة: "بمجرد ممارسة إرادتها؟".

"يجب ألا أقول ذلك على هذا النحو، أظنك توافقني الرأي أن شخصًا واحدًا بإمكانه أن يدمر أشياء كثيرة بمجرد لمس مفتاح كهربي يتحكم في نظام ألغام".

"صحيح، ولكن هذا الأمر ميكانيكي".

"صحيح أنه ميكانيكي، ولكنه في جوهره، استخدام وتحكم في قوى طبيعية. فالعواصف الرعدية ومحطات توليد الكهرباء ـــــ أساسًا ـــــ تتم بالطريقة نفسها".

"هذا صحيح، ولكن لكي نتحكم في عاصفة رعدية يجب أن نستخدم وسائل ميكانيكية".

ابتسم روز.

"دعني أشرح لك الأمر بطريقة أخرى. هناك مادة تسمى شاي كندا توجد في الطبيعة في بعض الخضراوات، ومن الممكن أيضًا أن يصنعها الإنسان بشكل كيميائي في المعمل".

"حسنًا؟".

"أقول إنه في كثير من الأحيان تكون هناك طريقتان للوصول للنتيجة نفسها. أعترف أننا نستخدم الطريقة الاصطناعية. ولكن قد تكون هناك طريقة أخرى. النتائج غير العادية التي توصل إليها الهنود الفقراء على سبيل المثال، لا يمكن شرحها بأية طريقة سهلة. الأشياء التي نصفها بأنها خرافية هي الشكل الطبيعي للقوانين التي لم نفهمها بعد".

سألته بإعجاب: "حقًا؟".

"كما أنه لا يمكنني أن أنفي تمامًا إمكانية أن البشر قد يكونون قادرين على تطويع بعض القوى الهدامة واستخدامها لخدمة مصالحهم. والسبل التي يتم تحقيق ذلك من خلالها قد تبدو لنا خرافية؛ ولكنها قد لا تكون كذلك في الحقيقة".

حدقت إليه.

ضحك.

قال بخفة: "إنه مجرد تخمين، هذا كل ما في الأمر. أخبرني، هل لاحظت الإشارة التي صنعتها عندما تحدثت عن منزل البلورة؟".

"لقد وضعت يدها على جبينها".

"بالضبط. ورسمت دائرة عليه. سوف أطلعك الآن على شيء مثير للغاية سيد أنستروثر. لقد ترددت كلمة بلورة كثيراً في أثناء هذيان مريضتي، فأجريت تجربة. استعرت بلورة من شخص ما وأحضرتها معي فجأة لكي أختبر رد فعل مريضتي إزاء رؤيتها".

"حسنًا".

"حسنًا، كانت النتيجة غريبة للغاية وتدل على شيء ما. تصلب جسمها بالكامل. حدقت إليها كأنها لا تستطيع أن تصدق عينيها. ثم جثت على ركبتيها أمامها، وتمتمت ببضع كلمات، ثم سقطت مغشيًا عليها".

"وما الكلمات التي تمتمت بها؟".

"كلمات غريبة للغاية. قالت: "البلورة! إذن الإيمان لا يزال موجوداً!".

"غريب جدًا!".

"لهذا الأمر دلالة، أليس كذلك؟ الشيء الآخر الغريب، أنها عندما أفاقت من إغماءتها كانت قد نسيت الأمر برمته. أريتها البلورة وسألتها عما إذا كانت تعرف ما هذا. فأجابت أنها تعتقد أنها بلورة. وعندما سألتها عما إذا كانت قد رأت مثلها من قبل؟ أجابت قائلة: "لم أر مثلها قط يا دكتور". ولكنني رأيت نظرة حائرة في عينيها. سألتها: "ما الذي يزعجك أيتها الأخت؟". أجابت قائلة: "لأنها غريبة جداً. لم أر من

قبل بلورة، إلا أنه يبدو لي أنني أعرفها جيداً. هناك شيء ـــــ فقط لو أستطيع أن أتذكر...". كان من الواضح أن محاولتها للتذكر تؤلمها كثيراً، وهو ما اضطرني لأن أجبرها ألا تحاول أن تتعب نفسها أكثر من ذلك. حدث ذلك منذ أسبوعين. لقد تعمدت أن أنتظر هذه الفترة. وغداً، سوف أتابع المضي لتجربة أخرى".

"مستخدماً البلورة؟".

"نعم. سوف أعطيها إياها لكي تحدق إليها. أعتقد أن النتيجة ستكون مثيرة للغاية".

سألته بفضول شديد: "ما الذي تتوقع أن تتوصل إليه؟".

بدت الكلمات فارغة، ولكن كانت لها نتيجة غير متوقعة، فقد تصلب روز، واحمر وجهه، وتغيرت طريقته عندما تحدث كما لو أنه فقد الإحساس. بدت طريقة رسمية أكثر، مهنية أكثر.

"إلقاء الضوء على بعض الاضطرابات العقلية غير المفهومة. الأخت ماري أنجليك حالة مثيرة للاهتمام جداً".

تساءلت في نفسي؛ عما إذا كان اهتمام روز بمريضته أمراً مهنيّاً من الدرجة الأولى؟

سألته: "هل تمانع أن آتي معك؟".

ربما توهمت ذلك، ولكنني ظننت أنه تردد قبل أن يرد عليّ. استشعرت فجأة أنه لا يريدني أن أحضر معه.

"طبعاً، لا أرى أي سبب للاعتراض".

ثم أردف قائلاً: "أظنك لن تمكث هنا لفترة طويلة؟".

"سأبقى حتى بعد غد".

"شعرت بأن إجابتي أسعدته. فقد انفرج جبينه وبدأ في الحديث عن بعض التجارب التي أجراها مؤخراً على بعض الفئران".

III

قابلت الطبيب في الموعد الذي اتفقنا عليه بعد ظهيرة اليوم التالي، وذهبنا معاً إلى الأخت ماري أنجليك. اليوم، كان الطبيب ودوداً للغاية. شعرت بأنه حريص على طمس الانطباع الذي تركه في اليوم السابق.

قال مازحاً معي: "يجب ألا تأخذ ما قلته لك على محمل الجد" لا أريدك أن تظنني هاوياً لعلوم ما وراء الطبيعة. فأسوأ جوانب شخصيتي أنني أحب أن أضخم كل شيء

وأعطيه أكبر من حجمه".

"حقًا؟".

"نعم، وكلما زاد الأمر روعة، أحببته أكثر".

ضحك مثلما يضحك أي رجل من نقطة ضعف مضحكة في شخصيته.

عندما وصلنا إلى المنزل، كان لدى كبيرة الممرضات ما تريد استشارة الطبيب بشأنه، لذلك تركوني مع الأخت ماري أنجليك.

رأيتها تمعن النظر فيّ عن كثب، ثم تحدثت على الفور.

"قالت لي الممرضة الطيبة التي أقيم معها إنك أخو السيدة العطوف في المنزل الكبير الذي ذهبت إليه عندما أتيت من بلجيكا؟".

قلت لها: "هذا صحيح".

"لقد كانت عطوفًا معي للغاية. إنها طيبة".

ثم سكتت عن الكلام، كأنها تتبع حبل أفكارها. ثم أردفت قائلة:

"والدكتور، هل هو رجل طيب أيضًا؟".

شعرت ببعض الحرج.

"لماذا، نعم، أعني ـ أعتقد أنه كذلك".

توقفت عن الكلام ثم قالت: "آه! قطعًا كان طيبًا معي للغاية".

"أنا واثق بأنه كان كذلك".

نظرت إليّ بحدة.

"سيدي ـــــ أنت ـــــ أنت الذي تحدثني الآن ـــــ هل تعتقد أنني مجنونة؟".

"لماذا، أيتها الأخت، مثل هذه الفكرة لم ـــــــــــــــــــ".

هزت رأسها ببطء نافية ـــــ وقاطعت اعتراضي.

"هل أنا مجنونة؟ لا أعرف ـــــ الأشياء التي أتذكرها ـــــ الأشياء التي أنساها..."

تنهدت، وفي تلك اللحظة دخل روز الغرفة.

حياها مبتسمًا وشرح لها ما أرادها أن تفعل.

"بعض الناس لديهم موهبة رؤية أشياء في أية بلورة، أتفهمين ما أعنيه. أعتقد أن لديك مثل هذه الموهبة، أيتها الأخت".

بدت مضطربة.

"لا، لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك، بأن أحاول التنبؤ بالمستقبل ـــــ إنها خطيئة ".

أصاب روز الذهول، فلم يكن يسمح للسيدة المتدينة بأن تعبر عن مثل هذه النظرة للأمور, فغير الموضوع بذكاء.

"يجب على المرء ألا يتنبأ بالمستقبل. أنت محقة تمامًا؛ ولكن تأمل الماضي، فهذا أمر مختلف".

"الماضي؟".

"نعم ـ فهناك الكثير من الأمور الغريبة في الماضي. ومضات تخطر على بالك ـ ترينها للحظة ـ ثم تختفي مرة أخرى. لا تحاولي رؤية أي شيء في البلورة بما أنه غير مصرح لك بذلك. أمسكيها بيديك فقط . خذيها، انظري إليها ـ انظري بعمق. نعم ـ بعمق ـ بعمق أكبر. هل تذكرت شيئًا؟ لا؟ تذكري. أنت تسمعينني أحدثك. بإمكانك أن تجيبي عن أسئلتي. ألا تسمعينني؟".

أخذت الأخت ماري أنجليك البلورة كما أمرها، وتعاملت معها بمهابة غريبة. وبينما كانت تحدق إليها، أصبحت عيناها خاليتين من أي تعبير، بدت كأنها عمياء، ثم انحنى رأسها للأمام. بدت كأنها نائمة.

برفق أخذ الطبيب البلورة منها ووضعها على الطاولة. ورفع زاوية جفنها، ثم جاء وجلس إلى جواري.

"يجب أن ننتظر حتى تستيقظ. لن يطول الأمر كما أظن".

كان محقًا. فبعد خمس دقائق تحركت الأخت ماري أنجليك. فتحت عينيها على نحو حالم.

"أين أنا؟".

"أنت هنا ـ في المنزل. لقد غفوت قليلاً. كنت تحلمين، ألم تحلمي؟".

أومأت برأسها.

"بلى كنت أحلم".

"حلمت بالبلورة؟".

"نعم".

"حدثينا عنها".

"ستعتقد أنني مجنونة يا دكتور. فلقد رأيت في حلمي، البلورة رمزًا مقدسًا. استمر

طوال خمسة عشر ألف بدر كامل ـــــ أعني، خمسة عشر ألف عام".

"ما طول البدر الكامل؟".

"ثلاثة عشر بدرًا عاديًا. نعم، كان ذلك في خمسة عشر ألف بدر كامل ـ طبعًا، كنت خادمة في منزل البلورة حتى العلامة الخامسة. كان ذلك في الأيام الأولى من ظهور العلامة السادسة...".

انعقد حاجباها، وبدت على وجهها نظرة خوف.

تمتمت قائلة: "قريبًا جدًا. قريبًا جدًا. خطأ ما... آه! نعم، تذكرت! العلامة السادسة..."

وقفت نصف وقفة على قدميها، ثم سقطت مرة أخرى، ومررت يدها على وجهها وتمتمت قائلة:

"ولكن ما الذي أقوله؟ أنا أهذي. هذه الأمور لم تحدث قط".

"لا تشتتي نفسك الآن".

ولكنها كانت تنظر إليه بحيرة بائسة.

"دكتور، أنا لا أفهم. لماذا أحلم هذه الأحلام ـــــ هذه الخيالات؟ كنت في السادسة عشرة من عمري عندما وهبت نفسي للحياة الدينية. لم أسافر من قبل قط، إلا أنني أحلم بمدن، بأشخاص غرباء، بعادات غريبة. لماذا؟". ضغطت بكلتا يديها على رأسها.

"هل سبق أن خضعت لتنويم مغناطيسي أيتها الأخت؟ أو دخلت في غيبوبة؟".

"لم أخضع لتنويم مغناطيسي من قبل قط يا دكتور. أما بالنسبة للغيبوبة، عندما كنت أصلي، كثيراً ما كانت روحي تخرج من جسدي، وكنت أبدو مثل الأموات لساعات طويلة. قطعًا كانت حالة خاصة". التقطت أنفاسها. "تذكرت، كنا نسميها حالة مباركة".

تحدث روز بطريقة عملية: "أريد أن أجري تجربة أيتها الأخت. قد تطرد منك أشباه الذكريات المؤلمة تلك. سوف أطلب منك أن تحدقي إلى البلورة مرة أخرى، ثم سأقول كلمة معينة لك.فتردين عليّ بالكلمة التي تخطر على بالك، وسنستمر على هذا النحو حتى يصيبك التعب. ركزي أفكارك على البلورة، لا على الكلمات".

كشفت البلورة مرة أخرى وأعطيتها الأخت ماري أنجليك، فلاحظت الطريقة المبجلة التي لمستها بها. وضعتها على نسيج مخملي أسود، بين راحتي يديها الهزيلتين. وحدقت إليها بعينيها العميقتين. ساد صمت قصير، ثم قال الطبيب:

"كلب".

وعلى الفور أجابته الأخت ماري أنجليك قائلة: "موت".

IV

لن أحاول ذكر أدق تفاصيل التجربة. فقد تعمد الدكتور استخدام الكثير من الكلمات غير المهمة والتي لا معنى لها. كما كرر كلمات مرات عديدة، وتلقى أحيانًا الإجابة نفسها، وأحيانًا إجابة أخرى.

ذلك المساء في منزل الدكتور الصغير القائم على المنحدر ناقشنا نتيجة التجربة.

تنحنح الطبيب، وقرب مفكرته الصغيرة منه أكثر.

"هذه النتائج مثيرة للاهتمام جدًا ـــــ غريبة جدًا ـــــ وردًا على عبارة "العلامة السادسة" أجابت بردود متنوعة: تدمير، أرجواني، كلب، قوة، ومرة أخرى تدمير، وأخيرًا قوة. وفي وقت لاحق كما لاحظت، عكست الطريقة، فحصلت على النتائج التالية. ردًا على كلمة تدمير، حصلت على كلب، ردًا على أرجواني، حصلت على قوة، وردًا على كلب، حصلت على موت مرة أخرى، وردًا على قوة، حصلت على كلب. كل هذا مترابط معًا، ولكن عندما كررت كلمة تدمير للمرة الثانية، حصلت على بحر، وهو الرد الذي بدا غير ذي صلة بالموضوع على الإطلاق. وردًا على عبارة "العلامة الخامسة"، حصلت على أزرق، أفكار، طائر، ثم أزرق مرة أخرى. ومن واقع أن الرد على "العلامة الرابعة" كان كلمة أصفر، وفي وقت لاحق خفيف، وردًا على عبارة "العلامة الأولى"حصلت على دم، أستنتج أن كل علامة لها لون معين، وربما رمز معين، ربما كان الرمز المرتبط بالعلامة الخامسة هو طائرًا، والرمز المرتبط بالعلامة السادسة هو كلبًا؛ ولكنني أظن أن العلامة الخامسة تمثل ما يعرف بالتخاطر: وهو اتصال عقل بآخر. وترمز العلامة السادسة قطعًا إلى قوة التدمير".

"فما معنى البحر؟".

"أعترف بأنني عاجز عن تفسيره. فقد ذكرت لها هذه الكلمة في وقت لاحق وحصلت على الرد المنطقي وهو قارب. وبالنسبة للعلامة السابعة حصلت في البداية على حياة، وفي المرة الثانية على حب. وردًا على العلامة الثامنة، حصلت على لا يوجد. لذلك أعتقد أن العدد سبعة هو إجمالي عدد العلامات".

قلت كأن إلهامًا مفاجئًا هبط عليّ: "ولكن العلامة السابعة لم تتحقق. باعتبار أن العلامة السادسة جلبت التدمير!".

"آه! أتعتقد ذلك؟ ولكننا نتعامل مع هذه ـــــ التمتمات المجنونة ـــــ بجد أكبر من اللازم. الأمر مثير للاهتمام حقًا من وجهة نظر طبية فقط".

"طبعاً ستجذب انتباه الباحثين في علم النفس".

ضاقت عينا الطبيب: "سيدي العزيز، أنا لا أنوي أن أعلنها على الملأ".

"إذن ما سر اهتمامك بها؟".

"شخصي صرف. سوف أدون ملاحظاتي في الأمر بالطبع".

"فهمت". ولكنني للمرة الأولى شعرت ـــــ مثلما يشعر الأعمى ـــــ بأنني لا أرى أي شيء على الإطلاق. وقفت على قدمي.

"حسنًا، أتمنى لك ليلة سعيدة يا دكتور. سأتجه إلى البلدة غدًا".

"آه!". شعرت برضا، ربما راحة، في هتافه.

أردفت قائلاً: "أتمنى لك حظًا سعيداً في تحقيقاتك. لا تطلق كلب الموت عليّ في لقائنا التالي!".

كنت أصافحه يداً بيد عندما قلت ذلك، وشعرت بحركة مفاجئة فيها. استجمع قواه بسرعة، وتراجعت شفتاه للخلف مكشرتين عن أنيابه الطويلة والمدببة في ابتسامة عريضة.

قال لي: "بالنسبة لرجل يحب القوة، أي قوة قد تكون في ذلك! أن تجعل حياة كل إنسان بين يديك!".

واتسعت ابتسامته أكثر.

V

كانت هذه نهاية صلتي المباشرة بالأمر.

في وقت لاحق، وقعت بين يدي مفكرة الطبيب ودفتر يومياته. سوف أورد بعض التدوينات غير المكتملة الواردة هنا، إلا أنك سوف تفهم أنها لم تقع بين يدي حتى وقت لاحق.

5 أغسطس. اكتشفت أن الأخت م. أ. قصدت بـ "المختار" من أعاد المحاولة. من الواضح أنهم كانوا ضمن أعلى مراتب.

7 أغسطس. أقنعت الأخت م. أ. أن تسمح لي بتنويمها مغناطيسيًا. ونجحت في أن أخضعها لنوم مغناطيسي وأن أدخلها في غيبوبة التنويم، بدون أن تتحقق أية علاقة.

9 أغسطس. هل كانت هناك حضارات في الماضي تفوق حضارتنا بمراحل؟ إذا كان الأمر كذلك، فإنها قطعاً كانت غريبة، وأنا الشخص

الوحيد الذي يملك مفتاحها...

12 أغسطس. لم تعد الأخت م. أ. قابلة لإعطاء ردود عند تنويمها مغناطيسيًا. إلا أن استحثاث حالة الغيبوبة كان سهلاً. لا أستطيع أن أفهم السبب.

13 أغسطس. ذكرت الأخت م. أ. اليوم أنه في "الحالة المباركة" "يجب إغلاق البوابة، خشية أن يسيطر شخص آخر على الجسم". أمر مثير للاهتمام ـــــ ولكنه محير.

18 أغسطس. إذن العلامة الأولى قطعًا هي... (الكلمات مسحت هنا)... إذن كم عدد القرون التي تحتاج إليها للوصول إلى السادسة؟ فقط لو كان هناك طريق مختصر إلى القوة...

20 أغسطس. رتبت مع م. أ. الحضور إلى هنا مع الممرضة. وأخبرتها بأنه من الضروري أن تبقي مريضتها تحت تأثير مادة المورفين المخدرة. هل أنا مجنون؟ أم أنني سأصبح إنسانًا خارقًا للطبيعة، من خلال قوة الموت التي أصبحت بين يدي؟

(هنا انتهى التدوين).

VI

كان ذلك ـــــ في اعتقادي ـــــ في 29 من أغسطس عندما تلقيت الخطاب، كان موجهًا لي، وكان مكتوبًا بخط أجنبي مائل. فتحت الخطاب بفضول شديد. كان كما يلي:

سيدي العزيز، لم أرك سوى مرتين، ولكنني شعرت بأنه بإمكاني أن أثق بك. سواء كانت أحلامي حقيقة أم لا، فقد أصبحت أكثر وضوحًا مؤخرًا... وهناك شيء واحد يا سيدي أهم من كل الأحداث، كلب الموت ليس حلمًا... في الأيام التي أخبرتك به (سواء كانت حقيقة أم لا، لست أدري). لقد كشف حارس البلورة العلامة السادسة للناس في وقت مبكر للغاية... دخل الشر قلوبهم. كانوا يتمتعون بقوة الذبح بإرادتهم ـــــ وكانوا يذبحون بدون عدالة ـــــ بغضب. كانت شهوة القوة تسيطر عليهم. وعندما رأينا ذلك، نحن من كنا لا نزال أنقياء، عرفنا من جديد أنه ليس علينا إتمام الدائرة والوصول إلى علامة الحياة السرمدية. من سيصبح الحارس التالي للبلورة كان ممنوعًا من التصرف. إن العجوز قد يموت، والجديد، بعد عصور لا نهاية لها، قد يظهر من جديد، لقد أطلق كلب الموت وراء البحر (ولحرصه ألا يغلق الدائرة)، فهاج البحر على شكل كلب وابتلع الأرض بالكامل...

لقد تذكرت هذا الأمر من قبل ـــــ على درجات المذبح في بلجيكا... الدكتور روز من الإخوة. إنه يعرف العلامة الأولى، وشكل الثانية، رغم أن معناها محجوب عن الجميع إلا القليل. ربما علم مني العلامة السادسة.وقد قاومته حتى الآن ـــــ ولكنني أصبحت ضعيفة يا سيدي، وليس جيداً أن يصل أي امرئ إلى القوة قبل أوانه. فيجب أن تمر قرون عديدة قبل أن يصبح العالم مستعداً لامتلاك قوة الموت ويسلمها إلى يديه... أتوسل إليك سيدي، يا من تحب الخير والحقيقة، ساعدني... قبل فوات الأوان.
أختك،
ماري أنجليك

تركت الورقة تسقط من يدي. بدت الأرض الصلبة من تحتي كأنها أقل صلابة عن المعتاد، ثم بدأت أستجمع قواي. لقد استشعرت إيمان السيدة المسكينة؛ إيمانها الحقيقي! بدا شيء واحد واضحاً. الدكتور روز، في حماسته للأمر، كان يسيء استخدام مهنته إلى حد بعيد. كان من الممكن أن أستنتج ما حدث و ـــــــــ

فجأة لاحظت خطاباً من كيتي بين الخطابات الأخرى. فتحت الخطاب، ثم قرأته: "لقد حدث أمر مروع، أتذكر منزل الدكتور روز الصغير القائم على المنحدر؟ لقد انجرف بعيداً بسبب انهيار الصخور الليلة الماضية،وقُتل الدكتور والسيدة المتدينة المسكينة الأخت ماري أنجليك. منظر الأطلال المتناثرة على الشاطئ مخيف للغاية؛ فقد تراكمت على شكل كتلة رائعة ـــــ من مسافة بعيدة تبدو كأنها كلبضخم..." سقط الخطاب من يدي.

قد تكون الحقائق الأخرى مجرد مصادفة؛ولكن عم الدكتور روز الذي اكتشفت أنه قريب ثري له توفي فجأة في الليلة نفسها. سمعت أن صاعقة ضربته. وعلى حد علمي لم تحدث أية عواصف رعدية في الجوار، ولكن شخصاً أو اثنين أعلنا أنهما سمعا صوت قصفة رعدية. احترق بفعل الكهرباء متخذاً "شكلاً غريباً". كان قد ترك كل شيء في وصيته إلى ابن أخيه الدكتور روز.

الآن، أعتقد أن الدكتور روز نجح في اكتشاف سر العلامة السادسة من الأخت ماري أنجليك. لطالما شعرت بأنه رجل مجرد من المبادئ ـــــ وأنه لا يتراجع أبداً عن قتل عمه إذا ما تأكد أن ثروته لن تئول إليه بعد وفاته. ولكن إحدى الجمل التي استخدمتها الأخت ماري أنجليك في خطابها ترددت في عقلي... "ولحرصه ألا يغلق الدائرة... "ولكن الدكتور روز لم يولِ هذا الأمر العناية الكافية ـــــ ربما كان لا يعلم الخطوات التي يتخذها، أو ضرورة الحاجة إليها. ولهذا عادت القوة التي استخدمها، مستكملة دائرتها...

ولكن بالطبع كل هذا محض هراء! كل شيء يمكن إرجاعه لحوادث طبيعية؛ كأن

يكون مجرد إيمان الدكتور روز بهلاوس الأخت ماري أنجليك يثبت أن عقله هو الآخر، لم يكن متزنًا.

إلا أنني أحلم أحيانًا بقارة أسفل البحار حيث كان الناس يعيشون من قبل، ووصلوا لدرجة من الحضارة تفوق حضارتنا بمراحل....

أم أن الأخت ماري أنجليك تنبأت بالمستقبل ـــــ كما يقول بعض الأفراد إنه ممكن ـــــ وأن مدينة الدوائر موجودة في المستقبل وليست في الماضي؟

هراء ـــــ طبعًا الأمر برمته مجرد هلاوس!

الإشارة الحمراء

قالت السيدة الجميلة إفرسلي: "لا، ولكن كم هو مثير للغاية!"، ثم فتحت عينيها الجميلتين, الخاليتين تقريباً من أي تعبير, على وسعهما, وأردفت: "دائماً ما نسمع أن السيدات يتمتعن بحاسة سادسة. هل تعتقد أن هذا صحيح يا سير ألينجتون؟".

ابتسم طبيب الأمراض النفسية الشهير ابتسامة ساخرة، فقد كان بداخله ازدراء لا حدود له لهذه الدرجة الشديدة من الحماقة التي تتسم بها ضيفته. كان سير ألينجتون ويست علماً من أعلام مجال الأمراض النفسية، وكان مدركاً تماماً لمنصبه وأهميته. كان مغروراً بنفسه، كما كان بديناً بعض الشيء.

"هناك قدر كبير من الهراء يتم تداوله، أنا أعرف ذلك سيدة إفرسلي. ما الذي تعنينه بعبارة حاسة سادسة؟".

"أنتم رجال العلم جادون أكثر من اللازم دوماً. إنه بحق أمر غير عادي أن يعرف المرء شيئاً ما ـــــ يعرفه فحسب، أعني يستشعر شيئاً ـــــ بطريقة غريبة. كلير تعرف ما أعنيه، أليس كذلك يا كلير؟".

نظرت إلى ضيفتها بشيء من التجهم، بكتفين مائلتين.

لم تجب كلير ترنت على الفور. فقد كان حفل عشاء بسيطاً، ضمها هي وزوجها، وفيوليت إفرسلي، وسير ألينجتون ويست، وابن أخيه ديرموت ويست، الذي كان صديقاً قديماً لـ جاك ترنت. وقد حاول جاك ترنت نفسه ـــــ الذي كان متورد الوجه بشكل صارخ، وعلى شفتيه ابتسامة مليحة، وضحكة بسيطة بعض الشيء ـــــ فتح الموضوع مرة أخرى.

"كلام فارغ يا فيوليت! لقد قتل أعز أصدقائك في حادث على السكك الحديدية. وعلى الفور، تذكرت أنك حلمت بقطة سوداء الثلاثاء الماضي ـــــ رائع، كنت تشعرين طوال الوقت أن شيئاً ما سيحدث!".

"أوه، لا يا جاك، أنت تخلط بين الشعور المسبق والحدس. والآن، يا سير ألينجتون، يجب أن تعترف بأن الشعور المسبق حقيقي؟".

اعترف طبيب الأمراض النفسية بحذر قائلاً: "ربما لدرجة معينة. ولكن المصادفة تلعب دوراً في ذلك، كما أن هناك ميلاً دائماً لإكمال أية قصة بعد ذلك ـــــ ويجب دوماً وضع ذلك في الاعتبار".

قالت كلير ترنت، بشكل مفاجئ: "لا أظن أن هناك شيئاً يسمى شعوراً مسبقاً، أو

حدساً، أو حاسة سادسة، أو أي شيء مما نتحدث عنه من غير تكلف. إننا نمضي في الحياة مثل أي قطار يندفع في الظلام إلى وجهة غير معلومة".

رفع ديرموت ويست رأسه وشارك في الحوار للمرة الأولى بقوله: "من الصعب الموافقة على هذا التشبيه يا سيدة ترنت". كانت هناك لمعة غريبة في عينيه الرماديتين الصافيتين اللتين لمعتا بشكل غريب في وجهه الأسمر ذي الملامح العميقة. "لقد نسيت الإشارات، كما تعلمين".

"الإشارات؟".

"نعم، الأخضر يعني أن الأمور تسير على ما يرام، والأحمر ـــــ علامة الخطر!".

قالت فيوليت إفرسلي بعدما التقطت أنفاسها: "أحمر ـــــ علامة الخطر ـــــ كم هذا مثير!".

استدار ديرموت نائياً بوجهه عنها بنفاد صبر.

"إنها مجرد طريقة لوصف الأمر طبعاً. خطر وشيك! الإشارة الحمراء! انتبه!".

حدق ترنت إليه على نحو غريب.

"أنت تتحدث كأنها كانت تجربة حقيقية يا عزيزي ديرموت".

"الأمر كذلك، أعني كان كذلك".

"حدثنا عما حدث".

"بإمكاني أن أقص عليكم حادثة واحدة. بينما كنت في بلاد الرافدين ـــــ تماماً بعد عقد الهدنة، دخلت خيمتي ذات مساء وبداخلي إحساس غريب. إحساس بوجود خطر! انتبه! لم تكن لدي أدنى فكرة عن السبب وراء هذا الشعور. أخذت جولة في المعسكر، وأنا أشعر بقلق غير مبرر، وأخذت كل الاحتياطات الممكنة في حالة حدوث هجوم من الأعداء. ثم عدت إلى خيمتي، وبمجرد أن دخلت الخيمة، استيقظ بداخلي الشعور نفسه وبدرجة أشد من ذي قبل. إحساس بوجود خطر! في النهاية، أخذت بطانية إلى الخارج، ودثرت نفسي بها ونمت هناك".

"وبعد ذلك؟".

"في صباح اليوم التالي، عندما دخلت إلى الخيمة، كان أول ما وقعت عليه عيناي هو سكين كبيرة ـــــ طولها حوالي نصف متر تقريباً ـــــ مغروسة حيث أرقد تماماً. وبسرعة اكتشفت ما حدث، كان أحد الخادمين، الذي أطلق على ابنه النار باعتباره جاسوساً. ماذا ستقول عن ذلك يا عمي ألينجتون: كمثال لما أسميه الإشارة الحمراء؟".

ابتسم الطبيب ابتسامة لا تعبر عن أي رأي صريح.

"قصة مثيرة للغاية عزيزي ديرموت".

"ولكنها ليست من النوع الذي تتقبله بغير تحفظ؟".

"صحيح، صحيح، ليس لدي شك أنك استشعرت الخطر قبل حدوثه، تماماً مثلما قلت؛ ولكن أصل الإحساس المسبق هو ما أشكك فيه. أنت ترى أنه ينبعِ بدون أي مصدر خارجي يؤثر في تفكيرك؛ ولكننا هذه الأيام نجد أن كل شيء تقريباً ينبع من داخلنا ـــــ من عقلنا الباطن نفسه".

صاح جاك ترنت قائلاً: "جيد العقل الباطن هذا، إنها الكلمة التي أصبحت تصلح لكل شيء هذه الأيام".

تابع سير ألينجتون حديثه بدون أن يلقي بالاً للمقاطعة.

"أظن أنه بالنظر المتفحص، نجد هذا الخادم قد خان نفسه. عقلك الواعي لم يلحظ ذلك، ولكن الوضع كان مختلفاً بالنسبة لعقلك الباطن. فالعقل الباطن لا ينسى أبداً، كما أننا نعتقد أنه قادر أيضاً على التفكير واستنتاج الأمور بمعزل عن الإرادة الواعية. إذن فقد آمن عقلك الباطن بأنك قد تتعرض لمحاولة اغتيال، ونجح في فرض مخاوفه على عقلك الواعي".

قال ديرموت مبتسماً: "يبدو هذا منطقياً للغاية".

"لعلك أيضاً قد استشعرت على مستوى عقلك الباطن كراهية هذا الرجل لك. وطبعاً ما كنا نسميه فيما مضى التخاطر موجود فعلاً، إلا أن الظروف التي تحكمه غير مفهومة تماماً بالنسبة لنا".

سألت كلير: "هل كانت هناك أية حوادث أخرى؟".

"آه! نعم، ولكنها ليست واضحة تماماً ـــــ وأعتقد أنه من الممكن إرجاعها إلى المصادفة. لقد رفضت دعوة للذهاب إلى منزل ريفي ذات مرة، لا لسبب سوى استشعاري بتلك "الإشارة الحمراء". فاحترق المكان خلال الأسبوع. بالمناسبة، عمي ألينجتون، ما الدور الذي يلعبه العقل الباطن في هذا الأمر؟".

قال ألينجتون مبتسماً: "أعتقد أنه لا يلعب أي دور".

"ولكنّ لديك تحليلاً جيداً جداً. هيا، لا حاجة لأن تكون لبقاً مع قريبك".

"حسناً، إذن يا ابن أخي، سأقترح أنك رفضت الدعوة لسبب عادي وهو أنك لم ترغب في الذهاب إلى هناك من الأساس، وأنك بعد الحريق، اقترحت على نفسك أنك تلقيت تحذيراً بوجود خطر، وهو التفسير الذي تؤمن به الآن على نحو مطلق".

ضحك ديرموت وقال: "لا فائدة. إذا اخترت الصورة على وجه العملة تفوز، وإذا ظهرت الكتابة أخسر".

صاحت فيوليت إفرسلي قائلة: "لا يا سيد ويست. أنا أؤمن بإشارتك الحمراء بشكل مطلق. هل كانت فترة وجودك في بلاد الرافدين آخر مرة شعرت فيها بهذه الإشارة؟".

"نعم ـــــ حتى ـــــ"

"عذراً؟"

"لا شيء".

جلس ديرموت في صمت. كانت الكلمات التي لم تخرج من بين شفتيه هي: "نعم، حتى الليلة". لم تغادر الكلمات فمه، تعبيراً عن فكرة لم تكمل لديه بعد، ولكنه أدرك على الفور أنها كانت حقيقية. كانت الإشارة الحمراء تلوح له في الظلام من بعيد. خطر! خطر قريب!

ولكن لماذا؟ ما الخطر الممكن تصوره هنا؟ هنا في منزل أصدقائه؟ على الأقل، حسناً هناك ذلك النوع من الخطر. نظر إلى كلير ترنت ـــــ إلى بياض بشرتها، ورشاقتها، وشعرها الذهبي المنساب. ولكن هذا الخطر كان هناك منذ فترة ـــــ ولم يكن من المحتمل أن تزداد حدته. أما بالنسبة لـ جاك ترنت فقط كان أعز أصدقائه، وأكثر من أعز الأصدقاء، كان الرجل الذي أنقذ حياته في فلاندرز، وترشح لذلك للحصول على ميدالية الشجاعة البرونزية. كان جاك بحق شخصاً جيداً، من أفضل الشخصيات التي عرفها على الإطلاق. تباً للحظ العثر الذي أوقعه في حب زوجته. سوف يتغلب على ذلك حتماً ذات يوم، فالأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو إلى الأبد. فبإمكانه التغلب على عاطفته. أغلب الظن أنها لن تخمن هذا الأمر، وإذا استشعرت حبه، فليس هناك خطر أن تكترث له. فهي تمثال، تمثال جميل، تمثال متقن الصنع من الذهب والعاج ... لعبة لملك، لا امرأة حقيقية...

كلير... مجرد التفكير في اسمها، ولو لم ينبس به، يجرحه... يجب أن يتغلب على ذلك. لقد اهتم بنساء من قبل... "ولكن ليس على هذا النحو! ليس بهذا الشكل". الأمر كذلك إذن، ليس هناك خطر؛ وجع قلب، ربما، ولكن ليس هناك خطر. ليس هناك خطر الإشارة الحمراء، بل كان هناك خطر متعلق بشيء آخر.

ألقى نظرة من حوله على المجتمعين حول الطاولة وخطر على باله للمرة الأولى أنه كان اجتماعاً صغيراً على غير العادة. فعمه على سبيل المثال، نادراً ما يتناول العشاء بهذه الطريقة غير الرسمية. كما أنه ليس صديقاً لعائلة ترنت، حتى هذا المساء. لم يكن ديرموت مدركاً أنه يعرفهم أساساً.

قطعاً هناك سبب لهذا الاجتماع، فقد كانت هناك عرافة مشهورة ستحضر بعد العشاء للتحدث بشأن الروحانيات. وقد اعترف سير ألينجتون بأنه مهتم بالروحانيات. قطعاً كان هذا سبباً.

فرضت الكلمة نفسها على انتباهه. سبب. هل كانت جلسة الروحانيات سبباً لحضور

إخصائي الأمراض النفسية حفل عشاء؟ إذا كان الأمر كذلك، فما الهدف الحقيقي من تواجده هنا؟ تدافعت مجموعة من التفاصيل إلى عقله، أمور صغيرة لم يلتفت إليها وقت حدوثها، أو كما يقول عمه، لم يلحظها العقل الواعي.

نظر الطبيب العظيم إلى كلير أكثر من مرة بشكل غريب، غريب جداً. بدا كأنه يراقبها. شعرت بتململ لكونها تحت تفحصه. ارتعشت يداها الصغيرتان على نحو مفاجئ. كانت متوترة، متوترة للغاية، وهل من الممكن أن تكون خائفة؟

ولماذا تخاف؟

برعشة بسيطة، عاد إلى الحوار الذي كان يدور على الطاولة. كانت السيدة إفرسلي قد دفعت الرجل العظيم للحديث عن تخصصه.

كان يقول: "سيدتي العزيزة، ما الجنون؟ أؤكد لك أننا كلما درسنا الموضوع أكثر، وجدنا صعوبة أكبر في الحكم عليه. جميعنا يمارس درجة معينة من خداع الذات، وعندما نفرط في ممارسته للحد الذي يجعلنا نؤمن بأننا قياصرة ، فإننا نصمت أو نُقمع؛ ولكن هناك طريقًا طويلاً قبل أن نصل لهذه النقطة. وما هي النقطة التي يجب أن نضع عندها علامة فارقة تعلن أن: "هذا الجانب يندرج تحت السلامة العقلية، والجانب الآخر يندرج تحت الجنون؟". لا يمكن القيام بذلك، كما تعلمين. وسوف أقول لك، إذا امتنع الشخص الذي يعاني وهمًا ما عن الحديث عنه، ففي جميع الاحتمالات لن تتمكن من تمييزه عن أي شخص طبيعي. والسلامة العقلية الاستثنائية للشخص المجنون موضوع مثير للاهتمام جداً".

ارتشف سير ألينجتون شرابه بتقدير، وابتسم للحضور.

قالت السيدة إفرسلي: "لطالما سمعت أنهم غاية في الذكاء. أقصد المجانين".

"إلى حد كبير يكونون كذلك. إن الوهم الذى ينتاب شخصًا مجنونًا كثيراً ما يكون له تأثير مدمر. كل عمليات الكبت خطيرة، كما تعلمنا من التحليل النفسي، فالرجل الغريب على نحو غير مضر، والقادر على التحكم في نفسه، نادراً ما يتخطى حدوده. ولكن الرجل" ـــــ ثم سكت لحظات ـــــ " أو المرأة أو أى إنسان يبدو طبيعيًا تمامًا، قد يكون في الواقع مصدر خطر كبير على المجتمع".

نظر إلى كلير نظرة سريعة خاطفة، ثم نظر لأسفل مرة أخرى. ارتشف شرابه مرة أخرى.

شعر ديرموت بخوف شديد. هل كان هذا هو ما يعنيه؟ هل كان هذا هو ما يقصده من كلامه؟ مستحيل، ولكن ـــــ

تنهدت السيدة إفرسلي وقالت: "وكل هذا بسبب كبت المرء لنفسه. أرى أن المرء يجب أن يكون حذراً للغاية على الدوام، عند التعبير عن شخصيته. فالمخاطر التي يمثلها

الآخرون مخيفة جداً".

اعترض الطبيب قائلاً: "عزيزتي السيدة إفرسلي؛ لقد أسأت فهمي تماماً، فسبب تعمد الأذى يكون في البنية المادية للمخ؛ حيث يكون السبب خارجياً كهبوب الريح، وأحياناً بشكل فطري مع الأسف".

تنهدت السيدة على نحو غامض وقالت: "الوراثة أمر محزن للغاية. مثل السل وغيرها من الأمراض".

قال سير ألينجتون بطريقة جافة: "مرض السل ليس وراثياً".

"حقاً؟ ظننته كذلك. ولكن الجنون وراثي! كم هذا مخيف. ماذا أيضاً؟".

قال سير ألينجتون مبتسماً: "النقرس. وعمى الألوان الذي أجده مثيراً على وجه الخصوص، فهو ينتقل مباشرة إلى الرجال، ولكنه يكون كامناً لدى النساء. ولهذا ورغم وجود عدد كبير من الرجال الذين يعانون عمى الألوان، فإنه لكي تعاني أية سيدة عمى الألوان، يجب أن تكون صفة كامنة لدى والدتها، وموجودة لدى والدها ـــــ وهو أمر من النادر حدوثه. وهذا هو ما نسميه الوراثة المحصورة بالجنس".

"كم هذا مثير! ولكن الجنون ليس كذلك، أليس هذا صحيحاً؟".

قال الطبيب برزانة: "الجنون قد يصيب الرجال أو النساء على حد سواء".

وقفت كلير فجأة، دافعة كرسيها للوراء على نحو مفاجئ لدرجة أنه انقلب وسقط على الأرض. كانت شاحبة للغاية وكانت حركات أصابعها تعكس عصبية واضحة عليها جداً.

قالت متوسلة: "أنت ـــــ لن تبقى هنا كثيراً، أليس كذلك؟".

"السيدة ثومبسون ستصل إلى هنا في غضون دقائق".

قال سير ألينجتون: "سأحتسي كوباً آخر من الشراب، وسألحق بك، فلقد أتيت إلى هنا لأرى الأداء الرائع للسيدة ثومبسون، أليس كذلك؟ ها، ها! لست بحاجة لأي حافز". ثم انحنى للأمام.

رسمت كلير ابتسامة باهتة تدل على التسليم ثم خرجت من الغرفة، واضعة يدها على كتف السيدة إفرسلي.

قال الطبيب وهو يجلس من جديد: "أخشى أن أكون قد أسرفت في الحديث عن أمور مهنية. سامحني يا صديقي العزيز".

قال ترنت بطريقة روتينية: "كلا، على الإطلاق".

بدا متعباً وقلقاً. شعر ديرموت للمرة الأولى بأنه غريب وهو بصحبة صديقه. فبين

الاثنين سر لا يمكن مشاركته حتى مع صديق قديم، فالأمر كله كان غير ممكن ولا يصدق. ما الذي يمكنه الاعتماد عليه؟ لا شيء سوى بضع نظرات، وتوتر سيدة.

لم ينقض وقت طويل على احتسائهما الشراب، حتى تم الإعلان عن وصول السيدة ثومبسون إلى غرفة الرسم.

كانت العرافة سيدة بدينة في منتصف العمر، ترتدي ثوبًا مخمليًا أرجواني اللون، وكان صوتها عاليًا أكثر من المعتاد.

قالت مبتهجة: "آمل ألا أكون قد تأخرت يا سيدة ترنت. لقد حددت الساعة التاسعة، أليس كذلك؟".

قالت كلير بصوتها العذب ولكن بطريقة خشنة بعض الشيء: "لقد حضرت في الموعد المحددة يا سيدة ثومبسون. هذه صحبتنا الصغيرة".

لم تتم أية تعريفات أخرى، مثلما جرت العادة. رمقتهم العرافة جميعًا بنظرة ثاقبة متبصرة.

قالت بحماسة: "آمل أن نحقق نتائج جيدة، فكم أكره الانتهاء من جلسة بدون أن يشعر الحاضرون بالرضا. فهذا الأمر يثير جنوني. أشعر بقدر كبير من اللياقة الليلة لم أشعر بها من قبل، كما رفضت تناول طبق غني بعدة أنواع من الجبن واكتفيت بشريحة خبز محمص مع قطعة جبن واحدة".

استمع ديرموت، وهو نصف مستمتع ونصف مشمئز. كم كان الأمر كله مبتذلاً! ورغم ذلك، ألا يتم الحكم عليه بالحماقة؟ فكل شيء في نهاية الحال، كان طبيعيًا ـــــ القوى التي تدعيها العرافة كانت قوى طبيعية، حتى لو لم نفهمها تمامًا. ولعل أي جراح عظيم قد يخشى أن يصاب بعسر هضم ليلة خضوعه لعملية جراحية بسيطة، فلماذا لا تخاف السيدة ثومبسون من استدعاء الجن؟

كانت الكراسي مرتبة بشكل دائري، وكانت الإضاءة مصممة بحيث يصبح من الممكن زيادتها أو خفضها. لاحظ ديرموت أنه ليست هناك أسئلة استقصائية، أو ما يسعد به سير أللينجتون نفسه بشأن الجلسات الروحانية. كانت السيدة ثومبسون تؤدي عملها بدون أدنى معرفة. وكان سير أللينجتون هنا لهدف آخر مختلف تمامًا، فقد كانت والدة كلير، كما تذكر ديرموت، توفيت في الخارج. وكان هناك لغز ما حول ... ورثتها...

برعشة خفيفة، أجبر عقله على العودة للتركيز على اللحظة الراهنة.

أخذ الجميع أماكنهم، وتم إطفاء جميع الأضواء، باستثناء مصباح صغير له ظل أحمر كان موضوعًا على طاولة بعيدة.

للحظة لم يسمع أي شيء سوى الأنفاس المنخفضة للعرافة. وتدريجيًا اشتد صوتها ليصبح أشبه بصوت الغطيط.

قالت بصوت غليظ: "توجد رسالة مهمة للغاية لأحد السادة".

ساد صمت لفترة، ثم واصلت كلامها بضحكة شيطانية شريرة مكتومة.

"ها، ها! ها، ها، ها! من الأفضل لك ألا تعود إلى المنزل. من الأفضل لك ألا تعود إلى المنزل، خذ بنصيحتي".

سألها ترنت: "إلى من تتحدثين؟".

"أحد ثلاثتكم. لن أعود إلى المنزل لو كنت مكانه. خطر! دم! ليس دمًا كثيرًا للغاية ـــــ ولكنه يكفي إلى حد كبير. لا، لا تعد إلى المنزل". ثم أردفت بصوت ضعيف: "لا تعد إلى المنزل!".

اختفى صوتها تمامًا. سرى وخز خفيف في جسم ديرموت. كان مقتنعًا بأن التحذير موجه له. بطريقة ما أو بأخرى، كان هناك خطر بالخارج الليلة.

تنهدت العرافة، ثم تأوهت، كأنها تستعيد وعيها، حيث إن نبوءتها تصدر دائمًا عندما تكون فاقدة للوعي كانت هناك قوى كونية خارقة هي من تحركها وتتحدث عنها، ثم أضيئت الأنوار، جلست في جلسة مستقيمة، وهي تغمض وتفتح عينيها على نحو لا إرادي قليلاً.

"آمل أن تكون الليلة سارت على نحو جيد، آمل ذلك".

"سارت على نحو جيد جدًا، شكرًا لك سيدة ثومبسون".

تثاءبت السيدة ثومبسون.

"أنا متعبة للغاية. خائرة القوى تمامًا. هل تعبتم أيضًا. حسنًا، أنا سعيدة لأنها سارت بنجاح. كنت خائفة قليلاً ألا تسير بهذا الشكل ـــــ خائفة من حدوث شيء غير مقبول. لدي شعور غريب بشأن هذه الغرفة الليلة".

تفحصت أكتاف كل الحاضرين كل بدوره، ثم هزتهم على نحو غير مريح.

قالت: "لا أحب هذا. هل حدثت حالات موت مفاجئ لدى أحدكم مؤخرًا؟".

"ماذا تعنين بـ لدينا؟".

"أقارب ـــــ أصدقاء أعزاء؟ لا؟ حسنًا، إذا أردت أن أتصرف بشكل درامي، سأقول إن هناك موتًا يحلق في الجو الليلة. هناك، إنه الكلام الفارغ الذي أهذي به. وداعًا، سيدة ترنت، أنا سعيدة أن الجلسة نالت رضاكم".

خرجت السيدة ثرومبسون بثوبها الأرجواني المخملي من المنزل.

قالت كلير بصوت خافت: "آمل أن تكون قد استمتعت يا سير ألينجتون".

"كانت ليلة من أكثر الليالي إثارة سيدتي العزيزة. شكراً جزيلاً على هذه الفرصة. أتمنى لك ليلة سعيدة. جميعكم ستذهبون إلى الرقص، أليس كذلك؟".

"ألن تصاحبنا؟".

"نعم، نعم، فأنا معتاد أن أخلد للنوم في تمام الحادية عشرة والنصف. تصبحين على خير سيدة إفرسلي. آها! ديرموت، أريد أن أقول لك شيئًا. هل يمكنك أن تأتي معي الآن؟ بإمكانك أن تعود للانضمام لأصدقائك بمعرض جرافتون في وقت لاحق".

"طبعًا يا عمي. إذن سوف ألقاك هناك يا ترنت".

تم تبادل كلمات بسيطة للغاية بين العم وابن أخيه خلال المسافة القصيرة إلى شارع هارلي. قدم سير ألينجتون شبه اعتذار لأنه أخرج ديرموت من الحفل بهذه الطريقة، وأكد له أنه لن يؤخره سوى دقائق معدودات.

سأله في أثناء خروجهما من السيارة: "هل أترك لك السيارة يا بني؟".

"أوه، لا تشغل بالك يا عمي. سوف أركب سيارة أجرة".

"جيد جداً. لا أحب أن أبقي تشارلسون مستيقظًا لساعة متأخرة إلا في الحالات القصوى، تصبح على خير يا تشارلسون. والآن. أين وضعت مفاتيحي بحق الله؟".

تزحلقت السيارة قليلاً بينما وقف سير ألينجتون على الدرجات يبحث في جيوبه عن المفاتيح بدون جدوى.

في النهاية: "قطعًا تركتها في معطفي الآخر. اقرع الجرس يا ديرموت، فلا يزال جونسون مستيقظًا، كما أتمنى". فتح جونسون الباب بهدوء في غضون دقيقة واحدة.

قال له سير ألينجتون: "لقد نسيت مفاتيحي يا جونسون. هل تحضر كوبين من الشراب إلى المكتبة من فضلك؟".

"طبعًا سير ألينجتون".

سار الطبيب بخطوات واسعة في اتجاه المكتبة وأضاء المصابيح، ثم طلب من ديرموت أن يدخل ويغلق الباب.

"لن أطيل عليك يا ديرموت، ولكن هناك شيئًا أريد أن أقوله لك. هل أتصور خطأ ــــ أم أنها حقيقة ــــ أنك منجذب دعني أقل، إلى زوجة السيد جاك ترنت؟".

تدفق الدم لوجه ديرموت.

"جاك ترنت هو أعز صديق لي".

"اسمح لي، ولكنك لم تجب عن سؤالي. أعتقد أنك تعتبر وجهة نظري في الطلاق ومثل هذه الأمور دينية بحتة، ولكنني يجب أن أذكرك أنك قريبي ووريثي الوحيد

أيضًا".

قال ديرموت بغضب: "ليس هناك مجال للطلاق".

"طبعًا ليس هناك مجال للطلاق، لسبب أفهمه ربما أكثر مما تفهمه. هذا السبب المحدد لا أستطيع أن أذكره لك الآن، ولكنني أريد أن أحذرك. كلير ترنت لا تناسبك".

واجه الشاب الصغير نظرة عمه بثبات.

"أفهم ذلك ـــــ واسمح لي بأن أقول، ربما أفضل مما تظن. أنا أعرف سبب حضورك حفل العشاء الليلة".

"ماذا؟ بدا الاندهاش واضحًا على وجه الطبيب، ثم أردف قائلاً: "كيف عرفت ذلك؟".

"لنقل تخمينًا يا سير. هل أنا محق، أم أنني مخطئ عندما أقول إنك كنت هناك لسبب مهني؟".

سار سير ألينجتون جيئة وذهابًا.

"أنت محق تمامًا يا ديرموت. لم يكن بإمكاني طبعًا أن أخبرك بذلك بنفسي، ولكنني أخشى أنه سيصبح شيئًا معروفًا عما قريب".

انقبض قلب ديرموت.

"تعني أنك ـــــ اتخذت قرارك؟".

"نعم، هناك جنون في العائلة ـــــ من جانب الأم. أمر محزن ـــــ محزن للغاية".

"لا أستطيع أن أصدق ذلك سير".

"أؤكد لك ذلك، رغم أنه بالنسبة لرجل عادي هناك علامات قليلة واضحة".

"وبالنسبة لخبير؟".

"الدليل واضح ومؤكد. في مثل هذه الحالة، يجب أن يوضع المريض تحت الحجر في أقرب وقت ممكن".

التقط ديرموت أنفاسه وقال: "يا إلهي! ولكن لا يمكنك أن تحبس أي شخص بدون سبب على الإطلاق".

"عزيزي ديرموت! يوضع المرضى تحت الحجر عندما يشكل تواجدهم وسط العامة خطرًا على المجتمع".

"خطر كبير جدًا. في كل الاحتمالات نوع غريب من جنون القتل. كان الأمر

كذلك في حالة الأم".

استدار ديرموت بوجهه وهو يتأوه، ودفن وجهه بين يديه. كلير ـــــ البيضاء شقراء الشعر!

تابع الطبيب قوله بيسر: "في مثل هذه الحالة: شعرت بأن واجبي يحتم عليّ أن أحذرك".

تمتم ديرموت قائلاً: "كلير، كلير المسكينة".

"نعم هذا صحيح فعلاً، جميعنا يجب أن نشفق عليها".

وفجأة رفع ديرموت رأسه.

"لا أصدق ذلك".

"ماذا؟".

"قلت إنني لا أصدق ذلك. الأطباء يخطئون، والكل يعرف ذلك. وهم دائماً ما يتسرعون بالحكم عندما يتعلق الأمر بمجال تخصصهم".

صاح سير ألينجتون في غضب: "عزيزي ديرموت".

"لقد قلت لك إنني لا أصدق ذلك ـــــ وعلى أية حال، حتى إذا كان الأمر كذلك، لا أهتم. أنا أحب كلير. إذا كانت ستأتي معي، فسوف آخذها بعيداً ـــــ بعيداً جداً ـــــ بعيداً عن الأطباء المتطفلين. سوف أحرسها، وأعتني بها، وأحميها بحبي".

"لن تفعل شيئاً من هذا القبيل. هل أنت مجنون؟".

ضحك ديرموت ضحكة تنم عن ازدراء.

"كنت أعرف أنك ستقول ذلك، كما أظن".

"افهمني يا ديرموت" احمر وجه سير ألينجتون بسبب عاطفته المكبوتة. "إذا فعلت هذا الشيء ـــــ هذا الأمر المخزي ـــــ فستكون النهاية. سوف أغير الوصية التي أكتبها الآن، وسأكتب وصية جديدة أترك فها كل ممتلكاتي لمختلف المستشفيات".

قال ديرموت بصوت منخفض: "افعل ما يحلو لك بأموالك اللعينة, وسوف أحظى أنا بالمرأة التي أحبها".

"المرأة التي ـــــــ "

صاح ديرموت قائلاً: "إذا نطقت كلمة واحدة بحقها، أقسم بالله أني سأقتلك!".

صدر صوت أكواب تتحرك قليلاً، ولكنهما لم يستمعا لها في خضم خلافهما. دخل جونسون الغرفة بعربة الأكواب. كان وجهه يعكس أنه خادم مطيع، ولكن ديرموت

تساءل عما يمكن لـ جونسون أن يكون قد سمع من حوارهما مصادفة.

قال سير ألينجتون بلباقة: "هذا يفي بالغرض يا جونسون. بإمكانك أن تخلد للنوم الآن".

"شكراً لك سير. تصبح على خير".

انسحب جونسون.

نظر الرجلان لبعضهما، وهدأت هذه المقاطعة التي استمرت للحظة الأجواء.

قال ديرموت: "عمي. لم يكن عليّ أن أتحدث معك بهذه الطريقة. أعرف أنك محق من وجهة نظرك تماماً؛ ولكنني أحببت كلير ترنت لفترة طويلة. وحقيقة أن جاك ترنت أعز أصدقائي منعتني حتى هذه اللحظة من الإفصاح عن حبي إلى كلير نفسها. ولكن في هذه الظروف فهذه الحقيقة لم تعد مهمة، ففكرة أن أية أوضاع مالية قد تثنيني عن موقفي سخيفة. أعتقد أن كلًا منّا قد قال ما لديه. تصبح على خير".

"ديرموت ـــــــــ ".

"لا طائل فعلاً من أن ندخل في شجار آخر. تصبح على خير. أنا آسف، ولكن الأمر انتهى عند هذا الحد".

غادر الغرفة مسرعًا، مغلقًا الباب وراءه. كانت الردهة مظلمة. مر عليها، وفتح الباب الأمامي وخرج إلى الشارع، مغلقًا الباب وراءه بقوة.

توقفت سيارة أجرة أمام منزل في أول الشارع ونزل زبون منها، فأشار إليه ديرموت وانطلق إلى معرض جرافتون.

وقف على باب قاعة الرقص للحظة مرتبكًا، كان رأسه يدور. موسيقى الجاز الصاخبة، السيدات المبتسمات، كل هذا جعله يشعر بأنه دخل عالمًا آخر.

هل كل هذا مجرد حلم؟ مستحيل أن يكون مثل هذا النقاش القاسي دار بينه وبين عمه. مرت كلير من جواره، كأنها زنبقة بيضاء في ثوبها الأبيض والفضي الذي كان يتناسب مع قوامها الرشيق. ابتسمت له، بوجهها الهادئ والصافي. طبعًا كان كل ذلك مجرد حلم.

توقف الرقص. أصبحت قريبة منه الآن، تبتسم في وجهه. طلب منها أن ترقص معه بطريقة حالمة. أصبحت بين ذراعيه الآن، بدأت النغمات الصاخبة مرة أخرى.

شعر بأنها فقدت الرغبة في الرقص.

"تعبت؟ هل تريدين أن نتوقف؟".

"إذا لم تكن تمانع. هل يمكننا أن نذهب لمكان يمكننا التحدث فيه؟ هناك شيء أريد

أن أقوله لك".

ليس حلمًا. عاد إلى أرض الواقع بصدمة. هل من الممكن أن تكون الأفكار عكرت وجهها الهادئ والصافي؟ كان القلق يسيطر عليه، من فرط الخوف. ترى كم تعرف من معلومات؟

وجد ركنًا هادئًا وجلسا إلى جوار بعضهما.

قال لها وهو يشعر بحرية لم يعهدها معها من قبل: "حسنًا، قلت إن لديك شيئًا تريدين قوله؟".

نظرت لأسفل وقالت: "نعم". كانت تعبث بأطراف ثوبها: "الأمر صعب عليّ".

"أخبريني يا كلير".

"أريدك ـــــ أريدك أن تبتعد لبعض الوقت".

صدمه قولها. أيًا كان ما توقعه، لم يكن ذلك.

"تريدينني أن أبتعد؟ لماذا؟".

"من الأفضل أن أكون صريحة، أليس كذلك؟ أنا ـــــ أنا أعرف أنك ـــــ رجل نبيل وأنك صديقي. أريدك أن تبتعد لأنني ـــــ سمحت لنفسي أن أغرم بك".

"كلير!".

عقدت الصدمة لسانه فأعجزته عن الكلام.

"أرجوك لا تعتقد أنني مغرورة بالقدر الكافي لكي أتخيل أنك ستقع في حبي. كل ما هنالك ـــــ أنني لست سعيدة ـــــ و ـــــ أوه! أريدك أن تبتعد".

"كلير، ألا تعرفين أنني مهتم بك، مهتم بك بجنون منذ المرة الأولى التي التقيتك فيها؟".

نظرت إلى وجهه بعينين مندهشتين.

"أنت مهتم؟ مهتم منذ فترة طويلة؟".

"منذ البداية".

صاحت قائلة: "أوه! لماذا لم تخبرني؟ إذن؟ عندما آتي لأخبرك أنا بذلك! لماذا تخبرني بذلك الآن بعدما فات الأوان. لا، أنا مجنونة ـــــ لا أعرف ما الذي أقوله، وإلا لما أتيت إليك".

"كلير، ما الذي كنت تعنينه عندما قلت "بعدما فات الأوان؟" هل هذا ـــــ بسبب عمي؟ ما يعرفه؟ ما يظنه؟".

أومأت برأسها في صمت، والدموع تنساب على وجهها.

"اسمعي يا كلير، يجب ألا تصدقي كل ذلك. يجب ألا تفكري فيه. وبدلاً من ذلك سوف تأتين معي. سوف نذهب إلى البحار الجنوبية، إلى جزر مثل الجواهر الخضراء. سوف تكونين سعيدة هناك، وسوف أعتني بك ـــــ وأجعلك في أمان دومًا".

طوقها بذراعيه، وجذبها نحوه، واستشعر رعشة جسمها عندما لمسها. ثم سحبت نفسها فجأة مبتعدة عنه.

"أوه، لا، أرجوك. ألا ترى؟ لا أستطيع الآن. سيكون ذلك قبيحًا ـــــ قبيحًا ـــــ قبيحًا. لطالما أردت أن أكون صالحة ـــــ والآن ـــــ سيكون ذلك قبيحًا أيضًا".

تردد، واحتار من كلماتها. بدت جذابة للغاية.

قالت: "أرجوك. أريد أن أكون صالحة...".

بدون أن ينبس بكلمة، وقف ديرموت وتركها. مسته كلماتها وعذبته أكثر من أي جدال. ذهب وأحضر قبعته ومعطفه مسرعًا فاصطدم بترنت بالمصادفة.

"مرحبًا يا ديرموت، هل ستتركنا مبكرًا؟".

"نعم، ليست بي رغبة في الرقص الليلة".

قال ترنت بتجهم: "إنها ليلة سيئة؛ ولكنك لم تعرف مخاوفي".

أصيب ديرموت بذعر مفاجئ، فقد خشي أن يأتمنه ترنت على سره. ليحدث أي شيء ـــــ إلا هذه!

قال مستعجلاً: "حسنًا إلى اللقاء. سأذهب إلى المنزل".

"المنزل، إيه؟ ماذا عن تحضير الأرواح؟".

"سوف أخاطر. تصبح على خير يا جاك".

لم تكن شقة ديرموت بعيدة. ذهب إلى هناك سيرًا على الأقدام، فقد كانت لديه رغبة في استنشاق هواء بارد لكي يطفئ نار عقله المحموم.

دخل الشقة بمفتاحه وأضاء مصباح غرفة النوم.

وفجأة، للمرة الثانية هذه الليلة. ثار بداخله الشعور الذي وصفه بالإشارة الحمراء. كان قويًا للغاية لدرجة أنه أنساه كلير تمامًا.

خطر! كان في خطر. في هذه اللحظة تمامًا، في هذه الغرفة، كان في خطر.

حاول بدون جدوى أن يخلص نفسه من هذا الخوف. لعل محاولاته للقيام بذلك كانت فاترة. حتى الآن، أعطته الإشارة الحمراء تحذيرًا مناسبًا مكنه من تجنب الكارثة.

ابتسم من إيمانه بالخرافات، ولكنه أخذ جولة بحذر في الشقة. من الممكن أن يكون هناك مجرم اقتحم شقته وأخفى نفسه في مكان ما. ولكن بحثه لم يسفر عن شيء. كان خادمه ملسون قد غادر الشقة، وكانت خاوية تماماً.

عاد إلى غرفة نومه، وخلع ثيابه ببطء، وهو عابس. كان إحساسه بالخطر شديداً للغاية أكثر من أي وقت مضى. ذهب إلى الدرج ليحضر لنفسه منديلاً، وفجأة توقف ثابتًا في مكانه. أحس بشيء غريب في منتصف الدرج ـــــ شيء صلب.

انتزع المنديل بأصابع متوترة من فوق هذا الشيء الغريب ليرى ما يخفيه تحته؛ فوجد مسدساً.

بدهشة شديدة، تفحص ديرموت المسدس بعناية. كان من نوع غير مألوف ـــــ مسدس خرجت منه طلقة مؤخراً، كما أنه لا يمكنه استخدامه. لقد وضعه شخص ما في الدرج في هذه الليلة. لم يكن موجوداً عندما ارتدى ملابسه لحفل العشاء ـــــ كان واثقاً من ذلك.

كان على وشك وضعه في الدرج، عندما فوجئ برن الجرس. رن مرة ثانية، وثالثة، بدا صوته عالياً على غير المعتاد في هدوء الشقة الخاوية.

من عساه يطرق الباب الأمامي في مثل هذه الساعة؟ ولم ترد سوى إجابة واحدة عن سؤاله ـــــ رد غريزي ومستمر.

"خطر ـــــ خطر ـــــ خطر..."

متبعاً غريزته بدون أدنى تفكير، أطفأ النور، وارتدى معطفه الذي كان موضوعاً على الكرسي، وفتح باب الردهة.

وقف رجلان في الخارج. ومن ورائهما شاهد زيًا أزرق. رجل شرطة!

سأل الرجل الأول: "السيد ويست؟".

شعر ديرموت بأن عصوراً مرت قبل أن يجيب. في الواقع لم تمض سوى بضع دقائق قبل أن يجيب بنبرة تشبه كثيراً نبرة المتحدث:

"السيد ويست لم يأتِ بعد. ماذا تريدون منه في مثل هذه الساعة من الليل؟".

"لم يأت بعد، إيه حسنًا جداً أعتقد أنه من الأفضل أن ندخل وننتظره".

"لا، لن تفعلا".

"أترى يا رجل؟ اسمي المفتش فيرال من قسم شرطة سكوتلاند يارد، لدي أمر بالقبض على سيدك. بإمكانك أن تراه إن شئت".

قرأ ديرموت الورقة المقدمة إليه بعناية، أو تظاهر بأنه فعل ذلك، وسأل بصوت

يعكس الذهول:

"لماذا؟ ماذا فعل؟".

"قتل سير ألينجتون ويست القاطن بشارع هارلي".

أصابه دوار، فتقهقر أمام زائريه المهيبين. دخل غرفة الجلوس وأضاء النور. وتبعه المفتش.

أشار إلى الرجل الآخر قائلاً: "فتش المكان". ثم استدار إلى ديرموت.

"أنت تعيش هنا يا رجل. لن تهرب لتحذر سيدك. ما اسمك بالمناسبة؟".

"ملسون يا سيدي".

"في أي وقت تتوقع عودة سيدك يا ملسون؟".

"لا أعرف يا سيدي، كان سيذهب للرقص كما أظن. في معرض جرافتون".

"لقد غادر المنزل منذ ساعة تقريباً. هل أنت واثق بأنه لم يعد إلى هنا؟".

"لا أعتقد ذلك يا سيدي. أعتقد أنني كنت سأسمعه إن فعل".

في تلك اللحظة دخل الرجل الثاني من الغرفة المجاورة. كان يحمل مسدساً في يده. سلمه إلى المفتش بحماسة، فبدا على وجه الآخر تعبير يعكس الرضا.

قال: "هذا يفسر الأمر. قطعاً دخل المنزل وخرج بدون أن تسمعه. قطعاً غادر المكان الآن. سوف أنصرف، ابق هنا يا كولي، تحسباً لمجيئه ثانية، وانتبه لهذا الشخص. فلعله يعرف عن سيده أكثر مما يدعي".

غادر المفتش المكان وحاول ديرموت أن يعرف تفاصيل الموضوع من كولي، الذي كان على أتم استعداد للكلام.

استجاب قائلاً: "قضية واضحة تماماً. اكتشفت الجريمة على الفور. نهض جونسون ـــــ خادم القتيل ـــــ من سريره عندما ظن أنه سمع طلقة نارية، ونزل من جديد فوجد سير ألينجتون قتيلاً، مضروباً بطلقة في قلبه. فاتصل بنا على الفور وذهبنا إليه وسمعنا قصته".

تجرأ ديرموت وسأله: "ما الذي يجعلها قضية واضحة تماماً؟".

"طبعاً، لقد ذهب هذا الشاب المدعو ويست إلى منزل عمّه وتشاجرا عندما أحضر جونسون الشراب. كان الرجل يهدده بكتابة وصية جديدة، وكان سيدك يتحدث عن قتله. ولم تمض خمس دقائق حتى سمع الطلقة. أوه! نعم، واضح تماماً. شاب أحمق سخيف".

واضح تماماً بالفعل. فقد ديرموت الأمل تماماً عندما أدرك طبيعة الشر الغامر الذي حيك ضده. خطر بالفعل ـــــ خطر مروع! وليس هناك مخرج ينقذه. قدح زناد فكره، واقترح على رجل الشرطة أن يعد له كوباً من الشاي. فوافق كولي على ذلك على الفور. كان قد فتش الشقة بالفعل وعلم أنه ليس هناك مدخل خلفي.

أُذن لديرموت بالذهاب إلى المطبخ. وبمجرد أن دخل إليه وضع غلاية الماء وأحدث صوتاً بالأكواب والصحون عن عمد، ثم تسلل إلى النافذة ورفع إطارها. كانت الشقة في الطابق الثاني، وكانت هناك رافعة صغيرة يستخدمها التجار تجري لأعلى ولأسفل بواسطة كبل من الفولاذ.

في لمحة بصر خرج ديرموت من النافذة وتأرجح على السلك. فجرح السلك يده مما جعله ينزف، ولكنه واصل طريقه باستماتة.

بعد بضع دقائق، سار بحذر من خلف المبنى. وعندما التفت، ظهر أمامه فجأة شخص يقف على الرصيف. كان جاك ترنت الأمر الذي أثار دهشته تماماً. كان ترنت مدركاً تماماً لخطورة الوضع.

"يا إلهي! ديرموت! بسرعة، لا تتباطأ هنا".

أخذه من ذراعه، وقاده إلى شارع مجاور ومنه لشارع آخر. لم تظهر سوى سيارة أجرة وحيدة فأشارا إليها وقفزا بداخلها، وأعطى ترنت للسائق عنوان منزله.

"أكثر مكان آمن الآن. وهناك يمكننا أن نقرر ما سنفعل بعد الآن لكي نبعد هؤلاء الحمقى عن طريقنا. لقد جئت إلى هنا أملاً أن أتمكن من تحذيرك قبل وصول الشرطة إليك، ولكنني جئت متأخراً".

"لم أعرف حتى أنك سمعت بذلك يا جاك، لا تعتقد ـــــ "

"بالطبع لا، يا صديقي القديم، ولا للحظة. أنا أعرفك جيداً. لقد جاءوا إلى المكان وطرحوا بعض الأسئلة ـــــ متى وصلت إلى معرض جرافتون، ومتى غادرت... إلخ. ديرموت، من تظنه قتل الرجل الكبير؟".

"لا أعرف. ولكن من ارتكب هذه الجريمة وضع المسدس في درجي على ما أظن. قطعاً كان يراقبنا عن كثب".

كانت جلسة تحضير الأرواح ممتعة حقّا. "لا تعد إلى المنزل". كان يقصد السيد ويست المسكين. ولكنه عاد إلى المنزل وقتل هناك".

قال ديرموت: "الأمر نفسه انطبق عليّ. عدت إلى المنزل ووجدت مسدساً في منزلي ومفتش شرطة".

قال ترنت: "حسناً، آمل ألا ينطبق عليّ أيضاً. ها قد وصلنا".

دفع أجرة السيارة، وفتح القفل الموضوع على الباب، وأخذ ديرموت عبر الدرجات إلى حجرة صغيرة في الطابق العلوي.

فتح له الباب ودخل ديرموت، وأضاء ترنت النور، ثم عاد وانضم إليه.

قال له: "المكان آمن الآن للوقت الراهن. الآن يمكننا أن نتعاون ونقرر أفضل ما يمكن عمله؟".

قال ديرموت فجأة: "لقد جعلت من نفسي شخصاً أحمق. كان أجدر بي أن أواجه الأمر. أرى الأمر بوضوح أكبر. كان الأمر كله مكيدة. علام تضحك بحق الله؟".

كان ترنت مستلقياً على كرسيه، يهتز من فرط الضحك. كان هناك شيء مروع في صوته ـــــ شيء مروع للغاية في الرجل. ظهرت في عينيه نظرة غريبة جداً.

التقط أنفاسه وقال: "مكيدة ذكية لعينة. عزيزي ديرموت، لقد انتهى أمرك".

جذب الهاتف إليه.

سأله ديرموت: "ماذا ستفعل؟".

"سأتصل بمركز شرطة سكوتلاند يارد، لأخبرهم بأن العصفور الذي يبحثون عنه هنا، محبوس بالقفل. نعم، لقد أوصدت الباب بقفل عندما دخلت والمفتاح في جيبي. ليس هناك طائل من النظر إلى الباب الموجود خلفي، فهو يؤدي إلى غرفة كلير، وهي دائماً ما توصده من الداخل. إنها تخاف مني، كما تعرف. لطالما كانت تخشاني. دائماً ما تعرف عندما أفكر في تلك السكين ـــــ سكين طويلة حادة. لا، لا ـــــ ".

كان ديرموت على وشك الهجوم عليه، ولكن الآخر أخرج من جيبه على الفور مسدساً قبيح الشكل.

قال ترنت وهو يضحك: "هذا هو المسدس الثاني. لقد وضعت الأول في درجك ـــــ بعدما قتلت سير ويست ـــــ ما الذي تنظر إليه وراء ظهري؟ هذا الباب؟ إنه عديم الفائدة، حتى لو فتحته كلير ـــــ وقد تفتحه لك ـــــ سوف أطلق النار عليك قبل أن تصل إليه. لن أضربك في قلبك ـــــ لن أقتلك، فقط سأصيبك، حتى لا تهرب. أنا أحسن التصويب، كما تعرف. لقد أنقذت حياتك مرة. أظهرت مزيداً من الحماقة. لا، لا، أريدك مشنوقاً ـــــ نعم مشنوقاً. لا أريد قتلك بالسكين. وإنما كلير ـــــ كلير الجميلة، البيضاء الناعمة. كان سير ويست يعرف الأمر. لهذا السبب جاء الليلة، ليعرف ما إذا كنت مجنوناً أم لا. أراد أن يحبسني ـــــ حتى لا أقتل كلير بالسكين. كنت ذكياً للغاية. أخذت مفتاحه ومفتاحك أيضاً. وتسللت من الحفل الراقص بمجرد أن وصلت هناك. ورأيتك تخرج من منزله، فدخلت المنزل. أطلقت النار عليه على الفور، ثم ذهبت إلى منزلك وأخفيت المسدس هناك، ثم عدت مرة أخرى إلى معرض جرافتون عندما وصلت تقريباً، وأعدت المفتاح إلى جيبك عندما اصطدمت بك وتمنيت لك ليلة

سعيدة. لا مانع لديّ لأخبرك بكل ذلك. ليس هناك شخص آخر يسمعني، وعندما يتم شنقك، أريدك أن تعرف أنني كنت وراء ذلك... يا إلهي! كم يثير ذلك ضحكي! ما الذي تفكر فيه؟ إلام تنظر بحق الله؟".

أنا أفكر في بعض الكلمات التي قلتها لتوك. كان يجدر بك يا ترنت ألا تعود إلى المنزل".

"ماذا تعني؟".

"انظر خلفك!" التفت ترنت للخلف. كانت كلير تقف بجانب باب الغرفة وإلى جوارها ـــــ المفتش فيرال...

كان ترنت سريعًا. فتحدث المسدس على الفور، ووجد ضالته. سقط صريعًا على الطاولة. فأسرع إليه المفتش، بينما نظر ديرموت إلى كلير كأنه يحلم. جرت الأفكار في عقله بدون ترابط. عمه ـــــ شجارهما ـــــ سوء التفاهم الهائل ـــــ قوانين الطلاق في إنجلترا التي لا تطلق كلير أبداً من زوجها المجنون ـــــ "جميعنا يجب أن نشفق عليها" ـــــ المكيدة التي دبرتها مع سير ألينجتون والتي أحاط بها ترنت الماكر ـــــ صراخها في وجهه "قبيح ـــــ قبيح ـــــ قبيح" نعم، ولكن الآن ـــــ

وقف المفتش منتصباً مرة أخرى.

قال بصعوبة: "لقد مات".

قال ديرموت في نفسه: "نعم، لطالما كان يحسن التصويب....".

الرجل الرابع

وقف رجل الدين بارفيت ليلتقط أنفاسه قليلاً؛ فالركض من أجل اللحاق بقطار ليست مهمة تتناسب مع رجل في سنه، فجسمه لم يعد مثلما كان من قبل، وبعدما ازداد وزنه وفقد قوامه النحيف أصبح أكثر ميلاً لانقطاع أنفاسه. ودائماً ما يشير كانون نفسه لهذا الميل بوقار بقوله "قلبي، كما تعرف!".

غاص في ركن في إحدى عربات الدرجة الأولى وأطلق تنهيدة تنم عن الراحة. كان الدفء المنبعث من العربة المزودة بمدفأة يروقه كثيراً. فقد كان الثلج يتساقط في الخارج. كان محظوظاً لأنه عثر على كرسي في ركن بعيد من العربة في رحلة سفر ليلية طويلة، فعدم الحصول على مقعد أمر يبعث على الشقاء. كما أنه من المفترض أن يحتوي هذا القطار على أسرة.

كانت المقاعد الثلاثة الأخرى مشغولة بالفعل، وبعدما أدرك كانون بارفيت هذه الحقيقة، لاحظ أن الرجل الجالس في المقعد البعيد يبتسم له ابتسامة رقيقة. كان رجلاً حليق الذقن ذا وجه غريب وشعر رمادي اللون على جانبي رأسه. كان يمتهن المحاماة، الأمر الذي كان غاية في الوضوح بشكل يجعل من الصعب على أي شخص ألا يدرك ذلك منذ الوهلة الأولى. كان سير جورج دوراند بالفعل محامياً مشهوراً جداً.

قال له بود: "حسناً يا بارفيت لقد ركضت كثيراً لتلحق بالقطار، أليس كذلك؟".

"أخشى أن يكون في هذا خطر على قلبي. مصادفة سعيدة جمعتني بك هنا سير جورج. هل أنت ذاهب إلى الشمال؟".

قال سير جورج باقتضاب: "نيوكاسل" ثم أردف قائلاً: "بالمناسبة، هل تعرف دكتور كامبيل كلارك؟".

كان الرجل الجالس على الجانب نفسه من العربة، فحنى رجل الدين بارفيت رأسه بلطف تحية له.

تابع المحامي كلامه قائلاً: "لقد تقابلنا على الرصيف. مصادفة أخرى".

نظر بارفيت إلى دكتور كامبيل كلارك بقدر كبير من الاهتمام. كان قد سمع اسمه كثيراً. كان دكتور كلارك يشغل مكانة مرموقة كطبيب بشري ومتخصص في الأمراض العقلية، وكان كتابه الأخير مشكلة العقل الباطن، أكثر كتاب تمت مناقشته خلال العام.

نظر إليه بارفيت، فرأى رجلاً ذا وجه مربع، وعينين زرقاوين، وشعر محمر لم

يمسه اللون الرمادي، ولكنه كان نحيلاً للغاية. كما أُخذ عنه انطباع أنه صاحب شخصية قوية.

بطريقة تلقائية تمامًا، نظر بارفيت إلى الكرسي المقابل له، وهو شبه متوقع أن يقابل بنظرة ترحيب هناك أيضًا، ولكن اتضح أن المسافر الرابع في العربة غريب تمامًا ـــــ ظن بارفيت أنه أجنبي. كان رجلاً داكن البشرة بعض الشيء، غير مهتم بمظهره إلى حد كبير، وكان مدثرًا بمعطف كبير، بدا كأنه نام بسرعة.

سأله دكتور كامبيل كلارك بلطف: " بارفيت رجل الدين المعروف؟".

شعر بارفيت بإطراء. تلك "الخطب العلمية" التي ألقاها حققت نجاحًا عظيمًا ـــــ خاصة منذ اشترتها الصحافة.

قال له: "لقد قرأت كتابك باهتمام شديد يا دكتور كامبل كلارك. رغم أنه متخصص بعض الشيء، ومن الصعب فهمه".

هنا اشترك دوراند في الحوار.

سأل: "هل ترغب في الحديث أم النوم يا سيد بارفيت؟".

أنا شخصيًا أعاني الأرق ولهذا السبب أحبذ الأمر الثاني".

قال له بارفيت: "أوه! طبعًا. بالتأكيد. نادرًا ما أنام في مثل هذه الرحلات الليلية، كما أن الكتاب الذي أحمله ممل للغاية".

قال الدكتور وعلى وجهه ابتسامة رقيقة: "إننا نمثل مختلف الطوائف: الدين، والقانون، والطب".

ضحك دوراند وقال: "لا أعتقد أننا بهذا التجمع قد نعجز عن البت في أي أمر بيننا، أليس كذلك؟؛ بارفيت يمثل وجهة النظر الدينية، وأنا أمثل الأمور الدنيوية والقانونية، وأنت يا دكتور، صاحب المجال الأصعب بيننا ـــــ والذي يمتد ليشمل الأمراض البدنية وأغرب الأمراض النفسية! أتصور أنه بتجمعنا نحن الثلاثة يمكننا أن نتناول أي موضوع من جميع الجوانب".

قال دكتور كلارك: "ليس تمامًا كما تتخيل. فهناك وجهة نظر أخرى أغفلت عنها، أرى أنها مهمة أيضًا إلى حد كبير".

قال المحامي بلهجة متسائلة: "بمعنى؟".

"وجهة نظر رجل الشارع".

"هل هي بهذه الدرجة من الأهمية؟ ألا يكون رجل الشارع مخطئًا في الغالب؟".

"أوه! تقريبًا يكون كذلك. ولكنه يمتلك كل ما تعوزه آراء الخبراء بالضرورة؛

وهي وجهة النظر الشخصية. ففي النهاية، لا يمكنك أن تغفل عن أهمية العلاقات الشخصية. وقد اكتشفت ذلك في مهنتي، فأمام كل مريض يأتيني وهو مريض فعلاً، يأتي ما لا يقل عن خمسة أشخاص لا يعانون أي شيء سوى عدم القدرة على العيش في سعادة مع من يعيشون معهم تحت سقف بيت واحد. وهم يصفون ذلك بكل الأعراض ـــــ من التهاب الركبة وحتى مرض نضوب الوحي لدى الكُتاب، ولكن المشكلة واحدة تقريباً، وهي المادة الخام التي تتولد نتيجة اصطدام عقلين".

قال باستخفاف: "يتردد عليك كثير من مرضى "الأعصاب" على ما أظن". قالها متفاخراً بقوة أعصابه.

التفت نحوه بسرعة البصر قائلاً: "أها! وماذا تعني بذلك؟ أعصاب! يستخدم الناس هذه الكلمة بسخرية، تماماً مثلما فعلت. إنهم يقولون: "أنت لا تعاني أي شيء في كذا أو كذا. أعصابك متعبة فقط". ولكن، يا إلهي، لقد وصلت لصلب الموضوع يا رجل بقولك! بإمكانك أن تحدد العلة الجسدية وتداويها؛ ولكننا حتى يومنا هذا لم نعرف سوى قدر أقل بقليل عما كنا نعرفه في عصر الملكة إليزابيث عن الأسباب الغامضة للأمراض العصبية!".

قال بارفيت وهو مرتبك قليلاً من الهجوم عليه: "يا إلهي! هل الأمر كذلك؟".

تابع الدكتور كامبيل كلارك كلامه قائلاً: "دعني أذكرك بأنها نعمة كبيرة، فقد كنا فيما مضى نعتبر الإنسان مجرد حيوان بسيط: جسد ونفس، مع التركيز على الثانية".

أصلح له رجل الدين كلامه بتواضع: "جسد ونفس وروح".

ابتسم الطبيب ابتسامة غريبة وقال له: "روح؟ ما الذي تعنونه بالضبط ـــــ أنتم رجال الدين ـــــ بالروح؟ لستم واضحين تماماً بشأن هذه النقطة. على مر العصور، وأنتم تخشون وضع تعريف محدد لها".

تنحنح رجل الدين كأنه يستعد لإلقاء محاضرة دينية، ولكنه لم يحظ بهذه الفرصة الأمر الذي أزعجه كثيراً؛ حيث تابع الطبيب كلامه.

"هل أنت واثق تماماً بأنك تتحدث عن الروح ـــــ أليس من المحتمل أن تكون أرواحاً؟".

قال سير جورج دوراند بلهجة متسائلة بعدما رفع حاجبيه في دهشة: "أرواح؟".

"نعم"، سدد كامبيل كلارك نظرة إليه، ومال للأمام ونقر على صدر الرجل الآخر بخفة. قال له بخشونة: "هل أنت واثق تماماً بأن هذا الهيكل لا يقطنه سوى ساكن واحد؛ أقصد القلب كما تعلم ـــــ هذا المسكن المرغوب لم يسكنه أحد طوال سبعة، أو عشرين، أو أربعين، أو سبعين، أيًا كان الرقم! عاماً؟ وفي النهاية يُخرج المستأجر

أشياءه من المنزل ـــــ تدريجيًا ـــــ حتى يخرج منه تمامًا، ثم يصبح المنزل كتلة من الأطلال والخراب. أنت سيد المنزل ـــــ سوف نعترف بذلك، ولكن ألم تستشعر من قبل وجود آخرين ـــــ خدم يسيرون بأقدام خفيفة، تصعب ملاحظتهم، إلا من خلال العمل الذي يقومون به ـــــ عمل لا تذكر أنك فعلته؟ أو حالات مزاجية تسيطر عليك لبعض الوقت وتجعلك "شخصًا مختلفًا" مثلما نقول؟ أنت ملك القلعة، هذا صحيح بنسبة مائة بالمائة، ولكن هل أنت واثق تمامًا بعدم وجود "متسلل" في الداخل أيضًا؟".

تحدث المحامي ببطء وقال: "عزيزي كلارك. لقد زرعت الشك بداخلي. هل عقلي ساحة المعركة التي تتنازع فيها عدة شخصيات؟ هل هذا أحدث ما توصل إليه العلم؟".

رفع الدكتور كتفيه.

قال بجفاء: "الأمر كذلك بالنسبة للجسم، فلماذا لا يكون العقل كذلك؟".

قال بارفيت: "مثير جدًا. أها! علم رائع ـــــ علم رائع".

ثم قال في نفسه: "بإمكاني أن ألقي خطبة دينية رائعة في هذا الصدد".

ثم تراجع الدكتور كامبيل كلارك في جلسته، بعدما تلاشت حماسته اللحظية.

قال بطريقة مهنية جافة: "في الواقع، إن مسألة ازدواج الشخصية هي التي جعلتني أسافر إلى نيوكاسل الليلة. قضية مثيرة للغاية. موضوع عصبي بالطبع. ولكنه حقيقي تمامًا".

قال السير جورج دوراند بطريقة تنم عن تفكير عميق: "ازدواج الشخصية. أعتقد أنه ليس أمرًا نادر الحدوث. وهو مصحوب بفقد الذاكرة أيضًا، أليس كذلك؟ أنا أعرف القضية التي رفعت أمام محكمة الإرث والوصايا منذ فترة".

أومأ الدكتور كلارك برأسه.

قال: "طبعًا تتحدث عن قضية قديمة. هل تعني قضية فلسي بولت؟ لعلك سمعت بها؟".

قال بارفيت: "بالطبع. أذكر أنني قرأت عنها في الصحف ـــــ ولكن منذ فترة طويلة جدًا ـــــ منذ ما لا يقل عن سبع سنوات".

أومأ الدكتور كلارك برأسه.

"هذه الفتاة أصبحت من أبرز الشخصيات المعروفة في فرنسا. وقد ذهب علماء من كل أنحاء العالم لرؤيتها. فبداخلها ما لا يقل عن أربع شخصيات مميزة. عرفت باسم فلسي 1، فلسي 2، فلسي 3 ... وهكذا".

سأل سير جورج بحذر: "أليس هناك احتمال أن تكون خدعة متعمدة؟".

اعترف الدكتور وقال: "شخصية فلسي 3 وفلسي 4 مثيرتان للشك قليلاً. ولكن تبقى الحقيقة الأساسية قائمة. كانت فلسي بولت فتاة ريفية نشأت في بريتاني. وكانت الابنة الثالثة في أسرة مكونة من خمسة أشخاص: ابنة أب مخمور، وأم تعاني قصوراً عقلياً. وفي نوبة من نوبات معاقرته الخمر خنق الأب الأم وعوقب بالنفي ـــــ إن لم تخني ذاكرتي ـــــ مدى الحياة. كانت فلسي في الخامسة من عمرها في ذلك الوقت. وقد تولى بعض فاعلي الخير تربية الأطفال، بينما نشأت فلسي وتلقت تعليمها على يد سيدة إنجليزية عجوز كانت تفتح منزلها للأطفال المحرومين. ولكنها لم تستطع إفادة الفتاة إلا في أضيق الحدود. كانت تصفها بأنها بطيئة وغبية بشكل غير طبيعي، ولم تتعلم سوى القراءة والكتابة بصعوبة بالغة، وأنها خرقاء لا تحسن عمل أي شيء بيديها. وقد حاولت هذه السيدة ـــــ الآنسة سلاتر ـــــ أن تجعل الفتاة قادرة على القيام بالأعمال المنزلية، وعثرت لها بالفعل على عدة أماكن عندما وصلت للسن التي تسمح لهم بأخذها. ولكنها لم تبق لفترة طويلة في أي مكان بسبب غبائها وأيضاً كسلها الشديد".

توقف الطبيب عن الكلام للحظة، ووضع رجل الدين بارفيت إحدى قدميه على الأخرى وقرب حقيبة سفره منه أكثر، بعدما أدرك فجأة أن الرجل الجالس في مقابلته تحرك حركة خفيفة. فقد فتح عينيه ـــــ اللتين كانتا مغمضتين من قبل. كانت عيناه تعكسان سخرية يتعذر معرفة سببها، وحدق إلى رجل الدين المبجل، كأن الرجل كان يستمع ويفكر فيما سمعه خلسة.

تابع الدكتور حديثه قائلاً: "هناك صورة مأخوذة لفلسي بولت وهي في السابعة عشرة من عمرها. بدت كأنها فتاة ريفية فظة، قوية البنية. لم يكن في هذه الصورة ما يشير إلى أنها سوف تصبح بعد فترة وجيزة إحدى أشهر الشخصيات في فرنسا".

"بعد خمس سنوات، عندما بلغت الثانية والعشرين من عمرها، أصيبت فلسي بولت بمرض عصبي حاد. وبعدما تعافت، بدأت الظواهر الغريبة في الإعراب عن نفسها. ما سأرويه لكم حقائق صدق عليها عدد كبير من أبرز العلماء. كانت شخصية فلسي 1 لا تختلف عن شخصية فلسي بولت وهي في الثانية والعشرين من عمرها، فقد كانت فلسي 1 تكتب فرنسية ضعيفة ومقطعة، ولم تكن تتحدث أية لغات أجنبية، ولم تكن تعرف العزف على البيانو. على العكس من ذلك، كانت شخصية فلسي 2 تتحدث الإيطالية بطلاقة وتجيد الألمانية. وكان خطها مختلفاً تماماً عن خط شخصية فلسي 1، وكانت تجيد الكتابة والتحدث بالفرنسية. كان بإمكانها أن تتناقش في السياسة، والفن، وكانت مغرمة كثيراً بالعزف على البيانو. وكانت شخصية فلسي 3 تشترك مع شخصية فلسي 2 في نقاط عديدة. فقد كانت ذكية يبدو عليها أنها تلقت تعليماً جيداً. ولكن على المستوى الأخلاقي كانت على النقيض تماماً. بدت في الواقع، إنسانة غير ملتزمة أخلاقياً على الإطلاق، لم تكن تلتزم بتقاليد القاطنين فى باريس. كانت تعرف كل اللهجات العامية المستخدمة في باريس، وأيضاً لغة السيدات سيئات السمعة. كانت

تستخدم لغة قذرة، وكانت تزدري رجال الدين والأشخاص الطيبين وتسبهم بأفظع الشتائم. وأخيراً هناك شخصية فلسي 4؛ وكانت مخلوقة حالمة، متوسطة الذكاء، متدينة بشكل واضح وتزعم أنها قادرة على قراءة المستقبل، ولكن جوانب الشخصية الرابعة لم تكن وافية أو واضحة، وكان العلماء يتصورون في بعض الأحيان أنها خدعة من جانب شخصية فلسي 3 ـــــ وكأنها خدعة تقوم بها مع العامة والبسطاء. بإمكاني أن أقول (باستثناء شخصية فلسي 4) إن كل شخصية كانت متميزة ومنفصلة عن الأخرى، بل وليس لديها أدنى معرفة بالشخصيات الأخرى. ومما لا شك فيه أن شخصية فلسي 2 كانت الشخصية المسيطرة، وكانت تستمر أحياناً طوال أسبوعين في المرة الواحدة، ثم تظهر شخصية فلسي 1 فجأة لمدة يوم أو اثنين. وبعد ذلك، ربما تظهر شخصية فلسي 3 أو 4، ولكن نادراً ما ظلت هاتان الشخصيتان لأكثر من بضع ساعات. وكان كل تغيير في الشخصية يصاحبه صداع شديد ونوم ثقيل، وفي كل مرة يحدث فقدان كامل للذاكرة عن الحالات الأخرى، وتستكمل الشخصية التي تظهر الحياة حيث توقفت، غير مدركة مرور الوقت".

قال برافيت بصوت خافت: "أمر غير عادي، غير عادي أبداً. فنحن لا نعرف أي شيء تقريباً عن عجائب الكون".

قال المحامي بلهجة جافة: "ولكننا نعرف أن هناك محتالين في منتهى الذكاء".

قال دكتور كامبيل كلارك بسرعة: "لقد درس كثير من المحامين والأطباء والعلماء حالة فلسي بولت. كما أجرى ميتري كويمبلر تحقيقات كثيرة وأكد بعدها آراء العلماء. وعلى كل حال، لماذا نتعجب كثيراً من حالتها لهذه الدرجة؟ ألا نجد أحياناً بيضة تحتوي صفارين، أليس ذلك؟ وحبتي موز ملتصقتين؟ فلماذا نتعجب من ازدواج روحين ـــــ في جسد واحد؟".

اعترض رجل الدين قائلاً: "ازدواج روحين؟".

ثبت الدكتور كامبيل كلارك عينيه الزرقاوين الثاقبتين عليه.

"وما الوصف الذي يمكننا أن نستخدمه؟ إذا كانت الشخصية هي الروح؟".

قال السير جورج: "من الجميل أن مثل هذه الحالة ليس لها وجود إلا في طبيعة الشخص "الغريب". فلو كانت هذه الحالة شائعة الحدوث، لأثارت كثيراً من التعقيدات".

وافق الدكتور على كلامه بقوله: "طبعاً هذه الحالة شاذة تماماً. من المؤسف للغاية أنه لم يتم عمل دراسة أطول، ولكن كل هذه الدراسات وصلت للنهاية بموت فلسي غير المتوقع".

قال المحامي ببطء: "كان هناك شيء غريب في موتها، إن صح ما أتذكره".

أومأ الدكتور كامبيل كلارك برأسه.

"أمر لم يوضع في الحسبان قط، فقد عثر على الفتاة ذات صباح ميتة في سريرها. بدا واضحاً عليها أنها ماتت مخنوقة. ولكن ما أدهش الجميع أنه ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنها خنقت نفسها بنفسها، فالعلامات التي كانت على رقبتها كانت أصابعها. طريقة انتحار، رغم أنها غير ممكنة جسدياً، احتاجت بالضرورة إلى قوة عضلية هائلة وتقريباً قوة خارقة. ولكن ما دفع الفتاة لمثل هذا الوضع الصعب لم يتم اكتشافه. طبعاً كان الاضطراب العقلي الذي تعانيه خطيراً على الدوام. ولكن الستار أسدل للأبد على لغز فلسي بولت".

وهنا ضحك الرجل الجالس في الركن البعيد.

هب الرجال الثلاثة من أماكنهم كأن طلقات نارية أصابتهم، فقد نسوا تماماً وجود رجل رابع بينهم. وبينما ثبتوا نظرهم نحو المكان الذي يجلس فيه، ضحك مرة أخرى، وهو لا يزال متدثراً بمعطفه.

قال لهم بلغة إنجليزية صحيحة تماماً، لا تخلو من لهجة أجنبية: "يجب أن تعذروني يا سادة".

وقف في مكانه، ناظراً بوجهه الشاحب الذي يتوسطه شارب حالك السواد.

قال وهو ينحني بطريقة ساخرة: "اعذروني. ولكن حقّا! لا يمكن للعلم أن يحسم المسألة أبداً".

سأل الدكتور بلباقة: "هل تعرف شيئاً عن القضية التي كنا نتحدث عنها؟".

"عن القضية؟ لا. ولكنني أعرفها".

"فلسي بولت؟".

"نعم. وأنيتا ريفيل أيضاً. واضح أنكم لم تسمعوا بأنيتا ريفيل، أليس كذلك؟ ورغم ذلك، فالحكايتان مرتبطتان ببعضهما. صدقوني، لن تعرفوا أي شيء عن فلسي بولت، إن لم تعرفوا أي شيء عن تاريخ أنيتا ريفيل".

أخرج ساعته ونظر فيها.

"لم يبق سوى نصف ساعة على المحطة التالية. لدي وقت لأقص عليكم الحكاية ـــــ هذا إذا كنتم ترغبون في الاستماع إليها".

قال الدكتور بهدوء: "أرجوك أخبرنا بها".

قال رجل الدين: "يسرنا ذلك. يسرنا كثيراً".

أما السير جورج دوراند فقد استرخى فقط في توجه يعكس حماسته الشديدة

للاستماع.

بدأ رفيق السفر الغريب في الحديث: "اسمي أيها السادة راؤول ليتاردو. لقد تحدثتم منذ قليل عن سيدة إنجليزية تدعى الآنسة سلاتر، التي وهبت نفسها للأعمال الخيرية. أنا ولدت في قرية تقتات على صيد الأسماك في بريتاني، وعندما قتل أبواي في حادث على السكة الحديدية، جاءتني الآنسة سلاتر وأنقذتني من أن تئول بي الحال لأصبح خادماً في المنازل الإنجليزية. كان في منزلها حوالي عشرين طفلاً تحت رعايتها، صبية وفتيات. وكان بين هؤلاء الأطفال فلسي بولت وأنيتا ريفيل. وإذا لم أستطع أن أوضح لكم شخصية أنيتا أيها السادة، فلن تفهموا أي شيء من الحكاية. كانت ابنة لامرأة لعوب ـــــ كما تسمونها ـــــ توفيت بداء السل بعدما هجرها حبيبها. كانت الأم راقصة، وكانت أنيتا هي الأخرى ترغب أن تكون كذلك. عندما رأيتها للمرة الأولى كانت في الحادية عشرة من عمرها، فتاة صغيرة بعينين أصبحتا تستهزئان وتتوعدان ـــــ مخلوقة صغيرة مليئة بالحماسة والحياة. وفجأة ـــــ نعم فجأة ـــــ جعلتني أسيراً لها. كانت تقول لي "راؤول: افعل هذا لي"، "راؤول: افعل ذلك لي". وكنت أطيعها. كنت أسيراً لها فعلاً، وكانت تعرف ذلك".

كنا ننزل إلى الشاطئ معاً، نحن الثلاثة؛ فقد كانت فلسي تأتي معنا. وهناك كانت أنيتا تخلع حذاءها وجوربها وترقص على الرمل. وبعدما تنقطع أنفاسها، كانت تحكي لنا ما ترغب في عمله وما تحلم به.

"سوف أصبح مشهورة كما ترون. نعم مشهورة جداً. سوف تكون لدي مئات وآلاف الجوارب الحريرية ـــــ من أجود أنواع الحرير. وسوف أعيش في شقة رائعة. وسوف يكون كل معجبيّ شباباً يتمتعون بالوسامة، وأثرياء أيضاً. وعندما أرقص سوف تأتي كل باريس لمشاهدتي. سوف يهتفون باسمي وينادونني ويتهافتون على رقصي. وفي الشتاء لن أرقص. سوف أذهب إلى الجنوب إلى أشعة الشمس. هناك منازل كبيرة ذات حدائق تحتوي أشجار برتقال. سوف أحظى بواحدة منها. سوف أستلقي تحت أشعة الشمس على وسائد حريرية، وأتناول البرتقال. أما بالنسبة لك يا راؤول، فلن أنساك أبداً، رغم أنني سأصبح ثرية ومشهورة. سوف أحميك وأقدم عملك. وسوف تصبح فلسي وصيفتي ـــــ لا، فيداها غير مناسبتين. انظروا إليهما، كم هما كبيرتان وخشنتان!".

كانت فلسي تغضب من ذلك. فكانت أنيتا تواصل إغاظتها.

"فلسي تشبه الهوانم ـــــ أنيقة جداً، مهذبة جداً. إنها أميرة متخفية ـــــ ها، ها".

فكانت فلسي تقول لها بازدراء: "كان أبي وأمي متزوجين، ولم يكونا مثل أبيك وأمك".

"صحيح، وقد قتل والدك والدتك. شيء جميل أن تكوني ابنة قاتل".

فكانت فلسي ترد عليها قائلة: "وترك والدك والدتك تتعفن".

أصبحت أنيتا تفكر بعمق: "أها! نعم, أمي الفقيرة. يجب على المرء أن يحافظ على قوته وصحته. فمن المهم جداً أن يبقى قوياً ومعافى".

تفاخرت فلسي بقولها: "أنا قوية مثل الخيل".

وقد كانت كذلك فعلاً. كانت تتمتع بضعف القوة التي تتمتع بها أية فتاة أخرى في المنزل. ولم تمرض قط.

ولكنها كانت غبية ـــــ غبية مثل حيوان متوحش. كنت أتساءل دوماً لماذا كانت تتبع أنيتا مثلما كانت تفعل؟ كانت مغرمة بها. كنت أعتقد أحياناً أنها تكره أنيتا، ولم تكن أنيتا بالفعل طيبة معها. كانت تسخر من بطئها وغبائها، وكانت تضايقها أمام الآخرين. لقد رأيت فلسي ووجهها يتحول للون شاحب من شدة الغضب. كنت أظن أحياناً أنها سوف تثبت أصابعها حول رقبة أنيتا وتخنق الحياة فيها. كما أنها لم تكن سريعة البديهة بالقدر الكافي لترد إهانات أنيتا، ولكنها تعلمت مع الوقت أن ترد بحسم لم يخفق قط. كان ذلك من خلال إشارتها إلى صحتها وقوتها. لقد علمت (ما عرفته دوماً) أن أنيتا كانت تحسدها على قوة جسدها، فضغطت بغريزتها على نقطة الضعف الموجودة في سلاح عدوتها.

ذات يوم جاءتني أنيتا وهي غاية في السعادة.

قالت لي: "راؤول، سوف نستهزئ اليوم بتلك الفتاة الغبية التي تدعى فلسي. سوف نموت من الضحك".

"ماذا ستفعلين؟".

"تعال وراء هذا السرير الصغير، سوف أخبرك".

بدت أنيتا كأنها حصلت على كتاب ما. لم تفهم جزءاً منه، وكان موضوعه برمته فعلاً أكبر بكثير من سنها. كان من أوائل الكتب التي صدرت عن التنويم المغناطيسي.

"يقولون إنه موضوع مثير. المقابض النحاسية الموجودة في سريري، إنها تدور. لقد جعلت فلسي تنظر إليها الليلة الماضية. قلت لها: "ثبتي نظرك عليها، لا تبعدي عينيك عنها". ثم جعلتها تدور يا راؤول، شعرت بخوف. بدت عيناها غريبتين جداً ـــــ في منتهى الغرابة. "قلت لها: "فلسي، ستنفذين ما أقوله دائماً". فقالت لي: "سأنفذ ما تقولينه دائماً يا أنيتا". وبعد ذلك ـــــ بعد ذلك ـــــ قلت لها: "غداً ستحضرين شمعة من الشحم في الملعب الخارجي في الساعة الثانية عشرة وسوف تأكلينها. وإذا سألك أي شخص، فستقولين إنها أفضل فطيرة ذقتها على الإطلاق". أوه! راؤول فكر في الأمر!".

اعترضت على كلامها: "ولكنها لن تفعل شيئاً كهذا".

"الكتاب يقول ذلك. لا أؤمن به تمامًا. ولكن أوه! يا راؤول، إن صح الكتاب، فسوف نضحك كثيرًا ونجعل منها أضحوكة!".

"أنا أيضًا وجدت الفكرة مضحكة جدًا. وتناقلنا الخبر مع الزملاء، وفي الساعة الثانية عشرة وقفنا جميعًا في الملعب. وفي الموعد المحدد بالضبط، خرجت فلسي وفي يدها شمعة. هل ستصدقونني يا سادة؟ بدأت في تناول الشمعة بنهم شديد. دخلنا جميعًا في نوبة ضحك هستيري! كان بين الحين والآخر يذهب إليها طفل ويقول لها بمهابة: "إنها طيبة، ماذا تأكلين يا فلسي، ها؟".

فكانت تجيب قائلة: "ولكن، نعم، إنها أفضل فطيرة ذقتها على الإطلاق". فكنا نصرخ من شدة الضحك. ضحكنا كثيرًا وبصوت عال جدًا لدرجة أن الضوضاء أيقظت فلسي فأدركت ما كانت تفعل. فتحت عينيها وأغمضتهما بطريقة حائرة، ونظرت إلى الشمعة ثم نظرت إلينا. مررت يدها على جبينها.

تمتمت قائلة: "ولكن ماذا أفعل هنا؟".

فصرخنا قائلين: "أنت تأكلين شمعة".

صاحت أنيتا، وهي ترقص: "لقد جعلتك تفعلين ذلك. جعلتك تفعلين ذلك".

تجهمت فلسي للحظة، ثم سارت بتثاقل ذاهبة إلى أنيتا.

"إذن أنت من فعل ذلك، أنت من جعل مني أضحوكة؟ لقد تذكرت. أها! سوف أقتلك على ذلك".

تحدثت بصوت منخفض جدًا، ولكن أنيتا اندفعت فجأة واختبأت خلفي.

"أنقذني يا راؤول! أنا خائفة من فلسي. إنها مجرد دعابة يا فلسي. مجرد دعابة".

قالت فلسي: "أنا لا أحب هذه الدعابات. أتفهمين؟ أنا أكرهك. أكرهكم جميعًا".

فجأة انفجرت بالبكاء وركضت مبتعدة عنا.

أظن أن أنيتا خافت كثيرًا نتيجة تجربتها، ولم تحاول أن تكررها مرة ثانية. ولكن منذ ذلك اليوم، بدت هيمنتها على فلسي كأنها أصبحت أكثر قوة.

أصبحت أؤمن الآن بأن فلسي كانت تكرهها دومًا، ولكن رغم ذلك لم يكن بإمكانها أن تبتعد عنها. كانت تتبعها مثلما يتبع الكلب سيده.

بعد وقت قصير يا أعزائي، تم تخصيص عمل لي، ولم أعد أذهب إلى الملجأ إلا في الإجازات العرضية. لم تتعامل أنيتا مع رغبتها في أن تصبح راقصة على محمل الجد، ولكنها طورت صوتًا غنائيًا جميلاً للغاية وهي تكبر في السن، ووافقت الآنسة سلاتر على أن يتم تدريبها على الغناء.

لم تكن أنيتا كسولة. كانت تعمل بحماسة بدون أن تحصل على راحة. وكانت الآنسة سلاتر ملتزمة بمنعها الإسراف في القيام بذلك. حدثتني ذات مرة عنها.

قالت لي: "لطالما كنت مغرمًا بأنيتا. أقنعها ألا تعمل بهذا الجد الزائد. فقد أصبحت تعاني الكحة مؤخرًا، الأمر الذي يقلقني عليها".

أخذني عملي بعيدًا بعد ذلك. وقد تلقيت خطابًا أو اثنين من أنيتا في البداية، ثم انقطعت أخبارها. كنت في الخارج طوال خمس سنوات بعد ذلك.

بالمصادفة البحتة، عندما عدت إلى باريس جذبت انتباهي صورة تعلن عن حفل لـ أنيتا ريفيل تحتوي على صورة لها. تعرفت عليها على الفور. في تلك الليلة ذهبت إلى المسرح لأسأل عنها. كانت أنيتا تغني باللغتين الفرنسية والإيطالية. كانت رائعة على المسرح. بعد ذلك ذهبت إلى الحجرة المخصصة لتغيير ملابسها. استقبلتني على الفور.

صاحت قائلة وهي تمد يديها المدهونتين باللون الأبيض لي: " راؤول. هذا رائع. أين كنت طوال هذه السنوات؟".

كنت سأخبرها، ولكنها لم ترغب حقًا أن تستمع لي.

"أرأيت؟ لقد وصلت تقريبًا!".

لوحت بيدها معلنة انتصارها وهي تشير إلى كل ركن من أركان الغرفة المليئة بالزهور.

"قطعًا الآنسة الطيبة سلاتر فخورة بنجاحك".

"تلك العجوز؟ ليس تمامًا. لقد خططت كما تعرف لكي ألتحق بالمعهد الموسيقي وأن أغني في حفلات موسيقية راقية. ولكنني فنانة. مكاني هنا، على مسرح للمنوعات، هنا أستطيع أن أعبر عن نفسي".

وهنا دخل رجل وسيم في منتصف العمر الغرفة. كان مميزًا جدًا. ومن طريقته أدركت على الفور أنه الوصي عليها. نظر إلي، فأوضحت له أنيتا الوضع:

"صديق طفولتي. لقد جاء إلى باريس ورأى صورتي الموضوعة هنا!".

بعد ذلك أصبح الرجل ودودًا ولبقًا معي للغاية. وفي أثناء وجودي قدم لـ أنيتا سوارًا من الياقوت والألماس وألبسه لـ أنيتا. وبمجرد أن نهضت، رمقتني بنظرة المنتصر وهمست قائلة:

"لقد وصلت، أليس كذلك؟ أرأيت؟ العالم كله أمامي".

ولكن بمجرد أن غادرت الغرفة، سمعتها تسعل سعالاً جافًا شديدًا. عرفت معنى هذا السعال ـــــ كان الإرث الذي تركته لها والدتها المريضة بالسل.

رأيتها بعد ذلك بعامين. كانت قد ذهبت إلى ملجأ الآنسة سلاتر، بعدما انهار عملها. كانت في حالة متقدمة من السل قال الأطباء إنه لا يمكنهم تقديم شيء لها.

أها! لن أنسى أبداً منظرها عندما رأيتها هناك! كانت مستلقية في مأوى في الحديقة. كانت تترك ليل نهار في الخارج. كانت وجنتاها غائرتين ومحمرتين، وكانت عيناها لامعتين ومحمومتين، وكانت تسعل بشكل مستمر.

حيتني بيأس أدهشني.

"جميل أن أراك يا راؤول. أتعرف ما يقولون؟ إنني قد لا أتعافى. إنهم يقولون ذلك من وراء ظهري، كما تعلم. وأمامي يهدئونني ويواسونني. ولكن هذا ليس صحيحاً يا راؤول، ليس صحيحاً! لن أسمح لنفسي بأن أموت. أموت والحياة الجميلة ممتدة أمامي؟ إرادة الحياة هي المهم في الأمر. جميع الأطباء يقولون هذا الشيء هذه الأيام. أنا لست من الضعفاء الذين يتركون الحياة بهذه السهولة. أشعر فعلاً بأنني تحسنت كثيراً، تحسنت كثيراً، هل تسمعني؟".

رفعت نفسها معتمدة على كوعها، كأنها تؤكد كلامها، ثم سقطت مرة أخرى، ثم لازمتها نوبة سعال آلمت جسدها الهزيل.

لفظت أنفاسها لاهثة وقالت: "السعال ـــــ إنه لا شيء. والنزيف لا يخيفني. سوف أفاجئ الأطباء. الإرادة أهم. تذكر يا راؤول، سوف أعيش".

كانت مثيرة للشفقة، مثيرة للشفقة.

عندئذ، جاءت فلسي بولت وهي تحمل صينية ـــــ كوباً من اللبن الساخن. وأعطته لـ أنيتا وراقبتها وهي تشربه وعلى وجهها تعبير لم أفهمه تماماً. كان يشوبه إحساس بالرضا عن النفس.

فهمت أنيتا أيضاً نظرتها. فقذفت الكوب بغضب شديد، فانكسر لأجزاء صغيرة.

"هل رأيتها؟ لطالما كانت تنظر إليّ هذه النظرة. إنها سعيدة لأنني سأموت! نعم، إنها تشمت بي؛ فهي السليمة القوية. انظر إليها. لم تمرض يوماً، ولا ليوم واحد! وكل هذا بدون فائدة. ما الفائدة التي تجنيها من هذا الجسد القوي؟ ماذا ستفعل به؟".

أنحنت فلسي والتقطت قطع الزجاج المتناثرة.

قالت بصوت غنائي: "لا أجد مشكلة فيما تقول. ما أهميته؟ أنا فتاة محترمة. أما هي، فسوف تخلد في العذاب بعد وفاتها. أنا متدينة، لن أرد عليها".

صاحت أنيتا: "أنت تكرهينني. لطالما كنت تكرهينني. أها! ولكنني سوف ألقي لعنتي عليك. بإمكاني أن أجعلك تفعلين ما أريد. إذا أمرتك بشيء، فسوف تجثين على ركبتيك راكعة أمامي على الحشائش".

قالت فلسي باضطراب: "أنت سخيفة".

"ولكنك ستفعلين ذلك. سوف تفعلين لكي ترضيني ـــــ تجثين على ركبتيك. أنا آمرك بذلك، أنا: أنيتا. اجثي على ركبتيك يا فلسي".

سواء كان التضرع الرائع الواضح في صوتها، أو بسبب دافع أقوى بداخلها، أطاعتها فلسي. جثت ببطء على ركبتيها، ووجهها خال من أي تعبير يبدو عليه الغباء.

أرجعت أنيتا رأسها للخلف وضحكت منها ـــــ انفجرت في نوبة ضحك تتلوها نوبة أخرى.

"انظر إليها، بوجهها الغبي! كم تبدو سخيفة. بإمكانك أن تنهضي الآن يا فلسي، شكراً لك! لا طائل من عبوسك في وجهي. أنا سيدتك. يجب أن تنفذي ما آمرك به".

تراجعت مستندة إلى وسائدها والتعب يبدو عليها. فحملت فلسي الصينية وتحركت ببدء مبتعدة عنها. وبمجرد أن نظرت وراء ظهرها، أدهشني الغضب المكبوت الظاهر في عينيها.

"لم أكن هناك عندما توفيت أنيتا. ولكن وفاتها بدت مروعة. تشبثت بالحياة. حاربت المرض كأنها سيدة مجنونة. كانت تلتقط أنفاسها مرة تلو أخرى وتقول: "لن أموت ـــــ هل تسمعني؟ لن أموت. سوف أعيش ـــــ أعيش ـــــ ".

"أخبرتني الآنسة سلاتر بكل ذلك عندما أتيت لرؤيتها بعد ستة أشهر.

قالت بصوت عطوف: "راؤول المسكين. لقد أحببتها، أليس كذلك؟".

"دائماً ـــــ دائماً. ولكن ما فائدة ذلك الآن؟ دعينا لا نتحدث عن ذلك. لقد توفيت ـــــ لقد كانت غاية في الذكاء، ممتلئة بالحياة..."

كانت الآنسة سلاتر سيدة عاطفية، فبدأت في الحديث عن أشياء أخرى. كانت غريبة للغاية في تعاملها مع فلسي، مثلما أخبرتني. عانت الفتاة انهياراً عصبياً غريباً لفترة قصيرة، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تصرفاتها غاية في الغرابة.

قالت الآنسة سلاتر بعد لحظة من التردد: "أتدري؟ إنها تتعلم العزف على البيانو!".

"لم أكن أعرف ذلك، وفوجئت كثيراً بسماع ذلك. فلسي ـــــ تتعلم البيانو! بإمكاني القول إن الفتاة لا تستطيع أن تميز رمزاً موسيقياً عن آخر".

تابعت الآنسة سلاتر حديثها قائلة: "يقولون إنها كانت موهوبة. لا أستطيع أن أفهم ذلك. لطالما أوكلت لها المهام البسيطة ـــــ حسناً يا راؤول لقد عرفتها بنفسك، كانت دائماً فتاة غبية".

أومأت برأسي.

"أحيانًا تكون تصرفاتها غاية في الغرابة ـــــ حقيقة لا أعرف ماذا أفعل معها".

بعد لحظات، دخلت غرفة القراءة، فوجدت فلسي تعزف على البيانو. كانت تعزف اللحن الذي سمعت أنيتا تغنيه في باريس. لقد صدمت كثيراً يا سادة عندما سمعت عزفها. وعندما سمعتني، توقفت فجأة ونظرت إلي. كانت عيناها مليئتين بسخرية وذكاء. للحظة، حسنًا لن أخبركم بما فكرت فيه.

قالت: "ها قد جئت! إذن هذا أنت مسيو راؤول".

لا أستطيع أن أصف الطريقة التي تحدثت بها. بالنسبة لأنيتا، كانت تناديني راؤول دومًا. أما فلسي، منذ التقيتها بعدما كبرنا، كانت تناديني دومًا مسيو راؤول. ولكن الطريقة التي تحدثت بها الآن كانت مختلفة ـــــ كأن كلمة مسيو ـــــ التي أكدتها بعض الشيء ـــــ كانت ظريفة للغاية.

تلعثمت في الحديث وقلت لها: "لماذا يا فلسي، تبدين مختلفة تمامًا اليوم؟".

قالت بطريقة تنم عن التأمل: "هل هذا صحيح؟ هذا غريب, ولكن لا تتعامل معي بهذه الجدية يا راؤول ـــــ سوف أناديك راؤول ـــــ ألم نكن نلعب معًا ونحن أطفال؟ ـــــ كان الضحك هو كل حياتنا. دعنا نتحدث عن أنيتا المسكينة ـــــ لقد توفيت ودفنت. أتساءل عما إذا كانت تحاسب الآن".

ثم غنت جزءًا من أغنية غير مستساغة اللحن. ولكن الكلمات شدت انتباهي.

صحت قائلاً: "فلسي، أنت تتحدثين الإيطالية؟".

ضحكت من تعجبي وقالت: "ولم لا يا راؤول؟ أنا لست غبية مثلما كنت أتظاهر".

بدأت في القول: "لا أفهم ـــــــ "

"ولكنني سوف أخبرك بأنني ممثلة جيدة جدًا، بدون أن يشك أحد في ذلك. بإمكاني أن ألعب الكثير من الأدوار ـــــ وأتقن لعبها تمامًا".

ضحكت مرة أخرى وركضت مسرعة إلى خارج الغرفة، قبل أن أوقفها.

رأيتها مرة أخرى قبل أن أغادر. كانت نائمة على كرسي له ذراعان. كانت تصدر غطيطًا بصوت عالٍ. وقفت وراقبتها، وأنا مبهور، ومأخوذ في الوقت نفسه. وفجأة فتحت عينيها ووقعت عيناها ـــــ المملتان الخاليتان من الحياة ـــــ على عينيّ.

تمتمت بطريقة تلقائية قائلة: "سيد راؤول".

"نعم يا فلسي، أنا ذاهب الآن. ألن تعزفي لي قبل أن أذهب؟".

"أنا؟ أعزف؟ أنت تسخر مني يا سيد راؤول".

"ألا تذكرين أنك عزفت لي هذا الصباح؟".

هزت رأسها نافية.

"أنا أعزف؟ كيف يمكن لفتاة مسكينة مثلي أن تعزف؟".

توقفت للحظة، كأنها تفكر، ثم طلبت مني أن أقترب منها.

"سيد راؤول، هناك أشياء غريبة تحدث في هذا المنزل! إنهم يخدعوننا. يغيرون الساعات. نعم، نعم، أعرف ما أقول. وكل هذا بسببها".

سألتها بدهشة: "بسبب من؟".

"إنها ألعاب أنيتا. تلك الشريرة. عندما كانت على قيد الحياة، كانت تعذبني دوماً. والآن بعدما ماتت، تعود من موتها لتعذبني".

حدقت إلى فلسي. رأيت الآن أنها كانت في حالة فزع شديد. كانت عيناها جاحظتين من وجهها.

"إنها شريرة، إنها شريرة، صدقني. قد تسرق الخبز من فمك، وتنزع الملابس من خلفك، والروح من جسدك...".

وفجأة تشبثت بي.

أنا خائفة، أقول لك إنني خائفة. أسمع صوتها ـــــ لا أسمعه في أذني ـــــ لا ليس في أذني. وإنما هنا، في رأسي ـــــ " نقرت على جبينها. "سوف تأخذني ـــــ تأخذني تماماً، وبعد ذلك ماذا سأفعل؟ ماذا سيحدث معي؟".

ارتفع صوتها إلى حد الصراخ. بدت في عينيها نظرة حيوان وحشي مرعوب في محبسه...

وفجأة ابتسمت، ابتسامة ريفية، مليئة بالدهاء، كان فيها شيء جعلني أرتجف.

"إذا وصلت الحال لهذا الحد يا مسيو راؤول، فلدي يدان قويتان للغاية ـــــ يدان قويتان للغاية".

لم ألاحظ يديها تحديداً من قبل. نظرت إليهما الآن، فانتابتني القشعريرة رغماً عني. أصابع وحشية غليظة، وكما قالت فلسي، قوية للغاية... لا أستطيع أن أصف لكم الدوار الذي شعرت به. بمثل هاتين اليدين قطعاً خنق والدها والدتها....

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فلسي بولت فيها. وبعد ذلك على الفور سافرت إلى الخارج ـــــ لأمريكا الجنوبية. عدت من هناك بعد عامين من وفاتها. قرأت شيئاً في الصحف عن حياتها وموتها المفاجئ. سمعت التفاصيل بالكامل الليلة ـــــ منكم ـــــ يا سادة! فلسي 3 وفلسي 4 ـــــ أتساءل، هل كانت ممثلة بارعة؟

وفجأة أبطأ القطار سرعته. وجلس الرجل الجالس في الزاوية منتصباً وارتدى

معطفه وتدثر به جيداً.

قال المحامي بعدما انحنى للأمام؟: "وما رأيك أنت؟".

بدأ بارفيت في الحديث، قائلاً: "لا أصدق ـــــــــ " ثم توقف عن الكلام.

لم ينبس الدكتور ببنت شفة. كانت يحدق إلى راؤول ليتاردو.

اقتبس الرجل الفرنسي كلماتها وقال: "تنزع الملابس من خلفك، والروح من جسدك..." ثم هب واقفاً وقال: "أقول لكم يا سادة، إن تاريخ فلسي بولت هو تاريخ أنيتا ريفيل. أنتم لم تعرفوها، ولكنني عرفتها. كانت مغرمة بالحياة كثيراً...".

وضع يديه على الباب، استعداداً لفتحه، وفجأة التفت وانحنى ونقر على صدر بارفيت.

لقد قال الدكتور منذ قليل: "إن كل هذا واضعاً يده على بطن رجل الدين الذي فتح وأغمض عينيه على نحو لا إرادي ـــــ مجرد مسكن. أخبرني، إذا وجدت لصاً في منزلك وماذا تفعل؟ تطلق عليه النار، ألن تفعل ذلك؟".

صاح رجل الدين: "نعم، نعم أبداً ـــــ أعني ـــــ ليس في هذه المدينة".

ولكنه قال آخر كلماته للفراغ، فقد غادر الرجل عربة القطار مغلقاً الباب وراءه.

جلس رجل الدين والمحامي والدكتور وحدهم، بعدما أصبح الركن الرابع خاوياً.

الغجرية

I

كثيراً ما لاحظ مكفارلين أن صديقه ـــــ ديكي كاربنتر ـــــ ينفر بشكل غريب من الغجريات، ولم يعرف قط السبب في ذلك. ولكن حين فسخت الخطبة بين ديكي وإستر لوز، انهارت العلاقة بين الرجلين في ذلك الوقت.

كان مكفارلين مرتبطًا بالأخت الصغرى راشيل، منذ عام تقريبًا. كان يعرف ابنتي عائلة لوز منذ الطفولة. ونظراً لبطئه وحذره في كل شيء، لم يكن مستعداً لأن يعترف لنفسه باهتمام راشيل المتزايد به بوجهها الطفولي وعينيها البنيتين الصريحتين. ورغم أنها ليست في جمال إستر، لا! فإنها أصدق وأعذب بدرجة لا توصف. ومن خلال خطبة ديكي للأخت الكبرى، توطدت العلاقة بين الرجلين.

والآن، بعد بضعة أسابيع قليلة، توترت علاقتهما للمرة الثانية، فصارحه ديكي البسيط بالسبب بصراحة ومباشرة. في شبابه، كان كل شيء يسير بشكل سلس للغاية، فقد أحسن اختيار العمل في البحرية. كان يتوق إلى البحر منذ مولده. كان يشبه الإسكندنافيين ـــــ في فطرته وصراحته، وهي طبيعة جعلته أبعد ما يكون عن حضور البديهة. كان من ذلك النوع من الإنجليز الذين لا يحسنون التعبير عن أنفسهم، ولا يحبون أي نوع من العواطف، ويجدون صعوبة غريبة في التعبير عن الأفكار التي تدور في أذهانهم من خلال الكلمات.

استمع له مكفارلين ـــــ ذلك الإسكتلندي الصارم ـــــ بخيال جامح محجوب في مكان بعيد ـــــ وهو يدخن، بينما أخذ صديقه يتخبط في بحر من الكلمات. عرف من قبل أنه سوف يواجه مشكلات. ولكنه توقع أن يكون السبب شيئًا آخر. في البداية لم يذكر إستر لوز بأي شيء. بدا الأمر كأنه حكاية خوف طفولي.

بدأ الأمر كله بحلم راودني عندما كنت طفلاً. لم يكن كابوساً بالضبط. كانت ـــــ الغجرية ـــــ تقتحم أي حلم قديم ـــــ حتى لو كان حلماً جيداً (أو فكرة طفل عما هو جيد ـــــ كحفل أو بسكويت أو أشياء من هذا القبيل). كنت أستمتع بنفسي لأبعد مدى، ثم شعرت، كنت أعرف، بأنني إذا نظرت لأعلى، فسوف تكون هناك؛ تقف مثلما تقف دائماً، تراقبني... بعينين حزينتين، كأنها تعرف شيئًا لا أعرفه... لا أستطيع أن أعبر عن سبب انزعاجي من هذا الأمر لهذه الدرجة ـــــ ولكنه كان كذلك فعلاً كل مرة! كنت أستيقظ وأنا أصرخ من شدة الفزع، وكانت مربيتي تقول لي: "ها هو

السيد ديكي يراوده حلم آخر عن الغجرية التي يراها!".

"هل سبق أن رأيت غجريات فعلاً أفزعتك رؤيتهن؟".

"لم أر ولا واحدة إلا مؤخراً. كان أمراً غريباً أيضاً. كنت أطارد جروي الصغير، الذي ركض مبتعداً عني. خرجت من باب الحديقة، ومنه إلى طريق طويل إلى الغابة. كنا نعيش في نيوفورست في ذلك الوقت، كما تعرف. ركضت حتى وصلت لمكان خال من الأشجار في النهاية، كان به جسر خشبي يعبر نهراً صغيراً. بجانبه بالضبط وقفت غجرية هناك ـــــ كانت تضع منديلاً أحمر فوق رأسها ـــــ تماماً مثلما رأيتها في أحلامي. وفجأة شعرت بخوف! نظرت إليّ... بالنظرة نفسها ـــــ كأنها تعرف شيئاً لا أعرفه، وحزينة عليه... وبعد ذلك قالت بهدوء شديد، وهي تومئ برأسها: "لن أسير في هذا الطريق، لو كنت مكانك". لا أستطيع أن أذكر لك السبب، ولكن الأمر أخافني لدرجة الموت. فركضت على الجسر غير عابئ بتحذيرها. كان جسراً قديماً متهالكاً، فانكسر وسقطت في النهر. كان ماء النهر يجري بسرعة كبيرة، مما أغرقني تقريباً. كان إحساس الغرق بغيضاً جداً. لم أنسه قط. شعرت بأن الأمر كله مرتبط بالغجرية...".

"رغم أنها حذرتك المرور عليه؟".

أجابه ديكي: "أعتقد أنه بإمكانك قول ذلك". توقف لحظة عن الكلام ثم أردف قائلاً: "لقد حكيت لك الحلم الذي راودني، ليس لأنه مرتبط بأي حال بما حدث بعد ذلك (على الأقل أعتقد أن الأمر ليس كذلك)، ولكن لأنها نقطة البداية، كما كانت. سوف تفهم الآن ما أعنيه بـ "إحساس الغجرية". سوف أكمل حديثي عن الليلة الأولى التي رأيت فيها عائلة لوز. كنت قد عدت لتوي من الويست كوست. كان تواجدي في إنجلترا مرة أخرى أمراً مروعاً. كانت عائلة لوز صديقة قديمة لعائلتي. لم أرَ فتياتها منذ كنت في السابعة تقريباً، ولكن آرثر الصغير كان صديقاً رائعاً لي، وبعدما توفي، كانت إستر تراسلني، وكانت ترسل لي خطابات. كانت تكتب خطابات مبهجة للغاية! كانت خطاباتها تسعدني كثيراً. لطالما تمنيت أن أحسن كتابة الخطابات لأرد عليها. وكنت متحمساً كثيراً لرؤيتها. بدا غريباً أن أعرف فتاة معرفة جيدة من خلال خطاباتها، لا العكس. حسناً، ذهبت إلى منزل لوز قبل أي شيء. كانت إستر في الخارج عندما وصلت، ولم يكن من المتوقع أن تعود في تلك الليلة. جلست بجانب راشيل على العشاء، وبينما كنت أنظر إلى الطاولة الطويلة، انتابني شعور غريب. شعرت بأن هناك من يراقبني، فجعلني هذا الشعور غير مطمئن. ثم رأيتها ـــــ ".

"رأيت من؟".

"السيدة هاورث ـــــ التي أخبرك بها".

كان على لسان مكفارلين أن يقول: "ظننت أنك ستقول لي إستر لوز". ولكنه

التزم الصمت، فتابع ديكي حديثه.

"كان هناك شيء فيها مختلف تمامًا عن البقية. كانت تجلس بجانب السيد لوز ـــــ تستمع له بجدية شديدة وهي حانية رأسها. كانت تضع وشاحًا من التول الأحمر حول رقبتها. أعتقد أنه كان ممزقًا، فبدا من وراء رأسها كأنها ألسنة صغيرة من نار... قلت لـ راشيل: "من هذه السيدة التي تجلس على الطاولة هناك، تلك السمراء ـــــ التي ترتدي وشاحًا أحمر؟".

"هل تقصد أليستير هاورث؟ إنها ترتدي وشاحًا أحمر. ولكنها جميلة. جميلة جدًا".

كانت كذلك فعلاً. كان شعرها الأشقر اللامع جميلاً. إلا أنني رأيتها سمراء. من الغريب أن يخدعك بصرك لهذا الحد... بعد العشاء، قدمتنا راشيل لبعضنا، وسرنا معًا في الحديقة. تحدثنا عن تناسخ الأرواح...

"موضوع غير مناسب أبدًا يا ديكي!".

"أظنه كذلك. أذكر أنني قلت إنها طريقة منطقية تمامًا لتفسير الكيفية التي تجعلك تعرف بعض الناس على الفور ـــــ كأنك قابلتهم من قبل. قالت: "أتعني العشاق..." كان هناك شيء غريب في طريقة قولها ـــــ شيء رقيق وتواق. ذكرني بشيء ما ـــــ ولكنني لا أتذكره، ثم واصلنا حديثنا قليلاً، حتى نادانا السيد لوز من الردهة معلنًا قدوم إستر، ورغبتها في رؤيتنا، ثم وضعت السيدة هاورث يدها على ذراعي وقالت: "سوف تدخل؟ قلت لها "نعم". "أعتقد أنه من الأفضل لنا" و "بعد ذلك ـــــ وبعد ذلك ـــــ ".

"ماذا؟".

"قد يبدو كلامي غريبًا، ولكن السيدة هاورث قالت لي: "لن أدخل لو كنت مكانك..."، توقف عن الكلام قليلاً ثم تابع قائلاً: "أفزعني كلامها. أفزعني كثيرًا. لهذا السبب رويت لك الحلم... لأنها ـــــ كما رأيت ـــــ قالت الكلام نفسه ـــــ بهدوء، كأنها تعرف شيئًا لا أعرفه". لم تكن مجرد سيدة جميلة تريد أن تبقيني في الحديقة معها. كان صوتها عطوفًا ـــــ وحزينًا للغاية، كأنها تعرف ما سوف يحدث... أظنها وقاحة، ولكنني التفت وتركتها ـــــ ودخلت المنزل مسرعًا. بدا المنزل كأنه الملاذ الآمن بالنسبة لي. عرفت بعد ذلك أنني كنت خائفًا منها من البداية. شعرت براحة لرؤية السيد لوز. كانت إستر تقف إلى جواره..." تردد للحظة ثم تمتم بطريقة غير واضحة قائلاً: "مما لا شك فيه ـــــ أنني لحظة أن رأيتها، علمت أنني سوف أواجه مشكلة".

طار عقل ماكفارلين مباشرة إلى إستر لوز، فقد سمع ذات مرة من يصفها اختصارًا بأنها "امرأة طويلة تتمتع بجمال متميز"، رسم في مخيلته صورة سديدة، وهو يتذكر طولها غير العادي ورشاقة جسدها، وبياض ونعومة بشرتها، وأنفها الرقيق المتدلي

لأسفل، وشعرها وعينيها شديدتي السواد. نعم ليس من العجيب أن يستسلم ديكي البسيط الصبياني لمثل هذا الجمال.
صحيح أن إستر لم تجعل قلبه يخفق بسرعة أكبر، ولكنه اعترف بجمالها.

تابع ديكي كلامه قائلاً: "وبعد ذلك، تمت خطبتنا".

"على الفور؟".

"حسنًا، بعد أسبوع تقريبًا. واحتاجت إلى أسبوعين بعد ذلك لتكتشف أنها ليست مهتمة بالموضوع برمته..." قالها بضحكة قصيرة لا تخلو من مرارة.

"كان المساء الأخير قبل أن أعود إلى السفينة القديمة. كنت آتيًا من القرية عبر الغابات ـــــ ثم رأيتها ـــــ أعني السيدة هاورث. كانت تضع قلنسوة حمراء على رأسها، وللحظة جعلتني أقفز من مكاني! لقد رويت لك حلمي، لذلك سوف تفهم... ثم سرنا قليلاً. لم تسمع إستر أي شيء عن لقائنا".

"لا؟" نظر مكفارلين إلى صديقه باستغراب شديد. كم من الغريب أن يقص عليك الناس أشياء هم أنفسهم غير مدركين إياها!

وبعد ذلك، عندما التفت لأعود إلى المنزل، أوقفتني. قالت لي: "سوف تعود إلى ديارك عما قريب. لن أعود بهذه السرعة لو كنت مكانك...". وبعد ذلك عرفت ـــــ أن هناك شيئًا بغيضًا ينتظرني... و... بمجرد أن عدت قابلتني إستر، وقالت لي إنها اكتشفت أنها ليست مهتمة بخطبتنا بشكل حقيقي...".

سأل مكفارلين بتعاطف شديد: "والسيدة هاورث؟".

"لم أرها مرة أخرى ـــــ حتى هذه الليلة".

"الليلة؟".

"نعم. في مستشفى الدكتور جوني. كنت أكشف على ساقي: الساق التي أصيبت في إطلاق قذائف السفن. لقد أقلقتني بعض الشيء مؤخرًا. فنصحني الطبيب الكبير بأن أجري عملية جراحية ـــــ قائلاً إن الأمر سيكون سهلاً. وعندما غادرت المستشفى، اصطدمت بفتاة ترتدي كنزة حمراء فوق ملابس التمريض، قالت لي: "لن أخوض هذه العملية الجراحية لو كنت مكانك...". ثم رأيت أنها كانت السيدة هاورث. مرت بسرعة كبيرة فلم أستطع أن أوقفها. ثم قابلت ممرضة أخرى وسألتها عنها. فقالت إنه ليست هناك ممرضة في المستشفى بهذا الاسم... أمر غريب...".

"هل أنت واثق أنها كانت هي؟".

"أوه! نعم ـــــ إنها جميلة جدًا..." توقف عن الكلام ثم أردف قائلاً: "سوف أخوض العملية الجراحية طبعًا ـــــ ولكن ـــــ إذا واجهت آلامًا أو لقيت مصرعي ـــــ "

"هراء!".

"طبعًا ليس الأمر كذلك. ولكنني سعيد لأني أخبرتك بقصة الغجرية.... هناك المزيد عنها فقط إذا تذكرت..."

II

صعد مكفارلين الطريق المنحدر إلى البراري. واتجه إلى بوابة المنزل القريب من قمة التل. استجمع قواه، ورن الجرس.

"هل السيدة هاورث موجودة؟".

"نعم يا سيدي، سوف أخبرها". تركته الخادمة في غرفة طويلة في الطابق السفلي، نوافذها تطل على البراري. عبس قليلاً. هل يجعل نفسه شخصاً أحمق بتصرفه هذا؟

ثم تحرك فجأة بعدما سمع صوتًا منخفضًا يغني فوق رأسه:

"السيدة الغجرية
تعيش في البراري ـــــ"

انقطع الصوت. وخفق قلب مكفارلين بسرعة أكبر. ثم انفتح الباب.

بجمالها الإسكندنافي المذهل دخلت الغرفة. ورغم وصف ديكي إياها، تخيلها بسمرة الغجر... وفجأة تذكر كلمات ديكي، والنبرة الغريبة التي قالها بها. "إنها جميلة جداً...". كان الجمال الذي لا خلاف عليه أمر نادر، ولكن أليستير هوارث كانت تتمتع به.

نهض من مكانه، وتقدم نحوها: "أخشى أنك لا تعرفينني. لقد حصلت على عنوانك من عائلة لوز. ولكنني ـــــ صديق ديكي كاربنتر".

نظرت إليه عن كثب لدقيقة أو اثنتين. ثم قالت: "كنت سأخرج، إلى البراري. هل ستخرج معي؟".

فتحت النافذة وخرجت منها إلى جانب التل، وتبعها مكفارلين. كان هناك رجل بدين تبدو عليه الحماقة يجلس على كرسي من الصفصاف ويدخن.

"زوجي! سوف نخرج إلى البراري، يا موريس. وسوف يعود السيد مكفارلين ليتناول معنا الغداء.سوف تخرج، أليس كذلك؟".

"شكراً جزيلاً لك". تبعها بخطى خفيفة إلى التل، وقال في نفسه: "لماذا؟ لماذا بحق الله تتزوج ذلك الشخص؟".

واصلت أليستير طريقها حتى وصلت لبعض الصخور. "سوف نجلس هنا. وسوف تخبرني بما جئت لتخبرني به".

"كنت تعرفين؟".

"دائمًا ما أعرف متى تحدث أمور سيئة. أمر سيئ، أليس كذلك؟ عن ديكي؟".

"لقد خضع لعملية جراحية بسيطة ـــــ نجحت بنسبة كبيرة. ولكن قلبه كان ضعيفًا على ما يبدو. فمات وهو تحت تأثير المخدر".

عرف بالكاد ما توقع رؤيته على وجهها، تلك النظرة التي تعكس تعبًا أبديًا.... سمعها تتمتم قائلة: "مرة أخرى ـــــ أن أنتظر ـــــ كل هذه الفترة ـــــ كل هذه الفترة ..." ثم نظرت لأعلى وقالت: "نعم، ماذا كنت ستقول؟".

"لقد حذره شخص ما من هذه العملية. ممرضة. ظن أنها أنت. هل كان الأمر كذلك؟".

هزت رأسها نافية. "لا، لم تكن الممرضة أنا. ولكن لدي ابنة عم تعمل ممرضة. إنها تشبهني كثيرًا في الإضاءة الخفيفة. أظنها كانت هي". ثم نظرت لأعلى مرة أخرى وقالت: "هذا غير مهم، أليس كذلك؟"، ثم اتسعت عيناها فجأة. والتقطت أنفاسها وقالت: "أوه! أوه! كم هذا مضحك! أنت لا تفهم...".

كان مكفارلين حائرًا. كانت لا تزال تحدق إليه.

"ظننتك فعلت... عليك أن تفعل. تبدو كأنك تمتلك هذه الموهبة أيضًا...".

"أملك ماذا؟".

"الهبة ـــــ اللعنة ـــــ سمها كيفما تشاء. أعتقد أنك تملكها. انظر جيدًا إلى تلك الصخور الخاوية. لا تفكر في أي شيء، فقط انظر... أها!". لاحظت اندهاشه. "حسنًا ـــــ هل رأيت شيئًا؟".

"قطعًا كان وهمًا. للحظة تصورت أنها مخضبة بالدماء!".

أومأت برأسها. "عرفت أنك تملكها. في ذلك المكان كان القدماء يقدمون قرابينهم. عرفت ذلك قبل أن يخبرني به أي شخص. وفي بعض الأوقات أستشعر مشاعرهم ـــــ كأنني كنت هناك بنفسي... وهناك شيء في البراري يجعلني أشعر كأنني أعود إلى دياري... من الطبيعي أن أمتلك هذه الهبة. أنا سليلة عائلة فيرجيسون التي تتنبأ بالمستقبل. وكانت والدتي عرافة حتى تزوجها أبي، كانت تدعى كريستينج. كانت معروفة جدًا".

"هل تعنين "بالهبة" القدرة على رؤية الأمور قبل وقوعها؟".

"نعم: أراها مقدماً أو أسترجعها ـــــ الأمر سيان. على سبيل المثال، رأيتك تتساءل في نفسك عن سبب زواجي من موريس ـــــ أوه! نعم فعلت! ـــــ لأنني طالما كنت أعرف أن هناك شيئًا مخيفًا يحلق فوقه... أردت أن أنقذه منه ... النساء على هذا النحو. وبهبتي، ظننت أنني سأتمكن من منعها من الحدوث... ولكنني لم أستطع مساعدة ديكي. ولم يكن ديكي ليفهم... كان خائفًا. كان صغيرًا للغاية".

"في الثانية والعشرين".

"وأنا في الثلاثين. ولكنني لم أعن ذلك. هناك طرق عديدة للانقسام: طول، وارتفاع، وعرض... ولكن الانقسام بفعل الوقت هو أسوأ طريقة على الإطلاق..." ثم دخلت في صمت طويل ينم عن التفكير.

تنبها لما حولهما عندما دق جرس قادم من المنزل.

على الغداء، راقب مكفارلين موريس هاورث. قطعًا كان يحب زوجته بجنون. كانت هناك سعادة لا حدود لها تبدو في عينيه. كما لاحظ مكفارلين رقة استجابتها، عند حديثها عن الأمومة. بعد الغداء غادر المكان.

"سوف أبقى في فندق ليوم أو اثنين. هل يمكنني أن آتي لرؤيتك مرة أخرى؟ ربما في الغد؟".

"طبعًا. ولكن ـــــ "

"ولكن ماذا؟".

مررت يدها بسرعة أمام عينيها وقالت: "لا أعرف. أتصور أنه يجب علينا ألا نلتقي مرة أخرى ـــــ هذا كل ما في الأمر... الوداع".

سار في الطريق ببطء. رغمًا عنه، استشعر يدًا باردة تعصر قلبه. لم تكن كلماتها طبعًا، ولكن ـــــ "

انحرفت سيارة على جانب الطريق. اقترب من السور الذي كان يسير بمحاذاته... في اللحظة المناسبة تمامًا. علا وجهه شحوب رمادي غريب...

III

عندما استيقظ مكفارلين صباح اليوم التالي، تمتم قائلاً: "أعصابي في حالة يُرثى لها". استعرض الأحداث التي حدثت بعد الظهيرة بهدوء. السيارة، الطريق المختصر إلى الفندق والضباب الذي ظهر فجأة فجعله يضل طريقه وهو يعرف أن هناك مستنقعًا خطيرًا قريبًا منه. ثم الأصيص المصنوع من الفخار الذي سقط في الفندق، ورائحة الحريق التي شمها ليلاً، والتي تقفى أثرها حتى وصل إلى قطعة فحم محترقة في

مدفأته. لا شيء في كل ذلك! لا شيء على الإطلاق ـــــ ولكن كلماتها، وذلك الشك الذي يستشعر في أعماقه بأنها كانت تعرف...

نزع ملابس نومه بحيوية مفاجئة. يجب أن يصعد التل ويراها أولاً. فهذا سيكسر السحر. هذا إن، إن وصل إلى هناك بأمان... يا إلهي، كم كان أحمق!

كان باستطاعته أن يتناول إفطاراً بسيطًا. في تمام العاشرة كان يسير على الطريق. وفي تمام العاشرة والنصف كان يضع يده على الجرس. عندئذ ـــــ وليس قبل ذلك ـــــ سمح لنفسه بأن يأخذ نفسًا عميقًا ليخفف من حدة توتره.

"هل السيدة هاورث موجودة؟".

كانت نفسها السيدة العجوز التي فتحت له الباب من قبل. ولكن وجهها كان مختلفًا ـــــ يعلوه الحزن.

"أوه! سيدي، أوه! لم تسمع الخبر إذن؟".

"أسمع ماذا؟".

"السيدة أليستير، الحمل الجميل. كان المستحضر الذي تعده، كانت تتناوله كل ليلة. زوجها المسكين غاية في الحزن، لقد جن تقريبًا. أخذ الزجاجة الخاطئة من على الرف بالليل...وتم استدعاء الطبيب، ولكن بعد فوات الأوان ـــــ ".

وهنا، استرجع مكفارلين كلماتها: "لطالما كنت أعرف أن هناك شيئًا مخيفًا يحلق فوقه... أردت أن أنقذه منه" ـــــ إذا استطاع أي شخص ـــــ " أها! ولكن لا يمكن للمرء خداع القدر... نذير شؤم غريب أتى بالدمار حيث ينبغي له الإنقاذ...

تابعت الخادمة العجوز قولها: "حملي الجميل! كانت جميلة ولطيفة دومًا، وكانت تحزن لمشكلة أي إنسان. لم تكن تتحمل أن يتعذب أي إنسان". ترددت قليلة ثم قالت: "هل تود أن تصعد وتراها يا سيدي؟ أعتقد مما قالته أنك عرفتها منذ زمن طويل. منذ زمن طويل للغاية كما قالت..."

تبع مكفارلين السيدة العجوز إلى الطابق العلوي، إلى الغرفة المواجهة لغرفة الرسم حيث سمع صوت الغناء في اليوم السابق. كان هناك كوب مخضب بألوان أعلى النافذة ألقى ضوءًا أحمر على مقدمة السرير. غجرية بمنديل أحمر فوق رأسها... هراء، أعصابه تخدعه. ألقى نظرة أخيرة طويلة على أليستير هاورث.

IV

"هناك سيدة تود رؤيتك يا سيدي".

"ماذا؟". نظر مكفارلين إلى صاحبة الفندق بذهول. "أوه! اعذريني سيدة روز، أنا أرى أشباحًا".

"حقًا يا سيدي؟ أمر غريب أن تراها في البراري بعد حلول الظلام. هناك السيدة البيضاء، وشيطان الحداد، والبحار والغجرية ـــــ "

"ماذا؟ بحار وغجرية؟".

"يقولون كذلك يا سيدي. كانت حكاية سمعتها في شبابي. كان يربطهما الحب، منذ فترة... ولكنهما لم يسيرا منذ فترة طويلة الآن".

"لا؟ أتساءل عما إذا ظهرا من جديد الآن..."

"يا إلهي! ماذا تقول يا سيدي؟ عن تلك السيدة الشابة ـــــ "

"أية سيدة شابة؟".

"تلك التي تنتظر رؤيتك. إنها في غرفة الجلوس. قالت إن اسمها الآنسة لوز".

"أوه!".

راشيل! شعر بانقباض قلبه على نحو غريب، تغير في المنظور. كان ينظر إلى عالم آخر. كان قد نسي راشيل، فقد كانت راشيل تنتمي لهذه الحياة فقط... ومرة أخرى، ذلك التغير الغريب في المنظور ، الانزلاق إلى عالم من ثلاثة أبعاد فقط.

فتح باب غرفة الجلوس. راشيل ـــــ بعينيها البنيتين الصريحتين. وفجأة، كأنه استيقظ من حلم، انتابه شعور بسعادة غامرة. كان على قيد الحياة ـــــ على قيد الحياة! قال في نفسه: "هناك حياة واحدة يمكن للمرء أن يثق بها! تلك الحياة!".

قال: "راشيل!" ثم رفع ذقنها، وقبل جبهتها.

القنديل

I

مما لا شك فيه أنه كان منزلاً قديمًا. كان الميدان برمته قديمًا، تستشعر فيه مهابة ذلك العصر القديم المستنكر الذي يشبه مدينة كلاسيكية الطراز في أغلب الأحيان. ولكن المنزل رقم 19 يعطي انطباع الأخ الأكبر بين إخوة كبار، كانت له مهابة حقيقية، وكانت أغمق درجات اللون الرمادي تكسوه من الأعلى، كما كان له طابع يشعرك بالغطرسة، وكان بارداً للغاية بدرجة تفوق أبرد الأماكن. كان قاسيًا، بغيضًا، مطبوعة عليه تلك العزلة المرتبطة بكل المنازل التي لم يتم استئجارها لفترة طويلة، كان أعلى من باقية المنازل.

في أية مدينة أخرى كان من الممكن وصفه بأنه "مسكون"، ولكن ويمنستر كانت تشمئز من فكرة وجود الأشباح ولا تعترف بوجودها باستثناء "طبقة ملاك الأراضي". ومن ثم، لم يكن المنزل 19 يشار إليه بأنه مسكون، ولكن رغم ذلك ـــــ عامًا تلو آخر ـــــ ظلت عليه لافتة للإيجار أو البيع.

II

نظرت السيدة لانكستر إلى المنزل باستحسان وهي تقترب منه بعربتها بصحبة السمسار الثرثار؛ الذي كان في حالة مزاجية مرحة للغاية على غير العادة من فكرة حصوله على مستأجر للمنزل رقم 19. أدخل المفتاح في الباب بدون أن يتوقف عن تعبيرات الشكر والامتنان.

سألت السيدة لانكستر السمسار بفظاظة حتى تقطع عليه ثرثرته: "منذ متى والمنزل خال؟".

أصبح السيد راديش (من شركة راديش آند فوبلو) حائرًا قليلاً.

قال بتملق: "إررر ـــــ منذ بعض الوقت".

قالت السيدة لانكستر بطريقة جافة: "إذن دعني أخمن".

كانت الردهة ذات الإضاءة الخافتة باردة برودة تنذر بشر، ولعل أية سيدة أخرى ترتجف منها؛ خاصة إن كانت خيالية. أما السيدة لانكستر فكانت عملية للغاية. كانت

طويلة ولها شعر بني داكن يشوبه لون رمادي وعينان زرقاوان باردتان.

أخذت جولة في المنزل من الغرفة العليا إلى السرداب، وكانت بين الحين والآخر تطرح على السمسار سؤالاً وثيق الصلة بالموضوع. وبعد انتهاء المعاينة، عادت إلى إحدى الغرف الأمامية وألقت نظرة على الميدان، ثم نظرت إلى الوكيل نظرة حاسمة.

"ما مشكلة هذا المنزل؟".

قال على مضض: "أنا لا أعرف قصته. طبعاً كثرت القصص واختلفت، ولكنني أعتقد أنه منذ حوالي ثلاثين عاماً كان يسكنه رجل يدعى ويليام. لم يكن هناك شيء معروف عنه. لم يكن لديه خدم، أو أصدقاء، وكان نادراً ما يخرج في النهار. كان لديه طفل واحد، صبي صغير. وبعدما انتقل إلى المنزل بشهرين، سافر إلى لندن، وما إن وطأت قدمه العاصمة، حتى عرف الناس أنه "مطلوب" من قبل الشرطة لمسألة ما، لا أعرفها بالضبط. ولكنها كانت مسألة كبيرة بالطبع، لأنه بمجرد أن تم القبض عليه، أطلق النار على نفسه. ومنذ ذلك الوقت، عاش الطفل في المنزل وحده. لم يكن في المنزل ما يكفى من الطعام إلا لفترة قصيرة، وانتظر يوماً بعد الآخر عودة والده. ولسوء الحظ، كان والده قد حذره الخروج من المنزل تحت أية ظروف، أو الحديث مع أي إنسان. كان ضعيفاً، عليلاً، مخلوقاً صغيراً، فلم يخطر بباله ألا يطيع هذا الأمر. وبالليل، كان الجيران، الذين لم يعرفوا بسفر والده، كثيراً ما يسمعونه ينهنه من وحدة مروعة وعزلة المنزل الخاوي".

توقف السيد راديش عن الكلام.

ثم لخص كلامه قائلاً: "ثم ـــــ إررر ـــــ توفي الطفل من الجوع" ـــــ قالها بنبرة كأنها تعلن عن سقوط المطر.

سألته السيدة لانكستر: "وشبح الطفل هو الذي يسكن المكان كما يظن الناس؟".

أسرع السيد راديش بالحديث مطمئناً إياها: "أمر ليست له أية أهمية فى الحقيقة، فلم تتم رؤية أي شيء، لم يرَ الناس أي شيء، مجرد أشخاص يتحدثون، بسخافة طبعاً، ولكنهم يقولون إنهم يسمعون ـــــ الطفل ـــــ يبكي".

تحركت السيدة لانكستر نحو الباب الأمامي.

قالت: "لقد أحببت المنزل كثيراً. كما أنني لن أحصل على منزل بمثل هذا السعر. سوف أفكر في الأمر بتأنٍ وسأبلغك بقراري".

III

قالت السيدة لانكستر: "يبدو مبهجاً للغاية، أليس كذلك يا أبت؟".

تفقدت السيدة لانكستر ملكيتها الجديدة باستحسان؛ سجاجيد ملونة، أثاث مصقول بشكل حسن، وكثير من الحلي المنتشرة في كل ركن في المنزل، كل هذا غير تماماً الجانب القاتم للمنزل رقم 19.

كانت تتحدث إلى رجل هزيل، عجوز أحنى الزمن ظهره وأثقل كتفيه. كان يتمتع بوجه رقيق. لم يكن السيد وينبيرن يشبه ابنته، وليس هناك دليل على ذلك أكبر من التناقض الواضح في طابعها العملي، وطابعه المجرد الحالم.

قال لها بابتسامة: "بلى، لا أحد يتخيل أن المنزل مسكون".

"لا تردد هذا الكلام الفارغ يا أبت! وفي أول يوم لنا أيضاً".

ابتسم السيد وينبيرن.

"جيد جداً يا حبيبتي، سوف نتفق على أنه ليست هناك أشياء تسمى أشباحاً".

تابعت السيدة لانكستر كلامها قائلة: "وأرجوك، لا تنبس بكلمة أمام جيوف، فهو خيالي للغاية".

كان جيوف هو ابن السيدة لانكستر الصغير. كانت العائلة مكونة من السيد وينبيرن، وابنته الأرملة، وجيوفري.

بدأت الأمطار في التساقط بقوة، كانت ترتطم بنوافذ المنزل ـــــ طق، طق ـــــ طق، طق.

قال السيد وينبيرن: "اسمعي، ألا يشبه هذا الصوت وقع أقدام صغيرة؟".

قالت السيدة لانكستر، وابتسامة تعلو وجهها: "بل تشبه صوت الأمطار".

صاح والدها قائلاً، وهو يميل ناحية النافذة ليستمع إلى الصوت: "ولكن، هذا، هذا صوت وقع أقدام".

ضحكت السيدة لانكستر على الفور.

كان السيد وينبيرن مضطراً لأن يضحك هو الآخر. كانا يحتسيان الشاي في الردهة، وكان الأب يجلس وظهره للسلم. فاتجه بالكرسي ليصبح في مقابلته.

كان جيوفري الصغير ينزل على الدرجات، ببطء ورصانة، وعلى وجهه خشية طفل من مكان غريب. كانت السلالم مصنوعة من خشب البلوط المصقول، ولم تكن عليها سجاجيد. نزل ووقف بجوار والدته. رمقه السيد وينبيرن بنظرة سريعة. وبينما كان الطفل يسير على الأرض، سمع وقع أقدام أخرى على السلالم، كأن هناك من يتبع جيوفري. وقع أقدام متباطئة، كانت مؤلمة بشكل غريب، فهز كتفيه في ريبة وقال في نفسه: "إنه المطر بدون شك".

قال جيوف: "أنا أريد الكعك الإسفنجي"، قالها بنبرة إعجاب كأنه يشير لحقيقة مثيرة.

فأسرعت والدته تلاطفه.

سألته: "حسنًا يا بني، ما رأيك في المنزل الجديد؟".

أجابها جيوفري بفم ممتلئ عن آخره: "الكثير، والكثير، والكثير، والكثير". بدا واضحاً عليه أنه يستشعر درجة كبيرة من الرضا، ولكنه التزم الصمت، لحرصه على إبعاد الكعك الإسفنجي عن مرأى الرجل في أقل وقت ممكن.

بعدما ابتلع آخر لقمة، انفجر في الكلام!

"أوه! أمي، تقول جين إن هناك غرفة عليا في المنزل، هل يمكنني أن أصعد الآن وأكتشفها؟ وقد يكون هناك باب سري، جين تقول إنه ليست هناك أبواب، ولكنني أظن أنه يجب أن تحتوي على باب سري. على أية حال، أعرف أنه ستكون هناك أنابيب، أنابيب مياه (بوجه تعلوه النشوة) وبإمكاني أن ألعب بها، و، أوه! هل يمكنني أن أذهب وأرى الغلاـــــ ية؟". أطال نطق الكلمة الأخيرة بسعادة واضحة لدرجة أن جده شعر بالخزي بتفكيره أن هذه السعادة منقطعة النظير التي يستشعرها حفيده لم تثر في مخيلته سوى صورة الماء الساخن الذي لم يكن ساخناً، وفواتير السباك الباهظة.

قالت السيدة لانكستر: "سوف نرى الغرف العليا غداً، أعتقد أنك أحضرت المكعبات الخاصة بك وبنيت منزلاً جميلاً، أو محركاً".

"لا أريد أن أبني منزلاً".

"منزل"

"منزل، ولا حرك".

"محرك"

اقترح عليه جده: "ابن غلاية".

أضاء وجه جيوفري.

"بالأنابيب؟".

"نعم، بالكثير من الأنابيب".

ركض جيوفري مسرعاً ليحضر مكعباته.

كانت الأمطار لا تزال تتساقط. استمع السيد وينبيرن لها. نعم، قطعاً كان صوت الأمطار، ولكنها بدت كصوت خطوات أقدام.

راوده حلم غريب في تلك الليلة.

حلم أنه يسير في مدينة؛ بدت له مدينة عظيمة. ولكنها كانت مدينة أطفال، لم يكن هناك أشخاص بالغون، لا شيء سوى أطفال، الكثير من الأطفال. في ذلك الحلم اندفع كل الأطفال في اتجاه الغريب وهم يصيحون: "هل أحضرته؟". بدا كأنه فهم ما عنوه، ولكنه هز رأسه في حزن. عندما رأوا ذلك، ابتعد عنه الأطفال، وبدأوا في البكاء، بنهنهة مريرة.

اختفت صورة المدينة والأطفال من ذهنه واستيقظ ليجد نفسه في سريره، ولكن صوت النهنهة كان لا يزال في أذنيه. رغم أنه استيقظ تماماً، سمعه بوضوح، وتذكر أن جيوفري نام في الطابق السفلي، ولكن هذا الصوت آت من الدور العلوي. جلس وأشعل عود ثقاب، فتوقف صوت النهنهة على الفور.

IV

لم يخبر السيد وينبيرن ابنته بهذا الحلم أو توابعه. اقتنع تمام الاقتناع بأنه لم يكن من محض خياله، فقد سمع الصوت بالفعل مرة أخرى خلال النهار. كان يسمع أزيز الرياح في المدخنة، ولكن هذا الصوت كان مختلفاً ـــــ منفصلاً، جلياً: مثيراً للشفقة، يكسر القلب.

اكتشف أيضاً، أنه لم يكن الشخص الوحيد الذي سمعه، فقد سمع خادمة المنزل تتحدث إلى خادمة أخرى وتقول إنها "لا تعتقد أن المربية الخاصة بالسيد جيوفري كانت طيبة معه، فقد سمعته يبكي بحرقة هذا الصباح". ولكن جيوفري نزل ليتناول إفطاره وغداءه وهو يشع صحة وسعادة، وعلم السيد وينبيرن أن هذا البكاء لم يكن بكاء جيوف، وإنما بكاء الطفل الآخر الذي سمع وقع أقدامه المتباطئة أكثر من مرة.

لم تسمع السيدة لانكستر أي شيء. لعل أذنيها لم تعتادا سماع أصوات من عالم آخر.

إلا أنها ذات يوم تلقت هي الأخرى صدمة.

قال لها جيوف بنبرة حزينة: "أمي، أريدك أن تسمحي لي بأن ألعب مع هذا الصبي الصغير".

رفعت السيدة لانكستر ناظريها من فوق الطاولة التي تكتب عليها مبتسمة وقالت: "أي صبي صغير، يا حبيبي؟".

"لا أعرف اسمه. كان في الغرفة العليا، جالساً على الأرض يبكي، ولكنه ركض هارباً عندما رآني. أظنه كان خجولاً (بازدراء بسيط)، ليس كصبي كبير، وعندما كنت في الحضانة، رأيته واقفاً على الباب يراقبني وأنا أبني، بدا وحيداً للغاية، كأنه

يريدني أن ألعب معه. قلت له: "تعال والعب معي"، ولكنه لم ينطق بكلمة، نظر إليّ فقط ـــــ كأنه رأى الكثير من الشيكولاتة ـــــ التي حذرته والدته المساس بها". تنهد جيوف، كان من الواضح أنه استرجع ذكريات حزينة. ثم أردف قائلاً: "ولكنني عندما سألت جين عنه وقلت لها إنني أريد أن ألعب معه، قالت إنه ليس هناك صبي صغير في المنزل، وألا أذكر هذه الحكايات السيئة مرة أخرى. أنا لا أحب جين أبداً".

وقفت السيدة لانكستر.

"جين محقة، ليس هناك صبي صغير".

"ولكنني رأيته. أوه! أمي، دعيني ألعب معه، لقد بدا وحيداً للغاية وغير سعيد. أريد أن أفعل شيئاً يجعله في حالة أفضل".

كانت السيدة لانكستر توشك أن تتحدث مرة أخرى، ولكن والدها هز رأسه لينهاها عن ذلك.

قال بحنو شديد: "جيوف، هذا الصبي الصغير وحيد، وربما يمكنك أن تفعل شيئًا يريحه، ولكنك يجب أن تحدد الطريقة بنفسك ـــــ كأنها أحجية ـــــ هل تفهم؟".

"هل لأنني أكبر يجب أن أفعل كل شيء وحدي؟".

"نعم، لأنك تكبر".

عندما غادر الصبي الغرفة، التفتت السيدة لانكستر إلى والدها بنفاد صبر.

"هذا سخيف يا أبت. أن تشجع صبيًا على الإيمان بحكايات خادمة غبية!".

قال الرجل العجوز بلطف: "لم تخبر الخادمة الطفل بأي شيء. لقد رأى ـــــ ما سمعته، وما ـــــ ربما ـــــ يمكنني أن أراه لو كنت في سنه".

"ولكنه هراء! لماذا لا أراه أو أسمعه؟".

ابتسم السيد وينبيرن، ابتسامة متعبة غريبة، ولكنه لم يجبها.

كررت ابنته السؤال: "لماذا؟ ولماذا أخبرته بأن بإمكانه أن يساعد ذلك ـــــ ذلك ـــــ الشيء؟ هذا غير محتمل".

نظر الرجل العجوز إليها نظرة تنم عن تفكير عميق.

قال لها: "ولم لا؟ هل تذكرين تلك الكلمات:

"أي قنديل مقدر له أن يرشد
أطفاله الصغار كي لا تزل أقدامهم في الظلام؟
أجابت السماء: "فَهم أعمى".

كان جيوفري يتمتع بهذا ـــــ الفهم الأعمى. كل الأطفال يتمتعون به. فقط عندما نكبر نفقده، ننبذه بعيداً. أحياناً ونحن كبار، يأتينا بصيص باهت، ولكن القنديل يشع ضوءاً قوياً في الطفولة. لهذا السبب أعتقد أن جيوفري بإمكانه مساعدته".

تمتمت السيدة لانكستر بضعف قائلة: "لا أفهم".

"وأنا أيضاً لا أفهم أي شيء أكثر. ذلك ـــــ ذلك الطفل في مشكلة ويريد ـــــ من يحرره. ولكن كيف؟ لا أعرف، ولكن ـــــ من المروع التفكير في ذلك ـــــ نهنهة قلب ـــــ طفل".

V

بعد شهر من هذا الحوار أصبح جيوفري مريضاً للغاية. كانت أخف ريح تتعبه بشدة، ولم يكن طفلاً قوياً. هز الطبيب رأسه وقال إن حالته خطيرة.
وكشف للسيد وينبيرن المزيد عن وضعه واعترف له بأن حالته ميئوس منها تماماً.
أردف قائلاً: "كان يعاني مشكلة خطيرة في رئتيه منذ فترة طويلة".

كانت السيدة لانكستر تمرّض جيوف عندما أدركت وجود ذلك ـــــ الطفل الآخر. في البداية كانت نهنهات لا تختلف كثيراً عن صوت الرياح، ولكنها تدريجياً أصبحت مميزة أكثر، جلية أكثر. وأخيراً سمعتها في لحظات الهدوء التام: نهنهات طفل، حزين، يائس، كسير القلب.

ساءت حالة جيوف أكثر وكان يتحدث في هذيانه عن "الصبي الصغير" المرة تلو الأخرى. صاح قائلاً: "أريد أن أساعده على الهرب، أريد ذلك حقاً!".كانت تتبع نوبات الهذيان حالات من السبات. فكان جيوف يرقد في سكون، يتنفس بالكاد، ويغرق في النسيان. لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار والمراقبة. وبعد ذلك تأتي ليلة ساكنة، صافية وهادئة، بدون أن يسمع أي صوت للرياح.

وفجأة يهيج الطفل. يفتح عينيه، فيتجاوز النظر إلى والدته وينظر نحو الباب المفتوح. حاول أن يتحدث، فاقتربت منه والدته لتسمع الكلمات الواهنة التي نطقها.

همس قائلاً: "حسنًا، أنا آت". ثم غاص في مكانه. فجأة شعرت الأم بفزع شديد، تركت الغرفة واتجهت إلى والدها. كان الطفل الآخر يضحك في مكان ما قريب منهم. دوى صدى ضحكات مبتهجة، راضية، منتصرة ورنانة في الغرفة.

تأوهت وهي تقول: "أنا خائفة، أنا خائفة".

طوقها بذراعيه كأنه يحميها. وفجأة هبت رياح قوية جداً، ولكنها مرت بسرعة وصارت الرياح هادئة مثلما كانت من قبل.

توقفت الضحكات وتسلل إليهما صوت ضعيف، ضعيف للغاية يسمع بالكاد، ولكن قوته اشتدت حتى تمكنا من تمييزه. كان وقع أقدام ـــــ وقع أقدام خفيفة، تغادر بسرعة.

طق، طق، طق، طق، ركضا معاً ـــــ وقع الأقدام الصغيرة التي اعتاداها والمتباطئة. ولكن ـــــ قطعاً ـــــ سمعا الآن إلى جانبها وقع أقدام أخرى، خطوات تتحرك بسرعة وخفة.

وفي اتفاق تام اتجهت الأقدام بسرعة نحو الباب.

سمعا صوت الخطوات تنزل درجات السلم: طق، طق، طق، طق. سارت الأقدام الخفية للطفلين الصغيرين معاً.

نظرت السيدة لانكستر لأعلى بوحشية.

"هناك اثنان ـــــ اثنان!".

شحب لون وجهها من الخوف المفاجئ الذي اعتراها، فالتفتت ناحية المهد الموجود في الزاوية، ولكن والدها منعها ذلك برفق، وأشار إلى الخارج.

قال ببساطة: "هناك".

طق، طق، طق، خفت الصوت شيئاً فشيئاً.

وبعد ذلك ـــــ ساد الصمت.

المذياع

I

قال الدكتور مينيل بطريقة باردة كغيره من الأطباء: "أهم شيء أن تتجنبي القلق والانفعال".

أقلقت هذه الكلمات السيدة هارتر بدلاً من تهدئتها، كعادة الناس عندما يسمعون هذه الكلمات المهدئة التي لا معنى لها.

تابع الطبيب كلامه وقال بطلاقة: "قطعاً قلبك ضعيف، ولكن لا داعي للقلق حيال ذلك. أؤكد لك أنه لا داعي للقلق".

ثم أردف قائلاً: "على أية حال، قد يكون من المفيد أيضاً أن نركب مصعداً في المنزل. ها؟ ما رأيك؟".

بدت السيدة هارتر قلقة.

على العكس من ذلك، بدا الدكتور مينيل سعيداً بنفسه. كان السبب الذي يجعله يحب الذهاب إلى المرضى الأثرياء أكثر من الفقراء هو أنه يُعمِل خياله النشيط في وصف علاج أمراضهم.

قال الدكتور مينيل: "نعم، مصعد"، قالها وهو يحاول التفكير في شيء آخر أكثر جرأة ـــــ ولكنه فشل في ذلك. "حسناً، فهذا سيجنبنا أي جهد زائد. يمكنك ممارسة الحد المسموح به من التمارين اليومية إذا كان الطقس جيداً، ولكن تجنبي صعود التلال". ثم تابع حديثه بسعادة: "وقبل كل شيء، امنعي عقلك التفكير، ولا تفكري كثيراً في صحتك".

كان الدكتور أكثر صراحة بعض الشيء مع ابن أخ السيدة العجوز؛ تشارلز ريدجواي.

قال له: "لا تسئ فهمي، قد تعيش عمتك لسنوات، هذا ممكن. ولكن أية صدمة أو جهد زائد قد يودي بحياتها على وجه السرعة!" ـــــ قالها وهو يطقطق إصبعيه. "يجب أن تعيش حياة هادئة للغاية، بدون جهد أو إرهاق. ولكنها قطعاً يجب ألا تطيل التفكير. يجب أن تظل سعيدة وألا تفكر في قلبها".

قال تشارلز ريدجواي بتفكير شديد: "ألا تفكر؟".

كان تشارلز شابًا مفكرًا. كما كان يؤمن بإشباع ميوله الخاصة قدر المستطاع.

في ذلك المساء، اقترح على عمته أن يشتري مذياعًا.

كانت السيدة هارتر، التي كانت مستاءة بالفعل من فكرة تركيب المصعد، منزعجة وغير موافقة على شرائه. ولكن تشارلز تحدث بطلاقة لسان ولباقة وبشكل مقنع.

قالت السيدة هارتر بطريقة يُرثى لها: "لا أعرف ما إذا كنت مهتمة بهذه الاختراعات الحديثة. الموجات، أعني الموجات الكهربية. قد تؤثر فيّ".

أوضح لها تشارلز بطريقة ممتازة وعطوفة عبث هذه الفكرة.

ظلت السيدة هارتر ـــــ التي كانت معرفتها بالموضوع غامضة تمامًا، والتي كانت متمسكة برأيها رغم ذلك ـــــ غير مقتنعة بالفكرة.

تمتمت بخوف: "كل هذه الكهرباء. بإمكانك أن تقول ما تشاء يا تشارلز، ولكن بعض الناس يتأثرون بالكهرباء. دائمًا ما أعاني صداعًا مروعًا قبل العواصف الرعدية، أعرف ذلك جيدًا".

أومأت برأسها إشارة لانتصارها.

كان تشارلز شابًا صبورًا، كما كان لحوحًا أيضًا.

قال لها: "عمتي العزيزة، دعيني أوضح لك الأمر".

كان يتحدث عن علم وإلمام بالموضوع، فألقى محاضرة عنه، بعدما أعد نفسه جيدًا لهذه المهمة، وتحدث عن أجهزة تبعث موجات خفيفة، وأجهزة تبعث موجات قوية، وترددات عالية وأخرى منخفضة، كما تحدث عن مكبرات ومكثفات الصوت.

غرقت السيدة هارتر في بحر من الكلمات التي لا تفهمها، حتى استسلمت.

تمتمت قائلة: "بالطبع يا تشارلز، إذا كنت تعتقد فعلاً ـــــ ".

قال تشارلز بحماسة: "عمتي العزيزة ماري. إنه أنسب شيء لكِ، لكي تبتعدي عن الاكتئاب والتفكير".

تم تركيب المصعد الذي أوصى به الدكتور مينيل بعد ذلك بفترة قصيرة، ومثل العديد من السيدات العجائز، كانت السيدة هارتر ترفض بقوة وجود رجال غرباء في المنزل. كانت تشك في الجميع كأنهم ينوون سرقة مجوهراتها الثمينة.

بعد تركيب المصعد، وصل المذياع وبدأت السيدة هارتر في تأمل الشيء الذي كان بغيضًا بالنسبة لها ـــــ ذلك الصندوق الذي يبدو غير جذاب بالنسبة لها، والمرصع بأزرار.

احتاج تشارلز إلى أن يستجمع كل حماسته ليصالحها عليه.

كان تشارلز سعيداً لأنه يقوم بشيء يبرع فيه، تشغيل الأزرار، وأخذ يتحدث بلباقة لبعض الوقت.

بينما جلست السيدة هارتر على كرسيها المزود بظهر طويل، في صبر وأدب، ولديها اقتناع راسخ بأن كل الاختراعات الجديدة تلك ليست أكثر أو أقل من أجهزة مؤذية غير تامة الصنع.

"اسمعي عمتي ماري، إننا ندير محطة برلين، أليس هذا رائعاً؟ هل بإمكانك سماع المذيع؟".

قالت السيدة هارتر: "لا أسمع أي شيء سوى قدر كبير من الطنين والطقطقة".

تابع تشارلز ضبط الأزرار، ثم أعلن بحماسة: "بروكسيل".

قالت السيدة هارتر بقدر بسيط من الحماسة: "هل هذا صحيح؟".

فأدار تشارلز الأزرار مرة أخرى حتى صدر تردد صوت يشبه النباح في كل ركن من أركان الغرفة.

قالت السيدة هارتر: "نبدو الآن في منزل الكلاب". كانت سيدة عجوزاً تتمتع بحس فكاهي.

ضحك تشارلز: "ها، ها! ما زلت تتمتعين بحس الفكاهة عمتي ماري ـــــ هذا رائع!".

لم تستطع السيدة هارتر أن تقاوم التبسم في وجهه. كانت مغرمة كثيراً بتشارلز. لفترة ما، كانت ابنة أخيها ـــــ ميريام هارتر ـــــ تعيش معها في المنزل. وكانت تنوي أن تجعلها وريثتها، ولكن ميريام لم تنجح في ذلك. فقد كانت عديمة الصبر، وكان من الواضح أنها تمل مجتمع عمتها الثري. كانت دائماً في الخارج "تتسكع" مثلما كانت السيدة هارتر تقول. وأخيراً، ارتبطت بشاب لم توافق عليه عمتها قط. فعادت ميريام إلى أمها ومعها ملحوظة مقتضبة كأنها بضاعة رُدت لأصحابها بعدما اختبرها المستهلك ووجدها غير مناسبة، ثم تزوجت من هذا الشاب، وأصبحت السيدة هارتر ترسل إليها في المناسبات بعض الهدايا؛ كمناديل مطرزة أو طاولة في رأس العام.

بعدما أصيبت بالإحباط من بنات إخوتها، وجهت السيدة هارتر انتباهها إلى أبناء إخوتها. كان تشارلز منذ البداية مؤهلاً للنجاح. كان دائماً ما يحترم رغبات عمته على نحو يرضيها، وكان يستمع إليها بشكل يعكس اهتماماً شديداً لما تبقى لها من شبابها. وفي هذه الجزئية كان على النقيض تماماً من ميريام، التي أظهرت بصراحة إحساسها بالملل. ولكن تشارلز لم يمل قط، وكان دائماً ما يتمتع بطول بال، كان سعيداً على الدوام. وكان يخبر عمته عدة مرات في اليوم بأنها سيدة عجوز رائعة للغاية.

نظراً لرضاها الشديد عن الشيء الجديد الذي اقتنته، كتبت السيدة هارتر لمحاميها

تعليمات تلزمه بعمل وصية جديدة. وقد أرسل هذه الوصية إليها، فوافقت عليها بعدما وجدتها مرضية تماماً ووقّعت عليها على الفور.

والآن، ورغم مسألة المذياع، أثبت تشارلز بسرعة أنه نجح في كسب رضاها.

فقد رحبت السيدة هارتر ـــــ التي كانت معارضة للفكرة في البداية ـــــ بالمذياع حتى افتتنت به أخيراً. وأصبحت تستمتع به كثيراً بعد خروج تشارلز. مشكلة تشارلز أنه كان لا يستطيع الاستماع له لفترة طويلة. أما السيدة هارتر فكانت تجلس على كرسيها مرتاحة تستمع إلى حفل موسيقي أو محاضرة عن لوكريسيا بورجيا أو حلقات مسلسل بوند لايف، وهي سعيدة وراضية عن العالم. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لتشارلز، فالتناغم القائم بينهما كان يزول من الصراخ المنفر الذي كان يحدث عندما يحاول بحماسة أن يحول التردد إلى محطات أجنبية. ولكن في الأمسيات التي كان تشارلز يتناول العشاء فيها في الخارج مع أصدقائه، كانت السيدة هارتر تستمتع بالمذياع كثيراً. كانت تشغله، وتجلس على كرسيها المزود بظهر طويل وتستمتع بالبرامج في المساء.

بعد حوالي ثلاثة أشهر من تشغيل المذياع حدثت أول واقعة غريبة وغامضة. كان تشارلز في الخارج في حفل يلعب بالورق.

في هذا الحفل، كانت مطربة سوبرانو معروفة تغني "آني لوري"، وفي منتصف الأغنية حدث شيء غريب. حدث عطل مفاجئ، توقفت الموسيقى للحظة، واستمر الطنين وصوت الطقطقة حتى تلاشت هذه الأصوات أيضاً. ثم عم الصمت المكان، حتى صدر صوت طنين ضعيف للغاية.

شعرت السيدة هارتر, ولسبب لم تفهمه, أن هذه الآلة انتقلت لمكان بعيد جداً، ثم صدر صوت واضح وبين، صوت رجل يتحدث بلهجة أيرلندية.

"ماري ـــــ هل تسمعين يا ماري؟ باتريك يتحدث.... سآتيك عما قريب. سوف تكونين مستعدة، أليس كذلك يا ماري؟".

وعلى الفور تقريباً، عادت أغنية "آني لوري" مرة جديدة ودوت في الغرفة. جلست السيدة هارتر على كرسيها، ممسكة ذراعي الكرسي بقوة. هل كانت تحلم؟ باتريك! صوت باتريك! صوت باتريك في هذه الغرفة، يحدثها. لا، قطعاً كان حلماً، لعلها هلاوس. قطعاً نامت للحظة أو اثنتين. من الغريب أن يراودها حلم ـــــ أن صوت زوجها كان يحدثها عبر الأثير. أخافها ذلك قليلاً. ما الكلمات التي قالها؟

"سآتيك عما قريب. سوف تكونين مستعدة، أليس كذلك يا ماري؟".

هل كان، هل من الممكن أن يكون تحذيراً مسبقاً؟ فقلبها ضعيف، وفي النهاية، كانت تتقدم في العمر.

قالت السيدة هارتر، وهي ترفع نفسها ببطء وألم من فوق كرسيها: "إنه تحذير ـــــ هذا كل ما في الأمر"، ثم أردفت على نحو مميز قائلة:

"وكل تلك الأموال التي أنفقت على تركيب المصعد!".

لم تنبس بكلمة عما حدث معها لأي شخص، ولكنها في اليوم أو اليومين التاليين استغرقت في التفكير، وانشغل عقلها.

ثم حدث الأمر للمرة الثانية حيث كانت جالسة وحدها في الغرفة، وكان المذياع مداراً على حفل أوركسترا، وفجأة تلاشى الصوت على النحو المفاجئ نفسه كما حدث من قبل. ومرة أخرى عم الصمت، ثم شعرت ببعد المسافة، حتى سمعت أخيراً صوت باتريك ليس مثلما كان وهو على قيد الحياة ـــــ ولكنها سمعت صوتًا مخلخلاً، بعيداً، كأنه صوت غريب غير آت من الأرض. "باتريك يحدثك يا ماري. سوف آتيك عما قريب الآن..."

ثم صدر طنين، وعاد بث الحفل الأوركسترالي من جديد.

نظرت السيدة هارتر إلى الساعة. لا، لم تكن نائمة هذه المرة. كانت مستيقظة وفي كامل قواها العقلية، سمعت صوت باتريك يتحدث إليها. لم تكن هلاوس، كانت موقنة من ذلك. وبطريقة مضطربة حاولت أن تفكر في كل ما شرحه لها تشارلز عن نظرية أمواج الأثير.

هل من الممكن أن يكون باتريك حقًا هو من تحدث إليها؟ وأن صوته بالفعل أتاها عبر المسافة؟ كانت هناك موجات طولية مفقودة أو شيء من هذا القبيل. تذكرت تشارلز وهو يتحدث عن "فجوات في جهاز الاستقبال". ربما تفسر الأمواج المفقودة تلك الظاهرة النفسية؟ لا، ليس هناك شيء مستحيل بطبيعته في الفكرة. لقد تحدث إليها باتريك. لقد استغل العلم الحديث لكي يُعدّها لما هو آت لا محالة.

قرعت السيدة هارتر الجرس لتستدعي خادمتها إليزابيث.

كانت إليزابيث سيدة طويلة هزيلة في الستين من العمر. كان تخفي وراء مظهرها الخارجي المستقيم بحراً من العطف والحنان لسيدتها.

قالت السيدة هارتر عندما ظهرت خادمتها الوفية: "إليزابيث، هل تذكرين ما قلته لك؟ الدرج العلوي على يدك اليسرى في المكتب. إنه موصد، المفتاح الطويل ذو المقبض الأبيض. كل شيء جاهز هناك".

"جاهز يا سيدتي؟".

قالت السيدة هارتر ممتعضة: "لدفني. تعرفين تمامًا ما أعنيه يا إليزابيث. لقد ساعدتني على وضع هذه الأشياء هناك بنفسك".

بدا وجه إليزابيث غريباً.

قالت منتحبة: "أوه سيدتي، لا تفكري في مثل هذه الأمور. ظننتك أصبحت أفضل حالاً".

قالت السيدة هارتر بشكل عملي: "جميعنا سيرحل عاجلاً أم آجلاً. لقد تجاوزت السبعين يا إليزابيث. هناك، هناك، لا تكوني حمقاء. إذا كنت مضطرة للبكاء، فاذهبي وابكي في مكان آخر".

انسحبت إليزابيث وهي لا تزال تنهنه.

كانت السيدة هارتر تتعامل معها بقدر كبير من العطف والحنان.

قالت: "سيدة عجوز سخيفة، ولكنها مخلصة. مخلصة جداً. هل تركت لها مائة أو خمسين جنيهاً فقط؟ يجب أن أترك لها مائة, لقد كانت معي منذ فترة طويلة".

شغلت هذه المسألة السيدة العجوز، فجلست في اليوم التالي وكتبت إلى محاميها تسأله عما إذا كان من الممكن أن يرسل لها وصيتها حتى تلقي عليها نظرة. في ذلك اليوم، فاجأها تشارلز بشيء قاله على الغداء.

قال لها: "بالمناسبة عمتي ماري، من ذلك الرجل العجوز المضحك صاحب الصورة الموجودة في الغرفة الاحتياطية؟ أقصد الصورة الموضوعة على رف الموقد ـــــ ذلك الرجل العجوز ذو الشارب القصير؟".

نظرت إليه السيدة هارتر بصرامة.

"إنه عمك باتريك في شبابه".

"أوه، أنا آسف عمتي ماري. أنا غاية في الأسف، لم أقصد أن أكون وقحاً".

تقبلت السيدة هارتر الاعتذار بانحناءة موقرة من رأسها.

تابع تشارلز كلامه بشيء من الريبة.

"أتساءل فقط. أترين ـــــ "

توقف رغماً عنه عن الكلام، وقالت السيدة هارتر بحسم:

"حسناً؟ ماذا ستقول؟".

قال تشارلز بسرعة: "لا شيء. أقصد لا شيء مهم".

في تلك اللحظة لم تنبس السيدة العجوز بأي شيء، ولكنها في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما كانا وحدهما، عادت للموضوع نفسه.

"أريدك أن تخبرني يا تشارلز بما كنت ستقوله لي عن صورة عمك".

بدا تشارلز محرجاً.

"قلت لك عمتي ماري، لا شيء مهم، مجرد خيال تراءى لي ـــــ مجرد شيء سخيف".

قالت السيدة هارتر بصوت استبدادي للغاية: "تشارلز، أنا مصرة على أن أعرف".

"حسناً عمتي العزيزة، إذا كنت مصرة، فإنني تخيلت أنني رأيته ـــــ أقصد الرجل الموجود في الصورة ـــــ ينظر من نافذة الغرفة العلوية وأنا أخرج من السيارة الليلة الماضية. أظنه تأثير الإضاءة. تساءلت من عساه يكون، بدا وجهه ـــــ كأنه ينتمي لأوائل العصر الفيكتوري، إذا كنت تفهمين ما أعنيه. ثم قالت إليزابيث إنه ليس هناك أحد، ليس هناك زائر أو غريب في المنزل، وفي وقت لاحق من المساء، دخلت الغرفة الاحتياطية، فوجدت الصورة الموجودة على رف الموقد. الرجل الذي رأيته في الحياة! أمر يسهل تفسيره حقاً كما أظن. مجرد خدعة من العقل الباطن، هذا كل ما في الأمر. قطعاً رأيت الصورة من قبل بدون أن أعرف أنني لاحظتها، ثم تخيلت أنني رأيت الوجه في النافذة".

قالت السيدة هارتر بحسم: "نافذة الغرفة العلوية؟".

"نعم، لماذا؟".

قالت السيدة هارتر: "لا شيء".

ولكنها احتارت كثيراً. كانت هذه الغرفة هي الغرفة التي كان زوجها يرتدي ملابسه فيها.

في الليلة نفسها، وفي غياب تشارلز مرة أخرى، جلست السيدة هارتر تستمع إلى المذياع بنفاد صبر شديد. إذا سمعت ذلك الصوت الغامض للمرة الثالثة، فسوف تقطع الشك باليقين، ولن تبقى في قلبها ذرة شك أنها كانت تتواصل حقاً مع عالم آخر.

رغم تسارع دقات قلبها، لم تندهش عندما تكرر انقطاع البث نفسه، وبعد الفاصل المعتاد من الصمت المميت تحدث الصوت الأيرلندي الضعيف من مسافة بعيدة من جديد:

"ماري ـــــ هل أنت مستعدة الآن... سوف آتيك يوم الجمعة ـــــ الساعة التاسعة والنصف... لا تخافي ـــــ لن يكون هنا ألم.... كوني مستعدة...".

وبعدما خرجت آخر كلمة على نحو مقتضب، عاد صوت الأوركسترا من جديد: صاخباً ومتنافراً.

جلست السيدة هارتر في ثبات للحظة أو اثنتين. شحب لون وجهها، وازرقت شفتاها كأنها تلقت كدمة فيهما.

على الفور، نهضت وجلست على مكتبها. وبخط مرتعش بعض الشيء كتبت السطور

التالية:

الليلة، في تمام الساعة 9:15، سمعت صوت زوجي المتوفى على نحو واضح. قال لي إنه سوف يأتيني ليلة الجمعة في تمام 9:30. إذا توفيت في ذلك اليوم وفي تلك الساعة أريدكم أن تعرفوا هذه الحقيقة لتتأكدوا أنه من الممكن التواصل مع عالم الأرواح.
ماري هارتر

قرأت السيدة هارتر ما كتبته، ثم طوت الورقة ووضعتها في ظرف ثم كتبت عليه عنوانًا، ثم قرعت الجرس فجاءتها إليزابيث على الفور. نهضت السيدة هارتر من فوق مكتبها وأعطت الخطاب للسيدة العجوز.

قالت لها: "إليزابيث، إذا توفيت ليلة الجمعة، أريدك أن تعطي هذا الخطاب إلى الدكتور مينيل. لا". كانت إليزابيث على وشك أن تعترض ـــــ "لا تعارضيني. لقد أخبرتني مرارًا بأنك تؤمنين بالحدس المسبق. أنا أشعر بذلك الآن. هناك أمر آخر. لقد تركت لك في وصيتي 50 جنيهًا، وأريدك أن تحصلي على 100. إذا لم أتمكن من الذهاب إلى البنك بنفسي قبل وفاتي، فسوف يتولى السيد تشارلز هذا الأمر".

كما حدث من قبل، اختصرت السيدة هارتر على إليزابيث البكاء. واستئنافًا لإصرارها، تحدثت السيدة العجوز إلى ابن أخيها عن الأمر في صباح اليوم التالي.

"تذكر يا تشارلز، إذا حدث لي أي شيء، أن تعطي إليزابيث 50 جنيهًا إضافية".

قال تشارلز مبتهجا: "أصبحت كئيبة للغاية هذه الأيام عمتي ماري. ماذا سيحدث لك؟ وفقًا لما قاله الدكتور مينيل، سوف نحتفل بعيد ميلادك المائة خلال عشرين عامًا تقريبًا!".

ابتسمت السيدة هارتر له بحنو بدون أن تجيبه. وبعد لحظة أو اثنتين قالت:

"ماذا ستفعل مساء الجمعة يا تشارلز؟".

بدا تشارلز مندهشًا بعض الشيء.

"في الواقع، وجهت عائلة إوينجز لي الدعوة لأذهب إليهم وألعب الأوراق، ولكن إذا كنت تريدينني أن أبقى في المنزل ـــــ"

قالت السيدة هارتر بإصرار: "لا. أعني بالطبع لا يا تشارلز. في تلك الليلة تحديدًا يجب أن أكون وحدي".

نظر إليها تشارلز باستغراب، ولكن السيدة هارتر لم تفصح عن أية معلومات أخرى. كانت سيدة عجوز تتمتع بالشجاعة والإصرار. شعرت بأنها يجب أن تمضي في تجربتها الغريبة وحدها.

مساء الجمعة، كان المنزل هادئًا للغاية. جلست السيدة هارتر كعادتها على الكرسي المزود بظهر طويل بالقرب من المدفأة. كانت قد اتخذت كل استعداداتها. في ذلك الصباح، ذهبت إلى البنك، وسحبت 50 جنيهًا نقدًا وسلمتها يدًا بيد إلى إليزابيث رغم اعتراضاتها المشوبة بالبكاء. ثم فرزت ورتبت كل مقتنياتها الشخصية وخصصت قطعة أو اثنتين من المجوهرات بأسماء أصدقاء أو أقارب لها. كما كتبت أيضًا قائمة تعليماتها إلى تشارلز. كانت قد أوصت بذهاب طاقم الشاي المصنوع في ووستر إلى ابنة أخيها إيما. وطاقم السكرية إلى ويليام الصغير، وهكذا.

بعد ذلك، نظرت إلى المظروف الطويل الذي كانت تمسكه في يدها، فأخرجت منه مستندًا مطويًا. كانت الوصية التي أرسلها إليها السيد هوبكينز بناءً على تعليماتها. كانت قد قرأتها بالفعل جيدًا، ولكنها الآن ألقت نظرة أخرى عليها لتنعش ذاكرتها. كانت وثيقة قصيرة، ودقيقة. أوصت بإعطاء إليزابيث مارشال 50 جنيهًا إكرامًا لخدمتها المخلصة، كما أوصت بـ 500 جنيه إلى أحد إخوتها وأحد أبناء إخوتها، والباقي إلى ابن أخيها المحبب لقلبها ـــــ تشارلز ريدجواي.

أومأت السيدة هارتر برأسها عدة مرات. سوف يصبح تشارلز رجلاً ثريًا بعد وفاتها. حسنًا، لطالما كان ولدًا طيبًا بالنسبة لها. كان عطوفًا وحنونًا معها على الدوام، وكان يتمتع بحس فكاهة لم يخفق يومًا في إسعادها مطلقًا.

نظرت إلى الساعة. بقيت ثلاث دقائق على التاسعة والنصف. حسنًا كانت مستعدة. هادئة تمامًا. رغم أنها كررت هذه الكلمات على نفسها عدة مرات، كان قلبها يخفق بشكل غريب وغير منتظم. لم تدرك ذلك بنفسها، ولكنها تمالكت نفسها إلى حد كبير رغم إنهاك أعصابها.

في تمام التاسعة والنصف، فتحت المذياع. ترى ماذا ستسمع؟ صوت مألوف يعلن نشرة الطقس أو ذلك الصوت البعيد لرجل توفي منذ خمسة وعشرين عامًا من قبل؟

ولكنها لم تسمع هذا أو ذاك. ولكنها سمعت صوتًا مألوفًا، صوتًا تعرفه جيدًا ولكنه جعلها الليلة تشعر كأن هناك يدًا باردة أمسكت بقلبها. أحست بشيء على الباب...

جاء مرة أخرى. ثم هبت ريح باردة مسحت كل ركن من أركان الغرفة. لم يصبح لدى السيدة هارتر أي شك الآن فيما أحسته. كانت خائفة... كانت أكثر من خائفة ـــــ كانت مرعوبة...

وفجأة خطرت على بالها فكرة: خمسة وعشرون عامًا فترة طويلة، لقد أصبح باتريك غريبًا عني الآن.

رعب! كان هذا هو الإحساس الذي ملأ قلبها.

سمعت وقع أقدام خفيفًا خارج الباب ـــــ وقع أقدام خفيفًا متسللاً. ثم انفتح الباب في صمت...

وقفت السيدة هارتر على قدميها، وترنحت قليلاً من جانب لآخر، مثبتة عينيها على الباب، انزلق شيء من بين أصابعها وسقط في نار المدفأة.

خرجت منها صرخة مخنوقة ماتت في حلقها. وفي ضوء الباب الخافت وقف شخص مألوف، ذو ذقن وشارب كستنائي اللون ، وكان يرتدي معطفًا قديم الطراز يعود إلى العصر الفيكتوري.

لقد جاء باتريك من أجلها!

قفز قلبها من مكانه من شدة الفزع ثم توقف عن النبض، فسقطت مكومة على الأرض.

II

في ذلك المكان، عثرت عليها إليزابيث بعد ساعة.

تم الاتصال بالدكتور مينيل على الفور، وتم استدعاء تشارلز ريدجواي على وجه السرعة من حفل لعب الورق. ولكن لم يكن بالإمكان عمل أي شيء. لم تعد السيدة هارتر بحاجة لمساعدة بشر.

بعد يومين من ذلك تذكرت إليزابيث الورقة التي كانت سيدتها قد أعطتها إياها. قرأها الدكتور مينيل باهتمام كبير ثم أعطاها إلى تشارلز ريدجواي.

قال له: "مصادفة غريبة جدًا. يبدو واضحًا أن عمتك كانت تعاني هلاوس جعلتها تتصور أنها تسمع صوت زوجها المرحوم. قطعًا خنقت نفسها لحد الانفعال القاتل، وعندما حان أجلها، ماتت من الصدمة".

قال تشارلز متسائلاً: "إيحاء ذاتي؟".

"شيء من هذا القبيل. سوف أسمح لك بالاطلاع على نتيجة تشريح الجثة في أسرع وقت ممكن، إلا أنني لا أشك في ذلك. ففي مثل هذه الظروف يوصى بتشريح الجثة، رغم أنه إجراء شكلي صرف".

أومأ تشارلز برأسه في تفهم.

في الليلة التالية، بعدما نام كل سكان البيت، أزال تشارلز سلكًا معينًا كان متصلاً بدولاب المذياع من الخلف ومنه إلى غرفة نومه في الطابق العلوي. ونظرًا لبرودة الليلة، طلب من إليزابيث أن تشعل المدفأة في غرفته، فألقى في تلك النار لحية وشاربًا كستنائي اللون. ثم وضع ملابس تعود للعصر الفيكتوري كانت لعمه المرحوم في الدولاب الموجود في الغرفة العلوية.

على حد علمه، ظن أنه في أمان تام الآن، فتصوره للحظة التي خطرت على باله عندما أخبره الدكتور مينيل بأن عمته قد تعيش سنوات عديدة في حالة توجيه العناية الكافية لها؛ نجح إلى حد يثير الإعجاب. لقد أعلن الدكتور مينيل أنها توفيت جراء صدمة مفاجئة. فابتسم تشارلز، ذلك الشاب العطوف، الذي كانت السيدات المسنات يحببنه، لنفسه.

عندما غادر الطبيب، ذهب تشارلز لإتمام مهامه بدون تفكير. فعليه تسوية بعض ترتيبات الجنازة. كما أنه يجب أن يتولى مسألة الأقارب القادمين من مسافة بعيدة وتحديد مواعيد القطارات لهم. وبالنسبة لحالة أو اثنتين قد يضطرهم الأمر لمكوث ليلة. رتب تشارلز كل ذلك بكفاءة ومنهجية، هذا إلى جانب الأفكار التي كانت تدور في خلده في الوقت نفسه.

تخطيط غاية في البراعة! كان هذا هو كل ما يشغله. لم يعرف أي إنسان ـــــ ولا حتى عمته المتوفاة ـــــ صفات تشارلز الخطيرة، فأنشطته التي أخفاها بعناية عن العالم، وضعته بعيداً عن شبح السجن الذي يلوح في الأفق.

كانت الفضيحة والخراب يلوحان أمامه إن لم يفعل شيئًا خلال أشهر قليلة ويجمع مبلغًا كبيراً من المال. حسنًا، أصبح كل شيء على ما يرام الآن. ابتسم تشارلز لنفسه. الفضل يعود إلى ـــــ نعم ـــــ سمها دعابة عملية ـــــ لا شيء إجرامي فيها، فهو في أمان. لقد أصبح رجلاً ثريًا للغاية الآن. لم تعد لديه مخاوف في هذا الموضوع، لأن السيدة هارتر لم تخفِ شيئًا مما انتوته.

بينما كان يفكر في كل هذه الأفكار برضا تام، أطلت إليزابيث برأسها وأخبرته بأن السيد هوبكينز حضر لمقابلته وأنه يرغب في مقابلته.

قال تشارلز في نفسه إنه تأخر قليلاً. كتم رغبته في إعلان فرحته، ورسم على وجهه رباطة جأش ثم اتجه إلى المكتب. وهناك حيا الرجل العجوز الذي ظل المستشار القانوني للسيدة هارتر لأكثر من ربع قرن.

جلس المحامي بعدما دعاه تشارلز لذلك، وبسعال جاف بدأ في الحديث في صلب الموضوع.

"لم أفهم خطابك الذي أرسلته لي يا سيد ريدجواي. تبدو كأنك تعتقد أن وصية المتوفاة السيدة هارتر في حوزتي؟".

حدق تشارلز إليه.

"طبعًا ـــــ لقد سمعت عمتي تقول ذلك كثيراً".

"أوه! كثيراً جداً، جداً. كانت في حوزتي".

"كانت؟".

"هذا ما قلت. لقد كتبت السيدة هارتر لي تطلب مني أن أرسلها إليها يوم الثلاثاء الماضي".

تسلسل شعور بالقلق إلى قلب تشارلز. انتابه إحساس بعدم الرضا.

تابع المحامي كلامه قائلاً: "قطعاً ستخرج إلى النور من بين أوراقها".

لم ينبس تشارلز ببنت شفة. كان يخشى أن يفضحه لسانه. كان قد تفحص أوراق السيدة هارتر بعناية بالغة بالفعل، لدرجة تجعله واثقًا بأنه لم يعثر على الوصية بينها. وخلال دقيقة أو اثنتين، عندما استعاد سيطرته على نفسه، شعر بماء بارد ينساب على ظهره.

سأل المحامي: "هل هناك شخص فتش في أغراضها الشخصية؟".

أجابه تشارلز أن خادمتها الخاصة إليزابيث فعلت. وبناءً على اقتراح السيد هوبكينز، تم استدعاء إليزابيث. فجاءت على الفور، وهي عابسة وحزينة، وأجابت عن الأسئلة التي وجهت إليها.

كانت قد فتشت كل ملابس سيدتها وأغراضها الشخصية، فأخبرتهما بأنها واثقة تمامًا من عدم وجود أي مستند قانوني كوصية بينها، فهي تعرف شكل الوصية، لأن سيدتها كانت تمسكها في يدها صباح يوم وفاتها.

سأل المحامي بحدة: "هل أنت واثقة من ذلك؟".

"نعم يا سيدي. لقد أخبرتني بذلك، كما أنها أعطتني خمسين جنيهًا عدًا ونقدًا. كانت الوصية في مظروف أزرق طويل".

قال السيد هوبكنسون: "هذا صحيح".

تابعت إليزابيث كلامها قائلة: "فهمت الآن، هذا المظروف الأزرق كان موضوعًا على هذه الطاولة في الصباح التالي لوفاتها ـــــ ولكنه كان فارغًا. لقد وضعته على المكتب".

قال تشارلز: "أذكر أنني رأيته هناك".

نهض من مكانه متجهًا ناحية المكتب. خلال دقيقة أو اثنتين عاد من الغرفة ومعه مظروف في يده سلمه إلى السيد هوبكينز، فتفحصه المحامي بيده وأومأ برأسه.

"هذا هو المظروف الذي أرسلت إليها الوصية فيه يوم الثلاثاء الماضي".

نظر الرجلان إلى إليزبيث بصرامة.

سألتهما باحترام: "هل هناك شيء آخر يا سيدي؟".

"لا شيء الوقت الراهن، شكرًا".

اتجهت إليزابيث ناحية الباب.

قال المحامي: "لحظة، هل كانت المدفأة مشتعلة في تلك الليلة؟".

"نعم يا سيدي، فدائماً ما تكون مشتعلة".

"شكراً لك، يمكنك الانصراف".

خرجت إليزابيث من الغرفة. مال تشارلز للأمام، ووضع يده المهتزة على الطاولة.

"ما رأيك؟ ما الذي تحاول معرفته؟".

هز السيد هوبكينز رأسه نافياً.

"يجب أن نأمل أن تظهر الوصية عما قريب. فإن لم يحدث ـــــ"

"حسنًا، إن لم يحدث؟".

"أخشى ألا يكون هناك سوى استنتاج واحد، وهو أن تكون عمتك أرسلت بطلبها لكي تتخلص منها. ولحرصها ألا تخسر إليزابيث نصيبها منها، أعطتها إرثها عداً ونقداً".

صاح تشارلز بوحشية: "ولكن لماذا؟ لماذا؟".

سعل السيد هوبكينز، سعالاً جافًا.

تمتم قائلاً: "لم يكن بينك ـــــ إررر ـــــ وبين عمتك خلاف يا سيد ريدجواي؟".

تنهد تشارلز.

قال بدفء: "لا، أبداً. كنا غاية في التفاهم، وكانت علاقتنا طيبة جداً حتى النهاية".

قال السيد هوبكينز بدون أن ينظر إليه: "أها!"

صدم تشارلز عندما استشعر أن المحامي لم يصدقه. من يدري ما سمعه هذا العجوز الماكر؟ فالشائعات المتعلقة بما يفعله تشارلز ربما وردت إليه. لعل هذه الشائعات وصلت أيضاً لمسمع السيدة هارتر، الأمر الذي أدى لنشوب شجار بين العمة وابن أخيها؟

ولكن الأمر لم يكن كذلك! لقد مر تشارلز بأبشع لحظات حياته العملية. وكانت أكاذيبه تلقى من يصدقها. والآن، عندما يقول الحقيقة، لا يتم تصديقه. كم هذا مثير للسخرية!

طبعاً لم تحرق عمته الوصية! بالطبع....

وفجأة خطرت على باله فكرة. ما الصورة التي أثارتها هذه الفكرة في ذهنه؟ سيدة عجوز تضع إحدى يديها على قلبها... وشيء ينزلق من يدها... ورقة... تسقط في ألسنة النار المشتعلة...

ازرقّ وجه تشارلز للغاية. وسمع صوتًا أجش ـــــ يسأل:

"إن لم يتم العثور على تلك الوصية أبدًاـــــــــ؟"

"هناك وصية سابقة للسيدة هارتر لا تزال باقية، بتاريخ سبتمبر 1920. في هذه الوصية تترك السيدة هارتر كل شيء لابنة أخيها ميريام هارتر، التي تزوجت الآن من السيد روبنسون".

ما الذي كانت السيدة العجوز توصي به؟ ميريام؟ ميريام وزوجها، وأطفالها الأربعة المزعجين. كل هذا الدهاء ـــــ ويئول الإرث لـ ميريام!

رن جرس الهاتف فانتفض من مكانه. رفع السماعة، وسمع صوت الطبيب، متحمسًا وعطوفًا.

"هذا أنت يا سيد ريدجواي؟ ظننتك تحب أن تعرف. ظهر تقرير تشريح الجثة. كان السبب كما توقعت. ولكن في الواقع كانت صحة عمتك أخطر بكثير مما توقعت عندما كانت على قيد الحياة. فحتى لو أوليت لها أكبر قدر من العناية، لم تكن لتعيش أكثر من شهرين على الأكثر. ظننتك ستفرح بهذا الخبر، لأنه قد يواسيك في أحزانك".

قال تشارلز: "اعذرني، هلا كررت ما قلت!".

قال الطبيب بصوت أعلى قليلاً: "لم تكن لتعيش أكثر من شهرين. ولكن الله شملها برحمته ـــــ "

وضع تشارلز السماعة في وجه المتحدث. كان واعيًا لصوت المحامي الصادر من مكان بعيد.

"عزيزي السيد ريدجواي، هل أنت مريض؟".

تبًا لكم جميعًا! المحامي المتفاخر بنفسه، الطبيب العجوز الغبي المدعو مينيل. ليس لدي أمل فيهم ـــــ فقط شبح جدران السجن...

شعر بأن هناك من يلعب به، يلعب به مثلما تلعب القطة بالفأر. قطعًا هناك من يضحك عليه...

شاهد الإثبات

I

ضبط السيد ميهيرن نظارته الأنفية وتنحنح ليتخلص من مخاط جاف عالق في حلقة كعادته دومًا. ثم نظر مرة أخرى إلى الرجل الواقف أمامه، الرجل المتهم بالقتل العمد.

كان السيد ميهيرن رجلاً ضئيل البنية شديد التمسك بالعادات، ومهندمًا على الدوام بدون إسراف أو مغالاة، وكانت عيناه الرماديتان ماكرتين وثاقبتين للغاية. لم يكن من الممكن وصفه بأية حال من الأحوال بالأحمق. وقد كان اسمه كمحام كبيرًا للغاية. وعندما كان يتحدث مع موكله، كان يتحدث بصوت جاف يخلو من أية عاطفة.

"يجب أن أؤكد لك مرة أخرى أن موقفك خطير للغاية، وأنك يجب أن تكون صريحًا معي لأقصى درجة".

حول ليونارد فول ـــــ الذي كان يحدق إلى الحائط المقابل له في ذهول ـــــ بصره إلى المحامي.

قال بنبرة يائسة: "أعرف ذلك. لقد أخبرتني بذلك مرارًا. ولكنني لم أدرك بعد أنني متهم في جريمة قتل ـــــ قتل. ومثل هذه الجريمة الخسيسة أيضًا".

كان السيد ميهيرن عمليًا وغير عاطفي. سعل مرة أخرى، وأزال نظارته الأنفية، ولمعها بعناية، ثم وضعها على أنفه مرة أخرى. ثم قال لموكله:

"نعم، نعم، نعم. والآن عزيزي السيد فول، سوف نحاول بكل جهدنا أن نبرئك من هذا الاتهام ـــــ وسوف ننجح في ذلك ـــــ سوف ننجح. ولكنني يجب أن ألمّ بكل الحقائق. يجب أن أعرف لأي مدى قد تنقلب القضية ضدك. عندئذ سوف نتمكن من تقديم أفضل دفاع ممكن".

ظل الشاب ينظر إليه بنظرة الذهول واليأس نفسها. كانت القضية بالنسبة للسيد ميهيرن قاتمة للغاية، وكانت تهمة السجين ثابتة ضده. ولكن الآن، للمرة الأولى، انتابه الشك.

قال ليونارد فول بصوت منخفض: "تظنني مذنبًا. ولكنني أقسم بالله أنني بريء! أعرف أن كل الأدلة ضدي، أعرف ذلك. لقد وقعت في شبكة ـــــ نسجت كل خيوطها حولي، وكلما حاولت الهرب أتورط فيها أكثر. ولكنني لم أفعل ذلك سيد ميهيرن، لم

أفعل ذلك!".

في مثل هذه الحالة، كان المحامي مضطراً للمطالبة ببراءته، كان السيد ميهيرن يعرف ذلك. ولكنه كان مذهولاً رغماً عنه، فقد يكون ليونارد فول بريئًا رغم كل الأدلة.

قال بجدية: "أنت محق يا سيد فول، فالقضية محبوكة ضدك بعناية. ولكنني رغم ذلك مطمئن لقولك. والآن، دعنا نجمع الحقائق. أريد أن أسمع منك بالضبط كيف تعرفت على السيدة إميلي فرنش".

"حدث ذلك في أحد الأيام في شارع أكسفورد. رأيت سيدة مسنة تعبر الشارع. وكانت تحمل الكثير من الحقائب التي أسقطت إحداها في منتصف الشارع، فحاولت أن تلتقطها، ولكنها وجدت نفسها قريبة للغاية من حافلة فنجحت في الوصول إلى الرصيف في أمان، وهي مذهولة من صراخ الناس. فأحضرت لها الحقائب، وأزلت الطين عنها قدر استطاعتي، وأعدت ربط إحداها، ثم أعدتها إليها".

"إذن أنقذت حياتها؟".

"أوه! يا إلهي! لا. كل ما فعلته أنني تصرفت بلباقة عادية. ولكنها شعرت بامتنان شديد لي، وشكرتني بحرارة، وذكرت شيئًا عن أخلاقي التي تختلف عن أخلاق باقي أبناء جيلي ـــــ لا أذكر بالضبط ما قالته. ثم رفعت قبعتي ومضيت في طريقي. ولم أتوقع رؤيتها مرة أخرى أبداً. ولكن الحياة مليئة بالمصادفات. في ذلك المساء قابلتها مصادفة في حفل أقيم في منزل أحد أصدقائي. فعرفتني على الفور وطلبت تقديمي لها. عندئذ عرفت أنها الآنسة إميلي فرنش، وأنها تعيش في كريكلوود. تحدثت إليها لبعض الوقت. تصورت أنها سيدة عجوز تغرم بالناس بسرعة. وقد أغرمت بي لمجرد تصرف بسيط كان من الممكن أن يقوم به أي شخص آخر. وقبل مغادرتها، صافحتني باليد بحرارة، وطلبت مني أن أذهب لرؤيتها. فأجبتها أن هذا من دواعي سروري، فطلبت مني أن أحدد يومًا. لم أرد الذهاب فعلاً، ولكنني شعرت بأنه من الوقاحة أن أرفض، فحددت معها يوم السبت التالي. وبعدما غادرت الحفل، عرفت بعض الأمور عنها من أصدقائي. عرفت أنها ثرية، وغريبة الأطوار، وأنها تعيش وحدها مع خادمة واحدة، ولديها ما لا يقل عن ثماني قطط".

قال السيد ميهيرن: "فهمت، عرفت أنها ميسورة الحال في وقت مبكر".

بدأ ليونارد فول في الكلام بغضب قائلاً: "إذا كنت تعني أنني تحريت ـــــ"، فقاطعه السيد ميهيرن بإيماءة.

"يجب أن أنظر إلى القضية كما سينظر إليها الجانب الآخر. فأي شخص عادي لن يفترض أن الآنسة فرنش سيدة ميسورة الحال، فقد عاشت حياة فقيرة، متواضعة للغاية. وإن لم يتم إخبارك بالعكس، كنت ستتوقع أغلب الظن أن ظروفها سيئة، الأمر الذي

كان واضحًا عليها. من الذي أخبرك تحديدًا بأنها سيدة ثرية؟".

"صديقي جورج هارفي الذي أقيم الحفل في منزله".

"هل تعتقد أنه يذكر أنه قال ذلك؟".

"لا أعرف حقيقة. طبعًا مضى وقت على ذلك".

"حسنًا يا سيد فول. الهدف الأول للنيابة هو أن تثبت أنك كنت في حالة مالية سيئة ـــــ هذا صحيح، أليس كذلك؟".

احمر وجه ليونارد فول.

قال بصوت منخفض: "بلى. كانت ظروفي المالية سيئة للغاية في تلك الفترة".

قال السيد ميهيرن مرة أخرى: "حسنًا. كنت تمر بظروف مالية سيئة، ثم التقيت سيدة عجوز ثرية، ووطدت علاقتك بها بهذه السرعة. لو كنا في موضع لنقول إنه لم تكن لديك فكرة أنها كانت ثرية، وأنك زرتها من باب العطف ليس إلا ـــــ "

"كان الأمر كذلك فعلاً".

"أنا لا أجادلك في ذلك. أنا أنظر للأمر من وجهة نظر شخص خارجي. يتوقف جزء كبير على ذاكرة السيد هارفي. هل من المحتمل أن يذكر الحوار الذي دار بينكما أم لا؟ هل من الممكن أن يضطرب أمام المستشارين ويعتقد أن هذا حدث في وقت لاحق؟".

فكر ليونارد فول قليلاً، ثم تحدث بثبات جأش كبير رغم شحوب وجهه قليلاً: "لا أظن أن هذا الدفاع سينجح يا سيد ميهيرن. لقد سمع عدد كبير من الحضور كلامه، وتحدث واحد أو اثنان عن خطتي في الاستحواذ على سيدة عجوز ثرية".

حاول المحامي أن يخفي إحباطه بإشاحة يده.

قال: "هذا من سوء حظنا. ولكنني أهنئك على كلامك الصريح يا سيد فول؛ فأنت من يوجهني لحل القضية. حكمك صحيح تمامًا. وإصراري على التمسك بالدفاع الذي قدمته كان سيؤدي لكارثة. يجب أن نترك هذه النقطة. تعرفت على الآنسة فرنش، وزرتها وتوطدت معرفتك بها. نريد سببًا واضحًا لكل ذلك. لماذا يخصص شاب في الثالثة والثلاثين من عمره ـــــ وسيم، مغرم بالرياضة، له شعبية بين أصدقائه ـــــ كل هذا الوقت لسيدة مسنة من الصعب أن يكون بينهما شيء مشترك؟".

أشاح ليونارد فول بيده في الهواء بطريقة تعكس التوتر.

"لا أعرف تحديدًا ـــــ لا أستطيع أن أخبرك حقًا. بعد زيارتي الأولي، ضغطت عليّ لآتي مرة أخرى لزيارتها، وتحدثت أنها وحيدة وتعيسة. كان من الصعب أن أرفض. فقد

أظهرت حبها وولعها بي بصراحة كبيرة، الأمر الذي وضعني في موقف صعب. هل فهمت يا سيد ميهيرن، أنا ضعيف بطبيعتي، لقد اضطررت لذلك، فأنا من الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يقولوا "لا". صدقني أو لا ؛ لك مطلق الحرية، ولكن بعد الزيارة الثالثة أو الرابعة شعرت بأنني مغرم بهذه السيدة العجوز. فقد توفيت والدتي وأنا صغير، وربتني إحدى عماتي، التي توفيت أيضاً قبل أن أبلغ الخامسة عشرة. فلو قلت لك إنني استمتعت حقاً بإحساس الأمومة والتدليل، أعرف أنك ستضحك مني".

لم يضحك السيد ميهيرن، وإنما رفع نظارته الأنفية مرة أخرى ولمعها، الأمر الذي كان يشير دوماً لتفكير عميق.

قال أخيراً: "أقبل تفسيرك يا سيد فول. أؤمن بأنه صحيح من الناحية النفسية تماماً. أما قبول القاضي بوجهة النظر فتلك مسألة أخرى. من فضلك واصل كلامك. متى طلبت منك الآنسة فرنش أن تعتني بشئونها المالية للمرة الأولى؟".

"بعد زيارتي الثالثة أو الرابعة لها. كانت لا تفهم الكثير عن الأمور المالية. وكانت قلقة بشأن بعض الاستثمارات".

نظر السيد ميهيرن لأعلى بجدية.

"انتبه سيد فول. لقد ذكرت الخادمة جانيت ماكينزي أن سيدتها كانت سيدة أعمال جيدة، وأنها هي التي عقدت كل الصفقات الخاصة بأعمالها، الأمر الذي أكدته أيضاً شهادة المسئول عن أموالها".

قال فول بجدية: "لا أعرف. هذا ما قالته لي".

نظر إليه السيد ميهيرن للحظة أو اثنتين في صمت. رغم أنه لم ينوِ أن يقول ذلك، فإن إيمانه ببراءة ليونارد فول ترسخ في تلك اللحظة. كان يعرف شيئاً عن عقلية السيدات المسنات. لقد رأى أن الآنسة فرنش أغرمت بشاب وسيم، وبحثت عن أسباب تجعله يأتي إلى منزلها. فأي حجة أقوى من تظاهرها بالجهل في إدارة أعمالها، والتوسل إليه لكي يساعدها على إدارة شئونها المالية؟ إنها سيدة فهمت العالم وأدركت أن أي رجل سيشعر بالإطراء عندما تعترف له بجهلها وخبرته التي تفوق خبرتها. وقد شعر ليونارد فول بهذا الإطراء. لعل هذه السيدة أيضاً كانت تريد من هذا الشاب أن يعرف أنها ثرية. كانت إميلي فرنش سيدة تتمتع بإرادة قوية، ومستعدة لأن تدفع ثمن ما تريد. كل هذه الأفكار دارت في ذهن السيد ميهيرن بسرعة، ولكنه لم يفصح عنها، وإنما طرح على السيد فول سؤالاً آخر:

"وأدرت لها شئونها المالية بناءً على طلبها؟".

"نعم".

قال المحامي: "سيد فول، سوف أسألك سؤالاً جاداً للغاية، سؤالاً يجب أن تجيب عنه

بمنتهى الصراحة. كنت في ظروف مالية متعسرة. وكان بإمكانك إدارة شئون سيدة عجوز؛ سيدة لا تعرف أي شيء عن إدارة أعمالها أو لا تعرف سوى القدر القليل كما قالت لك. هل قمت في أي وقت، أو بأية طريقة، بتشغيل الأمور المالية التي سلمتك إياها لحسابك الخاص؟ هل دخلت في أية صفقة لحسابك الخاص لن ينفضح أمرها في يوم ما؟". لم يستعجل إجابة الآخر قائلاً: "انتظر لحظة قبل أن تجيب. أمامنا طريقان: أن نستفيد من أمانتك واستقامتك في إدارة شئونها المالية، ونشير في الوقت نفسه إلى أنه من غير المحتمل أن ترتكب جريمة قتل لتحصل على أموالها التي كان من الممكن أن تحصل عليها بطريقة أسهل كثيراً. على الصعيد الآخر، إذا كان هناك أي شيء في تعاملاتك المالية يمكن للنيابة أن تمسكه عليك ـــــ بمنتهى الصراحة؛ إذا تسنى لها أن تثبت أنك نصبت على السيدة العجوز بأية طريقة، فعلينا أن نقطع الطريق الآخر ونحاول إثبات أنه لم يكن لديك دافع للقتل، لأنها كانت بالفعل مصدر دخل مربحاً لك. هل تفهم الفارق؟ والآن أرجوك خذ وقتك قبل أن تجيب؟".

ولكن ليونارد لم يأخذ أي وقت حتى يرد عليه.

"كانت إدارتي لأموال الآنسة فرنش نزيهة تماماً وفوق الشبهات. لقد عملت على إدارة مصالحها بأفضل شكل ممكن وعلى قدر استطاعتي، مثلما سيعرف أي شخص يفتش في ذلك".

قال السيد ميهيرن: "شكراً لك. لقد أرحت بالي كثيراً. اسمح لي بأن أشكرك وأقول لك إنك أذكى من أن تكذب عليّ في مثل هذه النقطة المهمة".

قال فول بجدية: "طبعاً، أقوى نقطة في صالحي هي عدم وجود دافع لدي لقتلها. فعلى فرض أنني وطدت علاقتي بسيدة ثرية مسنة أملاً في استنزاف المال منها ـــــ وأظنك كنت تعني ذلك ـــــ طبعاً سوف تحطم وفاتها كل آمالي؟".

نظر إليه المحامي نظرة ثاقبة، ثم كرر إزالة نظارته الأنفية عن عمد. ولم ينبس ببنت شفة حتى وضعها على أنفه مرة أخرى.

"ألا تعرف يا سيد فول أن الآنسة فرنش تركت وصية تجعلك المنتفع الأساسي من وفاتها؟".

هب السجين واقفاً على قدميه وهو يقول: "ماذا؟" كانت المفاجأة واضحة عليه للغاية وغير مفتعلة. "يا إلهي! ماذا تقول؟ تركت أموالها لي؟".

أومأ السيد ميهيرن برأسه. فجلس فول في مكانه مرة أخرى واضعاً رأسه بين يديه.

"هل تتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً عن هذه الوصية؟".

"أتظاهر؟ أنا لا أتظاهر أبداً، أنا بالفعل لا أعرف شيئاً عن ذلك".

"ماذا ستقول إذا أخبرتك بأن الخادمة جانيت ماكينزي، أقسمت أنك تعرف بذلك؟

وأن سيدتها أخبرتها بوضوح بأنها استشارتك في الأمر، وأخبرتك بنيتها؟".

"أقول؟ إنها تكذب! لا، بل سأقول أكثر. جانيت سيدة مسنة، وفيّة لسيدتها، ولم تكن تحبني. كانت تغار مني وتشك فيّ. أقول إن الآنسة فرنش أطلعت جانيت على نيتها، وإن جانيت أساءت فهم شيء قالته لها، أو إنها كانت مقتنعة بأنني أقنعت السيدة العجوز بالقيام بذلك. أظنها الآن تصدق فعلاً أن الآنسة فرنش أخبرتها بذلك فعلاً".

"ألا تعتقد أنها كانت تكرهك كثيراً للحد الذي دفعها لتعمد الكذب في هذا الموضوع؟".

بدا ليونارد فول مصدوماً ومذهولاً.

"لا أعتقد ذلك! ولماذا تكرهني؟".

قال السيد ميهيرن بتأمل: "لا أعرف، ولكنها تكرهك كثيراً".

تأوه الشاب البائس مرة أخرى.

تمتم قائلاً: "بدأت أفهم، هذا مخيف. سوف يظنون أنني كنت أتملقها، وأنني دفعتها لكتابة وصية تترك أموالها لي، ثم ذهبت إليها في تلك الليلة، ولم يكن هناك أحد في المنزل ـــــ وجدوها مقتولة في اليوم التالي ـــــ أوه! يا إلهي! هذا مروع!".

قال السيد ميهيرن: "أنت مخطئ بشأن عدم وجود أحد في المنزل. جانيت كما تعلم، كانت تخرج في المساء. وخرجت بالفعل، ولكن في حوالي التاسعة والنصف عادت لتبحث عن أكمام بلوزة كانت تصنعها لصديقة لها. دخلت من الباب الخلفي، وصعدت السلم وبحثت عنها، ثم خرجت مرة أخرى. ولكنها سمعت صوتًا في غرفة الجلوس، ورغم أنها لم تميز ما قيل، كانت موقنة بأنها سمعت صوت الآنسة فرنش تتحدث مع رجل".

قال ليونارد فول: "في التاسعة والنصف. في التاسعة والنصف..." هب واقفًا على قدميه. "لقد نجوت، نجوت ـــــــ "

صاح السيد ميهيرن مذهولاً: "ماذا تعني بنجوت؟".

"في تمام التاسعة والنصف كنت في المنزل مرة أخرى! ويمكن لزوجتي أن تؤكد ذلك. لقد تركت الآنسة فرنش في التاسعة إلا خمس دقائق. ووصلت إلى منزلي في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة. كانت زوجتي هناك تنتظرني. أوه! حمداً لله ـــــ حمداً لله! الفضل يعود إلى الأكمام التي عادت جانيت ماكينزي لتحضرها".

وسط حماسته، لم يلحظ الشاب المسكين أن التعبير الجاد الذي بدا على وجه المحامي لم يتغير. ولكن كلمات الثاني أعادته إلى الحياة مرة أخرى.

"من إذن في رأيك قتل الآنسة فرنش؟".

"لماذا؟ لص بالطبع، كما قيل في البداية. تذكر أن النافذة كانت مكسورة. لقد قتلت باستخدام عتلة قوية وجدت ملقاة على الأرض بجانب الجثة. وبعد تفتيش المنزل، ثبت غياب أشياء كثيرة من المنزل. ولكن بسبب شكوك جانيت السخيفة وكرهها إياي، انحرفت التحقيقات عن مسارها الصحيح لحل القضية".

قال المحامي: "هذا لن يفي بالغرض يا سيد فول. الأشياء التي كانت مفقودة كانت مجرد أشياء بسيطة لا قيمة لها، أخذت للتضليل. والعلامات التي كانت موجودة على النافذة لم تكن حاسمة. ثم اعقلها. قلت إنك لم تكن في المنزل في التاسعة والنصف. فمن إذن الرجل الذي سمعته جانيت يتحدث إلى الآنسة فرنش في غرفة الجلوس؟ من المستحيل أن تتحدث بود مع لص؟".

قال فول: "لا، لا ـــــ" بدا حائراً مثبط العزيمة. ثم قال بعدما ارتفعت روحه المعنوية قليلاً: "ولكن على أية حال، لقد خرجت منها. لدي شاهد نفي. يجب أن ترى روماني ـــــ زوجتي ـــــ على الفور".

قال المحامي موافقًا: "بالطبع، كنت سأرى السيدة فول لولا غيابها عندما تم القبض عليك. اتصلت بإسكتلندا على الفور، وفهمت أنها سوف تعود الليلة. سوف أتصل بها على الفور".

أومأ فول برأسه، بعدما بدا على وجهه شعور كبير بالارتياح.

"نعم، روماني سوف تخبرك. الحمد لله! هذا من حسن حظي".

"اسمح لي سيد فول، ولكنك تحب زوجتك جداً؟".

"طبعًا".

"وهل هي تحبك؟".

"روماني مخلصة لي. سوف تفعل أي شيء في العالم من أجلي".

تحدث بحماسة، ولكن قلب المحامي فتر قليلاً. "شهادة زوجة مخلصة ـــــ هل ستلقى التصديق؟".

"هل هناك شخص آخر رآك وأنت تعود إلى منزلك في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة؟ خادمة على سبيل المثال؟".

"ليس لدينا خدم".

"هل قابلت أي شخص آخر في الطريق في أثناء عودتك للمنزل؟".

"لم أقابل أحداً أعرفه. لقد ركبت حافلة في أثناء عودتي. ربما يتذكرني المحصل".

هز السيد ميهيرن رأسه متشككًا في ذلك.

"إذن ليس هناك من بإمكانه تأكيد شهادة زوجتك؟".

"لا. ولكن هذا ليس ضروريًا بالطبع؟".

قال السيد ميهيرن بسرعة: "لا أستطيع أن أجزم بذلك، لا أستطيع أن أجزم بذلك. والآن هناك شيء آخر صغير. هل كانت الآنسة فرنش تعرف أنك رجل متزوج؟".

"أوه، نعم".

"ولكنك لم تصطحب زوجتك لرؤيتها ولا مرة. لماذا؟".

للمرة الأولى جاءت إجابة ليونارد فول ضعيفة وغير قاطعة.

"حسنًا ـــــ لا أعرف".

"هل تعرف أن جانيت ماكينزي قالت إن سيدتك كانت تظنك رجلاً أعزب، وكانت تفكر في الزواج منك في المستقبل؟".

ضحك فول.

"هذا سخيف! إنها تكبرني بأربعين سنة".

قال المحامي بطريقة جافة: "لقد حدث ذلك من قبل، ويظل الاحتمال قائمًا. لم تلتقِ زوجتك بالآنسة فرنش مطلقًا؟".

قال بطريقة مرتبكة: "لا ـــــ ".

قال المحامي: "اسمح لي بأن أقول إنني لا أفهم السبب في ذلك".

احمر وجه فول وتردد ثم تحدث قائلاً:

"سوف أكون صريحًا معك. كنت في حالة فقر، كما تعرف. وكنت آمل أن تقرضني الآنسة فرنش بعض المال. كانت مغرمة بي، ولكنها لم تكن مهتمة إطلاقًا بخلافات زوجين صغيرين. في وقت مبكر، اكتشفت أنها كانت موقنة أنني لن أستمر مع زوجتي ـــــ وأننا كنا ننوي الطلاق. سيد ميهيرن؛ لقد أردت المال، من أجل زوجتي. لم أوضح لها ذلك، وتركت السيدة العجوز تؤمن بما تشاء. قالت لي إنها سوف تتبناني. لم يكن هناك حديث عن زواج؛ قطعًا هذه الفكرة من نسج خيال جانيت".

"وهذا كل شيء؟".

"نعم، هذا كل شيء".

هل هناك شيء من التردد في كلماته؟ هذا ما تصوره المحامي. وقف أمام موكله مادًا يده له ليصافحه.

نظر إلى وجه الشاب المتعب وقال له: "الوداع يا سيد فول"، قالها بنبرة غريبة. "أنا أؤمن ببراءتك رغم أن غالبية الحقائق تدينك. آمل إثبات ذلك وأن أبرئك تماماً".

ابتسم فول في وجهه.

قال مبتهجًا: "أظن شاهد النفي يفي بالغرض".

مرة أخرى، لم يلحظ أن المحامي لم يرد عليه.

قال السيد ميهيرن: "الأمر كله يتوقف إلى حد كبير على شهادة جانيت ماكينزي، وهي تكرهك. هذا واضح تماماً".

قال الشاب معترضًا: "لا يمكنها أن تكرهني".

هز المحامي رأسه نافيًا وهو يخرج.

قال لنفسه: "والآن سأذهب إلى السيدة فول".

كان منزعجًا للغاية من طريقة سير الأمور.

كانت أسرة فول تعيش في منزل صغير في حال سيئة بالقرب من بادينجتون جرين. وهو المنزل الذي اتجه إليه السيد ميهرين.

ردًا على قرعه الجرس، فتحت الباب سيدة ضخمة، علم من مظهرها أنها الخادمة.

"السيدة فول؟ هل عادت بعد؟".

"عادت منذ ساعة. ولكنني لا أعرف ما إذا كان يمكنك رؤيتها".

قال السيد ميهرين بهدوء: "إذا أعطيتها بطاقتي، فأنا واثق تماماً بأنها سوف تفعل ذلك".

نظرت إليه المرأة في تشكك، ومسحت يدها في المريلة التي ترتديها وأخذت منه البطاقة، ثم أغلقت الباب في وجهه وتركته في الخارج.

ولكنها عادت بعد بضع لحظات، بطريقة مختلفة بعض الشيء.

"ادخل من فضلك".

قادته إلى غرفة رسم صغيرة. كان السيد ميهيرن يتفحص لوحة على الحائط، وعندما ابتعد بوجهه عنها، رأى أمامه سيدة شاحبة طويلة دخلت الغرفة في هدوء بدون أن يشعر بوجودها.

"سيد ميهيرن؟ هل أنت محامي زوجي، أليس كذلك؟ لقد أتيت من عنده؟ هلا جلست من فضلك!".

قبل أن تتحدث، لم يدرك أنها لم تكن إنجليزية. أما الآن، بعدما تفحصها عن كثب، لاحظ عظمتي خديها المرفوعتين، وشعرها حالك السواد شديد الكثافة، وحركة يديها التي كانت غريبة عليه. سيدة غريبة، هادئة جداً؛ هادئة للحد الذي يجعل المرء غير مرتاح. من البداية، كان السيد ميهيرن مدركاً أنه أمام شيء لا يفهمه. بدأ في الكلام بقوله: "والآن سيدة فول، لا يجب أن تيأسي ـــــ "

توقف عن الكلام. كان من الواضح جداً أن روماني فول ليست لديها أدنى نية للاستسلام. كانت هادئة تماماً ورابطة الجأش.

قالت له: "من فضلك، هلا أطلعتني على كل شيء. يجب أن أعرف كل شيء. لا تفكر في إخفاء شيء عني. أريد أن أعرف أسوأ الأمور". ترددت قليلاً ثم كررت قولها بصوت منخفض، بتأكيد غريب لم يفهمه المحامي: "أريد أن أعرف أسوأ الأمور".

تحدث السيد ميهيرن عن المقابلة التي دارت بينه وبين ليونارد فول. استمعت إليه بانتباه شديد، وهي تومئ برأسها بين الحين والآخر.

قالت له بعدما انتهى من كلامه: "فهمت. يريدني أن أقول إنه جاء إلى المنزل في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة في تلك الليلة؟".

قال السيد ميهيرن بجدية: "لقد جاء في ذلك الوقت؟".

قالت ببرود: "ليس هذا هو المهم، هل ستبرئه شهادتي؟ هل سيصدقونني؟".

ذهل السيد ميهيرن. لقد دخلت في صلب الموضوع بسرعة بالغة.

قالت له: "هذا ما أريد أن أعرفه. هل سيكون ذلك كافياً؟ هل هناك شخص آخر بإمكانه أن يؤكد شهادتي؟".

كانت هناك لهفة مكبوتة في طريقتها جعلته يشعر بعدم ارتياح بدون أن يفهم السبب في ذلك.

قال على مضض: "حتى الآن ليس هناك شخص غيرك".

قالت روماني فول: "فهمت".

جلست للحظة أو اثنتين في ثبات تام. وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة.

زاد إحساس المحامي بالقلق أكثر وأكثر.

قال لها: "سيدة فول. أعرف ما تشعرين به ـــــ "

قالت له: "هل هذا صحيح؟ أشك".

"لصعوبة الوضع ـــــ "

"لصعوبة الوضع أنوي أن ألعب الدور وحدي".

نظر إليها في ريبة.

"ولكن عزيزتي سيدة فول ـــــ أعصابك متعبة. فإخلاصك الشديد لزوجك ـــــ ".

"معذرة؟".

أصابته حدة صوتها بالذهول. فكرر ما قاله بطريقة مترددة:

"إخلاصك الشديد لزوجك ـــــ "

أومأت روماني برأسها ببطء، والابتسامة الغريبة نفسها على شفتيها.

سألته برفق: "هل قال لك إنني كنت مخلصة له؟ أها! نعم، أفهم أنه فعل. يا لغباء الرجال! أغبياء ـــــ أغبياء ـــــ أغبياء ـــــ ".

وفجأة وقفت على قدميها، وتركزت كل المشاعر القوية التي استشعرها المحامي في المكان في نبرة صوتها.

"أنا أكرهه، أقول لك! أنا أكرهه. أنا أكرهه! أكرهه! أريد أن أراه معلقًا من رقبته حتى يموت".

تراجع المحامي من أمامها، مبتعدًا عن الشرر المتطاير من عينيها.

اقتربت منه خطوة، وواصلت كلامها باحتدام:

"لعلي سأرى هذا اليوم. إذا افترضنا أنه لم يأتِ في تلك الليلة في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة، وإنما في الساعة العاشرة وعشرين دَقيقة؟ تقول إنه أخبرك بأنه لم يكن يعرف أي شيء عن المال الذي سيأتيه. على فرض أنني أخبرتك بأنه كان يعرف كل ذلك، وكان يعتمد عليه، وأنه ارتكب جريمة القتل ليحصل عليه؟ على فرض أنني أخبرتك بأنه اعترف لي في تلك الليلة عندما عاد إلى المنزل بما فعل، وأنه كان هناك دم على معطفه، ماذا سيحدث، على فرض أنني وقفت في المحكمة وقلت كل ذلك؟".

بدت عيناها كأنهما تتحديانه. بصعوبة بالغة، أخفى ريبته المتزايدة، وحاول أن يتحدث بطريقة عقلانية.

"ليس من الممكن أن يُطلب منك تقديم شهادتك ضد زوجك ـــــ ".

"إنه ليس زوجي!".

خرجت الكلمات من فمها بسرعة كبيرة لدرجة أنه تصور أنه أساء فهمها.

"معذرة؟ أنا ـــــ "

"إنه ليس زوجي".

عم الصمت المكان لدرجة سماع رنين الإبرة على الأرض.

"كنت ممثلة في فيينا. زوجي لا يزال على قيد الحياة ولكن في مستشفى للمجانين. لذلك لم نتمكن من الزواج. أنا سعيدة الآن".

أومأت برأسها في تحدٍّ.

قال السيد ميهيرن: "أريدك أن تخبريني بشيء واحد". حاول بأقصى جهده أن يبدو بارداً وغير مكترث لما تقول. "لماذا تكرهين ليونارد فول لهذه الدرجة؟".

هزت رأسها، وعلت وجهها ابتسامة بسيطة.

"نعم، تريد أن تعرف. ولكنني لن أخبرك. سوف أحافظ على سري...".

سعل السيد ميهيرن سعاله الجاف وهب واقفاً.

قال لها: "ليس هناك معنى من إطالة هذه المقابلة. سوف أتصل بك مرة أخرى بعدما أتحدث مع موكلي".

اقتربت منه أكثر، وهي تنظر في عينيه بعينيها الرائعتين حالكتي السواد.

قالت له: "أخبرني؛ هل صدقت ـــــ فعلاً ـــــ أنه بريء عندما أتيت إلى هنا الليلة؟".

قال السيد ميهيرن: "نعم".

ضحكت وقالت له: "يا لك من مسكين!".

أنهى المحامي كلامه قائلاً: "وما زلت أصدق ذلك. تصبحين على خير يا سيدتي".

خرج من الغرفة، حاملاً معه صورة وجهها المذهول في ذاكرته.

قال السيد ميهيرن لنفسه وهو يسير وحده في الشارع: "هذا من عمل الشيطان".

أمر غريب للغاية، الأمر كله غريب. سيدة غريبة، غاية في الخطورة. النساء يصبحن كالشياطين عندما يغرسن سكاكينهن فيك.

ما العمل؟ ذلك الشاب البائس لم يعد أمامه أي شيء يعتمد عليه. طبعاً، من الممكن أن يكون ارتكب الجريمة...

قال السيد ميهيرن لنفسه: "لا. لا ـــــ رغم كثرة الأدلة الموجهة ضده، لا أصدق هذه السيدة. كانت تختلق القصة برمتها. ولكنها لن تأتي بها إلى المحكمة".

تمنى لو زاد اقتناعه بوجهة نظره تلك.

II

كانت إجراءات محكمة الجنح قصيرة ودرامية. كانت شاهدتا الإثبات الأساسيتان هما جانيت ماكينزي، خادمة القتيلة، وروماني هيلجر ـــــ أسترالية الجنسية ـــــ عشيقة السجين.

جلس السيد ميهيرن في المحكمة واستمع إلى القصة اللعينة التي روتها زوجة السجين. ذكرت الرواية نفسها التي قصتها عليه خلال مقابلتهما.

امتنع السجين عن تقديم دفاعه ومثل أمام المحكمة.

كان السيد ميهيرن حائراً ومحبطًا، فقضية السجين ليونارد فول كانت أسود من أن تتمكن الكلمات من وصفها. وحتى مستشار الملك الشهير الذي كان مشتركًا في الدفاع لم يكن لديه أمل في البراءة.

قال في ريبة: "إذا تمكنا من التشكيك في شهادة هذه السيدة الأسترالية، فقد نتوصل لشيء ما. ولكنه أمر صعب".

ركز السيد ميهيرن كل جهوده على نقطة واحدة. على فرض أن ليونارد فول أقر بالحقيقة، وأنه ترك منزل القتيلة في التاسعة، فمن الرجل الذي سمعته جانيت يتحدث مع الآنسة فرنش في التاسعة والنصف؟

بصيص الأمل الوحيد هو ابن أخي القتيلة، ذلك الوغد الذي تملق عمته فيما مضى وابتز منها مبالغ طائلة. وقد علم المحامي أن جانيت ماكينزي كانت على اتصال دائم بهذا الشاب، وأنه لم يتوقف قط عن مطالبة سيدتها بالمال. قطعًا من الممكن أن يكون ابن أخيها هذا هو الذي كان مع الآنسة فرنش بعد مغادرة ليونارد فول، خاصة لأنه لم يكن متواجداً في أي مكان من الأماكن التي كان يتردد عليها.

أما بالبحث في باقي الاتجاهات، لم يصل المحامي لأي نتيجة. فلم يرَ أي شخص ليونارد فول وهو يدخل منزله، أو يغادر منزل الآنسة فرنش. لم يسمع أي شخص أي رجل آخر يدخل أو يغادر منزلها في كريكلوود. كل تحرياته لم توصله لشيء.

ليلة المحاكمة، تلقى السيد ميهيرن خطاباً وجه أفكاره لاتجاه جديد تماماً.

وصله الخطاب في بريد الساعة السادسة. كان الخط يعكس جهل كاتبه، وكان مكتوبًا على ورقة عادية وموضوعًا في مظروف قذر عليه طابع متسخ.

قرأه السيد ميهرين بعناية مرة أو اثنتين قبل أن يفهم معناه.

سيدي العزيز:
أنت المحامي الذي يدافع عن ذلك الشاب. إذا كنت تريد أن تكشف هذه

المرأة الأجنبية القذرة على حقيقتها، وتظهر أكاذيبها، احضر إلى العنوان التالي: 16 شوز رينتس ستبني الليلة. سوف يكلفك ذلك مائتي جنيه. اسأل عن الآنسة موجسون.

قرأ المحامي هذه الرسالة الغريبة، وأعاد قراءتها. من المحتمل بالطبع أن تكون خدعة، ولكنه عندما فكر مرة أخرى، ازداد اقتناعاً بأنها حقيقية، كما أنه اقتنع أيضاً بأن هناك أملاً ببراءة موكله، فالدليل الذي قدمته روماني هيلجر أضعف موقفه تماماً، والأمل الوحيد لينجح دفاعه، هو أن يكشف أن السيدة عاشت حياة غير أخلاقية، وبالتالي لا يمكن الوثوق بشهادتها، مما يجعله دليلاً ضعيفاً.

اتخذ السيد ميهيرن قراره. من واجبه أن ينقذ موكله بأي ثمن. يجب أن يذهب إلى منزل شوز رينتس.

واجه صعوبة في العثور على المكان، كان مبنى آيلاً للسقوط قائماً في حي فقير رائحته نتنة جداً، ولكنه وجده في النهاية، وعندما سأل عن السيدة موجسون، أرسله الناس إلى غرفة في الطابق الثالث. فطرق الباب، ولم يتلق إجابة، فطرقه مرة أخرى.

في هذه المرة، سمع صوت خرفشة في الداخل، وعلى الفور انفتح الباب بحذر سنتيمتراً واحداً تقريباً ومن ورائه شخص يمعن النظر.

وفجأة، أطلقت السيدة ـــــ فقد كانت سيدة هي التي فتحت الباب ـــــ ضحكة مكتومة وفتحت الباب على وسعه.

قالت بصوت يعلوه أزيز أنفاسها: "هذا أنت يا عزيزي. لا أحد معك، أليس كذلك؟ لا أريد تصرفات غبية؟ هذا صحيح. بإمكانك أن تدخل ـــــ بإمكانك أن تدخل".

دخل المحامي الغرفة على مضض بعدما عبر عتبة الباب فوجدها غرفة صغيرة قذرة، كانت مضاءة بمصباح مرتعش يعمل بالغاز. كان هناك سرير غير مرتب في الزاوية، وطاولة خاوية وكرسيان مكسوران. للمرة الأولى رأى السيد ميهيرن مستأجرة هذه الشقة الكريهة. كانت سيدة في منتصف العمر، ظهرها محني، شعرها رمادي غير مهندم وندوب غائرة في وجهها تغطيه بوشاح قديم. رأته وهو ينظر إلى الندوب الموجودة في وجهها فضحكت مرة أخرى ـــــ الضحكة المكتومة الغريبة نفسها".

"تتساءل لماذا أخفي جمالي؟ هئ، هئ، هئ. أخاف عليك الفتنة، أليس كذلك؟ ولكنك سوف ترى ـــــ سوف ترى".

أزالت الوشاح عن وجهها فتراجع المحامي رغماً عنه من بشاعة منظر الندوب التي رآها على وجهها، فوضعت الوشاح مرة أخرى على وجهها.

"ألا ترغب في معانقتي يا عزيزي؟ هئ، هئ، هئ، لا عجب في ذلك. ورغم ذلك كنت فتاة جميلة من قبل ـــــ من فترة ليست ببعيدة كما تظن. ماء النار هو السبب،

ماء النار. أها! ولكنني سوف أنتقم منهم".

انفجرت بسيل من الشتائم البشعة فاضطر السيد ميهيرن بدون جدوى إلى أن يسكتها، ثم جلست في صمت في النهاية وهي تفتح يديها وتغلقها على نحو لا إرادي.

قال المحامي بعبوس: "يكفي هذا. لقد جئت إلى هنا لأنني ظننت أنه بإمكانك أن تعطيني معلومات من شأنها أن تبرئ موكلي ليونارد فول. هل هذا صحيح؟".

نظرت إليه بمكر ودهاء.

قالت له وصوت أنفاسها عال: "ماذا عن المال يا عزيزي؟ مائتا جنيه، كما اتفقنا".

"عليك في البداية أن تعطيني الدليل، وبعد ذلك يمكنك المطالبة بالنقود".

"هذا لن يفي بالغرض. أنا سيدة عجوز، لا أعرف شيئًا. ولكنك إذا أعطيتني مائتي جنيه، فربما أعطيك دليلاً أو اثنين. اتفقنا؟".

"أي دليل؟".

"ما رأيك في خطاب؟ خطاب منها. ولا تسأل كيف حصلت عليه. هذا شأني أنا، ولكنه سيفي بالغرض. ولكنني أريد المائتي جنيهًا أولاً".

نظر إليها السيد ميهيرن ببرود، ثم اتخذ قراره.

"سوف أعطيك عشرة جنيهات، لا أكثر. وإذا كان الخطاب كما تدعين".

صرخت في وجهه وهاجمته قائلة: "عشرة جنيهات؟".

قال السيد ميهيرن: "عشرون. وهذا آخر ما لدي".

نهض كأنه سيخرج من المنزل، ثم أخرج محفظته وهو يراقبها عن كثب، ثم عدّ أمامها عشرين جنيهًا".

قال لها: "أرأيت. هذا كل ما معي. فإما أن تأخذيه أو تتركيه".

ولكنه كان يعرف جيداً أن منظر المال سيكون مغريًا للغاية بالنسبة لها. هاجمته بسيل من الشتائم والسباب، ولكنها استسلمت في النهاية. اتجهت ناحية السرير، وأخرجت من تحت الفراش الرث شيئًا.

قالت له بغضب شديد: "ها هو، عليك اللعنة! الخطاب الأول هو الأهم".

ألقت في وجهه مجموعة من الخطابات، ففكها السيد ميهيرن وفحصها جيداً بطريقته الباردة المعتادة. فلم تفهم السيدة التي كانت تراقبه بشغف أي شيء من وجهه الذي خلا من أي تعبير.

قرأ كل خطاب بعناية، ثم عاد مرة أخرى إلى الخطاب الأول فقرأه مرة أخرى، ثم

ربط الرزمة كلها مرة أخرى بعناية. كانت خطابات حب، مكتوبة بخط روماني هيلجر، ولم تكن موجهة إلى ليونارد فول. كان تاريخ الخطاب الأول يعود لليوم الذي ألقت فيه الشرطة القبض على ليونارد.

تأوهت السيدة وهي تقول: "كنت محقة، أليس كذلك؟ هذا الخطاب كفيل بتولي أمرها؟".

وضع السيد ميهيرن الخطابات في جيبه، ثم سأل سؤالاً:

"كيف حصلت على هذه المراسلات؟".

قالت له وهي تنظر شزراً: "إنها حكاية طويلة. ولكنني أعرف ما هو أكثر. لقد سمعت في المحكمة ما قالته هذه السيدة السيئة. كما أنني أعرف أين كانت في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، الوقت الذي ادعت أنها كانت في المنزل. سل عنها في سينما ليون رود، سوف يتذكرون ـــــ فتاة جميلة مثلها ـــــ عليها اللعنة!".

سأل السيد ميهيرن: "من الرجل الذي تراسله؟ ليس هناك سوى الاسم الأول في الخطابات".

تحدثت السيدة بصوت غليظ وأجش، وهي تفتح يديها وتغلقهما على نحو لا إرادي. وأخيراً رفعت إحداها ووضعتها على وجهها.

"إنه الرجل الذي فعل ذلك بي. منذ سنوات عديدة، أخذته مني ـــــ كانت فتاة صغيرة وقحة. وعندما لاحقته، وحاولت أن أعيده إلى ـــــ ألقى ماء النار على وجهي! وضحكت هي، عليها اللعنة! فحفظت لها ذلك. وتبعتها وتجسست عليها. والآن حانت لي فرصة النيل منها! سوف تدفع الثمن، أليس كذلك يا سيدي المحامي؟ سوف تعاني؟".

قال السيد ميهيرن في هدوء: "قد تدخل السجن لفترة لشهادة الزور التي أدلت بها في المحكمة".

وبدون أن ينبس بكلمة، وضع السيد ميهيرن النقود على الطاولة، ثم أخذ نفساً عميقاً، وأخذ جولة في الغرفة القذرة، ثم عندما عاد بنظره إليها، فوجدها ممسكة بالمال تغني له.

لم يضيع الوقت. اتجه مباشرة إلى سينما ليون رود، وأخرج صورة روماني هيلجر وأراها لقاطع التذاكر الذي تعرف عليها على الفور. قال له إنها وصلت إلى السينما وكانت بصحبة رجل بعد العاشرة في مساء ذلك اليوم. لم ينتبه إلى الرجل الذي كانت معه، ولكنه تذكر السيدة لأنها تحدثت إليه عن الصورة المعروضة. وظلا في السينما حتى النهاية، بعد حوالي ساعة.

شعر السيد ميهيرن بالرضا. الدليل الذي قدمته روماني كان مجرد أكاذيب من البداية حتى النهاية. فعلت ذلك بدافع الكراهية الشديدة. فتساءل المحامي عن سبب كل

هذه الكراهية التي تكنها لـ فول. ما الذي فعله ليونارد فول بها؟ لقد بدا مصعوقًا عندما أبلغه المحامي بما قالته عنه. وفوراً أعلن أن ما قاله لا يصدق، إلا أن السيد ميهيرن استشعر بعدما زالت صدمته الأولية أن اعتراضاته تفتقد المصداقية.

عرف ذلك. كان السيد ميهيرن مقتنعًا بذلك. عرف ذلك، ولكنه لم يكن ينوي كشف هذه الحقيقة. ظل السر مكتومًا بين الاثنين. وتساءل السيد ميهيرن عما إذا كان سيعرف السبب ذات يوم.

نظر المحامي إلى ساعته. كان الوقت متأخراً، ولكنه كان حرجًا. أشار إلى سيارة أجرة وأعطاه عنوانًا.

حدث نفسه بصوت منخفض: "يجب أن يعرف السير تشارلز بهذا الأمر على الفور".

أثارت محاكمة ليونارد فول بتهمة قتل إميلي فرنش اهتمام الرأي العام. فالمتهم شاب وسيم، متهم بجريمة شنعاء، ثم ازداد اهتمام الرأي العام بعد تدخل روماني هيلجر، شاهدة الإثبات الأساسية في القضية. وقد نشرت لها صور في العديد من الصحف، كما انتشرت روايات عديدة خيالية عن أصلها وتاريخها.

بدأت المحاكمة بهدوء. وقدمت العديد من الأدلة في البداية، ثم تم استدعاء جانيت ماكينزي. روت الحكاية نفسها التي روتها من قبل. وخلال استجواب الشاهدة استجواباً دقيقاً، نجح الدفاع في أن يجعلها تبدو كأنها تناقض نفسها مرة أو اثنتين في روايتها عن علاقة فول بالآنسة فرنش. أكد حقيقة أنها رغم سماعها صوت رجل في غرفة الجلوس في تلك الليلة، لم يكن لديها ما يثبت أنه فول، كما أنه نجح في إثارة الشك بوجود غيرة وكراهية تجاه السجين في صميم شهادتها.

ثم تم استدعاء الشاهد الثاني.

"اسمك روماني هيلجر؟".

"نعم".

"أنت أسترالية الجنسية؟".

"نعم".

"وطوال السنوات الثلاث الأخيرة وأنت تعيشين مع السجين باعتبارك زوجته؟".

للحظة، التقت عينا روماني هيلجر بعيني الرجل الماثل في قفص الاتهام. كان تعبير وجهها يعكس شيئًا غريبًا وغير مفهوم.

"نعم".

استمر طرح الأسئلة، وأدلت الشاهدة بشهادتها التي تدينه. ذكرت أنه في تلك الليلة

خرج السجين ومعه عتلة، وأنه عاد في الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، واعترف لها بقتل السيدة العجوز. كما ذكرت أن طرفي كُمّيْه كانا مخضبين بالدم، وأنه أحرقها في فرن المطبخ. وقد أجبرها على الصمت بتهديداته. مع مواصلة الحكاية انقلب رأي القضاة الذي كان في البداية في صف السجين، ضده تماماً. وجلس هو داخل قفص الاتهام ورأسه محني وفي حالة سيئة، كأنه عرف أنه محكوم عليه بالإعدام.

لاحظ السيد ميهيرن أن مستشار روماني الخاص حاول أن يظهرها أقل كراهية لزوجها. كان يتمنى أن تكون شاهدة غير متحيزة لهذا الحد.

بخوف وتفكير شديد، نهض محامي السجين من مكانه.

ذكر أمام القضاة أن قصتها مختلقة من البداية حتى النهاية، وأنها لم تكن حتى في بيتها في الوقت المعني، وأنها تحب رجلاً آخر وكانت تحاول عمداً أن تلقي فول لحتفه بتوريطه في جريمة لم يرتكبها. فأنكرت روماني كل هذه الادعاءات بمنتهى الوقاحة.

ثم قدم الدليل القاطع، مجموعة الخطابات. تمت قراءتها في المحكمة بعدما عم الصمت المكان.

> حبيبي ماكس، لقد ألقته الأقدار في أيدينا! تم القبض عليه بجريمة قتل ـــــ قتل سيدة عجوز! ليونارد الذي لم يؤذ ذبابة! أخيراً سأنتقم منه. يا له من مسكين! سوف أقول إنه جاء في تلك الليلة ملطخاً بدماء وإنه اعترف لي بجريمته. سوف أضع حبل المشنقة حول رقبته. عندما يشنق سيعرف أنني أنا التي أرسلته لحتفه. وبعد ذلك ـــــ السعادة يا حبيبي! السعادة أخيراً!

كان هناك خبراء جاهزون للتأكد من أن الخط هو خط روماني هيلجر، ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك، فقد انهارت روماني على الفور واعترفت بكل شيء، وأن ليونارد فول عاد إلى المنزل كما ذكر في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة. وأنها اختلقت القصة كلها لتتخلص منه.

بعد انهيار روماني هيلجر، انهارت القضية من أساسها واستدعى السير تشارلز شهوده، ودخل السجين قفص الاتهام وروى قصته بطريقة مباشرة ورجولية، بدون أن يهتز من استجوابه بدقة.

حاولت النيابة إثبات الجريمة على السجين، ولكن بدون أن تنجح. لم تكن الخلاصة التي قدمها القضاة في صالح السجين تماماً، ولكن هيئة المحلفين استجابت لدفاع المحامي واحتاجت إلى بعض الوقت لتفكر في قرار المحكمة.

"ثبت أن السجين غير مذنب".

أطلق سراح ليونارد فول!

نهض السيد ميهيرن بسرعة من مقعده، كان عليه أن يهنئ موكله.

وجد نفسه يلمع نظارته الأنفية بحماسة، ويتفقد نفسه. كانت زوجته قد أخبرته الليلة الماضية بأنه بدأ في التخلص من هذه العادة. عادات غريبة، لا يعرف الناس أنفسهم أنهم اعتادوها.

قضية مثيرة ـــــ مثيرة للغاية. وتلك السيدة المدعوة روماني هيلجر.

كانت السيدة الأجنبية روماني هيلجر لا تزال تسيطر على القضية بالنسبة له. بدت له سيدة هادئة شاحبة في بادينجتون. ولكنها أمام المحكمة الموقرة كانت تتباهى بنفسها كأنها زهرة استوائية.

إذا أغمض عينيه فسوف يراها الآن، طويلة وقوية، جسمها الفاتن منحنٍ للأمام قليلاً، تفتح يدها اليمنى وتغلقها على نحو لا إرادي طوال الوقت. عادات غريبة. تلك الحركة التي تفعلها بيدها كانت عادة. إلا أنه رأى شخصاً آخر يفعل ذلك مؤخراً. من كان هذا الشخص؟ كان ذلك منذ وقت قريب للغاية ـــــ

التقط أنفاسه بصعوبة عندما تذكر. كانت السيدة التي تعيش في شوز رنتس...

وقف في مكانه، ورأسه يدور. مستحيل ـــــ مستحيل ـــــ ولكن روماني هيلجر كانت ممثلة.

اقترب منه مستشار الملك وربت كتفيه.

"هل هنأت رجلنا؟ إنه حليق الذقن. تعال ورحب به".

ولكن المحامي ضئيل البنية أراد شيئًا واحدًا ـــــ أراد أن يرى روماني هيلجر وجهًا لوجه.

لم يرها حتى وقت لاحق بعد ذلك، وكان ذلك مصادفة في مكان غير متوقع.

قالت، بعدما أخبرها بكل ما كان في ذهنه. "إذن خمنت. الوجه؟ أوه! كان هذا سهلاً، كان ضوء المصباح الذي يعمل بالغاز ضعيفًا للغاية حتى لا ترى الماكياج".

"ولكن لماذا؟ لماذا ـــــ ".

ابتسمت قليلاً بعدما تذكرت آخر مرة قالت فيها هذه الجملة: "لماذا لعبت الدور وحدي؟".

"مثل هذه الكوميديا المدروسة!".

"عزيزي، كان عليّ إنقاذه. فشهادة امرأة مخلصة له لن تكون كافية ـــــ قلت ذلك بنفسك. وأنا أعرف شيئًا عن القانون. فتركت شهادتي تنقلب عليّ، ليصبح اعترافًا، يدينني في عين القانون، ونقطة في صالح السجين تبرئه على الفور".

"ومجموعة الخطابات؟".

"خطاب واحد، الخطاب المهم، قد يبدو كأنه ـــــ ماذا تسمونه؟ خطة مدبرة".

"وماذا عن الرجل المدعو ماكس؟".

"ليس له وجود على الإطلاق".

قال السيد ميهيرن بطريقة غاضبة: "ولكنني ما زلت أعتقد، أننا يجب أن نبرئه حسب الإجراءات الطبيعية".

"لم يكن بإمكاني أن أخاطر. أرأيت، لقد كنت تؤمن ببراءته ـــــ "

قال السيد ميهيرن: "وكنت تعرفين ذلك؟ فهمت".

قالت روماني: "عزيزي السيد ميهيرن، أنت لا ترى أي شيء. كنت أعرف ـــــ أنه مذنب!".

لغز الزهرية الزرقاء

I

تفحص جاك هارتينجتون ضربته التالية بأسف. وقف بجانب الكرة، ونظر مرة أخرى إلى القطعة البلاستيكية التي توضع عليها كرة الجولف، وهو يقيس المسافة. كان وجهه مليئًا بازدراء استشعره. تنهد وهو يخرج مضرب الجولف، وأرجحه مرتين في الهواء بوحشية، مدمرًا الهندباء البرية والحشائش التي تغطي الأرض، ثم وقف بثبات في مواجهة الكرة.

من الصعب وأنت في الرابعة والعشرين من العمر، أن يكون طموحك الوحيد في الحياة هو تحسين مستواك الضعيف في لعبة الجولف، مما يضطرك لبذل وقتك وانتباهك لمشكلة كسب قوتك. فطوال خمسة أيام ونصف من الأيام السبعة يكون جاك محبوسًا في عمل أشبه بمقبرة مظلمة في المدينة. أما بعد ظهيرة يومي السبت والأحد فإنه يتفانى في ممارسة متعة حياته الحقيقية، ونظرًا لعشقه الشديد لهذه اللعبة، حجز غرفة في فندق صغير بالقرب من ستورتون هيث لينكس، وكان يستيقظ يوميًا في السادسة صباحًا ليلعب الجولف لمدة ساعة قبل أن يلحق بقطار 8:46 المتجه إلى المدينة.

العيب الوحيد في هذا البرنامج اليومي أنه بدا على الدوام كأنه غير قادر على ضرب الكرة في تلك الساعة المبكرة من الصباح؛ كأن ذلك عذر له. ثم يوجه ضربة خرقاء بمضربه تنجح في طريق متعرج. ضرباته بالعصا جرت بسعادة على الأرض، وبدت الضربات الأربع كأنها أقل عدد ممكن من الضربات على أي أرض خضراء.

تنهد جاك، وأمسك مضربه الحديدي بقوة وكرر لنفسه الكلمات السحرية: "الذراع اليسرى مباشرة، ولا تنظر لأعلى".

تمايل في مشيته، ثم توقف متحجرًا في مكانه، عندما سمع صرخة رعب كسرت صمت صباح يوم صيفي.

سمع صرخة: "قتيل! أغيثونا! قتيل!".

كان صوت امرأة تلاشى في النهاية، ولم يعد منه إلا بقبقة بسيطة.

ألقى جاك المضرب من يده، وركض مسرعًا في اتجاه الصوت. كان قد أتى من مكان ما قريب منه للغاية. كان هذا الجزء تحديدًا من الملعب ريفًا بريًا تمامًا، وكان

هناك عدد قليل من المنازل في الجوار. في الواقع، لم يكن هناك سوى منزل واحد بالقرب منه، كوخ صغير بديع، كثيراً ما كان جاك ينظر إليه لأنه يشم فيه عبق الماضي القديم. ركض في اتجاه هذا الكوخ. كان محتجباً عن ناظريه؛ فقد كان مقاماً عند سفح الجبل تغطيه أوراق عريضة، ولكنه وصل إليه، وفي أقل من ثانية كان واقفاً واضعاً يده على بوابته الصغيرة الموصدة.

كانت هناك فتاة تقف في الحديقة، وفي لحظة قفز جاك إلى الاستنتاج الطبيعي بأن الفتاة هي من أطلق صرخة الاستغاثة طلباً للمساعدة. ولكنه غير رأيه بسرعة.

كانت تمسك سلة في يديها، نصف ممتلئة بالحشائش الضارة، وكان يبدو عليها أنها انتهت لتوها من التخلص من الحشائش الضارة التي تحيط بأزهار البنفسج. ولاحظ جاك أن عينيها كانتا بلون البنفسج؛ مخمليتين وناعمتين وقاتمتين، تميلان للون البنفسجي أكثر منه للأزرق. كانت أشبه بزهرة بنفسج؛ في ثوبها الأرجواني المصنوع من الكتان.

كانت الفتاة تنظر إلى جاك، ووجهها يعلوه تعبير يجمع بين الانزعاج والدهشة.

قال الشاب: "عذراً، ولكن هل صرخت منذ قليل؟".

"أنا؟ لا".

كانت دهشتها حقيقية للغاية لدرجة أن جاك شعر بحيرة. كان صوتها غاية في النعومة والجمال، وكانت له نبرة غريبة بعض الشيء.

قال متسائلاً: "ولكنك قطعاً سمعت هذه الصرخة. لقد أتت من مكان ما قريب من هنا".

حدقت إليه وقالت: "لم أسمع أي شيء".

حدق جاك بدوره إلى الفتاة. من المستحيل ألا تكون قد سمعت صرخة الاستغاثة المؤلمة تلك. إلا أن الهدوء كان واضحاً عليها جداً لدرجة منعته أن يعتقد أنها كانت تكذب عليه.

أصر قائلاً: "لقد صدرت من مكان ما قريب من هنا".

سألته قائلة: "ماذا سمعت؟".

"قتيل، أغيثونا! قتيل!".

كررت الفتاة قوله: "قتيل، أغيثونا! قتيل! لقد خدعك شخص ما يا سيدي. من عساه يقتل هنا؟".

نظر جاك من حوله وألقى نظرة على الحديقة والحيرة تغطي وجهه كأنه رأى جثة

ملقاة في الطريق إلى الحديقة. إلا أنه كان واثقًا تمامًا أن الصرخة التي سمعها كانت حقيقية وليست وليدة خياله. نظر لأعلى في اتجاه نافذة الكوخ. بدا كل شيء هادئًا وآمنًا تمامًا.

سألته الفتاة بطريقة جافة: "هل تريد أن تفتش منزلنا من الداخل؟".

كان التشكك واضحًا عليها لدرجة أن حيرة جاك ازدادت أكثر من ذي قبل. ولكنه أشاح بوجهه عنها.

قال لها: "أنا آسف، قطعًا كانت قادمة من مكان أعلى في الغابات".

رفع قبعته وحياها وانسحب من أمامها، ثم التفت وراءه مرة أخرى فوجد أن الفتاة عادت بهدوء تتابع إزالة الأعشاب الضارة من حديقتها.

ظل يتجول في الغابات لبعض الوقت، ولكنه لم يعثر على أية علامة توضح حدوث أي شيء غير عادي. ولكنه كان متأكدًا للغاية أنه سمع صرخة بالفعل.
وفي النهاية، يئس من البحث وأسرع إلى المنزل ليعد إفطاره ويلحق بقطار 8:46 الذي يتأخر أو يبكر دقيقة كعادته. ولكن ضميره عذبه قليلاً عندما جلس في القطار. ألا يجدر به ألا يفصح فورًا عما سمعه إلى الشرطة؟ ولكنه لم يفعل ذلك بسبب عدم تصديق فتاة البنفسج له. قطعًا ظنته يغازلها ـــــ وربما تظن الشرطة ذلك أيضًا. هل كان واثقًا تمامًا أنه سمع الصرخة؟

ولكنه رفض الاقتراح بغضب. كانت صرخة امرأة، وقد سمعها بوضوح. تذكر أنه نظر إلى ساعته قبل أن يسمع الصرخة بالضبط. كان ذلك في تمام الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة تقريبًا. قد تكون هذه الحقيقة مفيدة للشرطة إذا ما ـــــ إذا ما اكتشف أي شيء.

بعدما عاد لمنزله في مساء ذلك اليوم، تفحص صحف المساء بعناية ليرى ما إذا ورد ذكر لأي جريمة في هذه المنطقة. ولكنه لم يجد شيئًا، ولم يدر هل يجب أن يشعر بالراحة أم الإحباط لذلك.

كانت هناك أمطار غزيرة في صباح اليوم التالي ـــــ كانت غزيرة جدًا لدرجة تمنع أكثر لاعبي الجولف حماسة ممارسة لعبتهم المفضلة. فاستيقظ جاك في اللحظة الأخيرة، وتناول إفطاره بسرعة وركض مسرعًا ليلحق بقطاره، ثم تفحص الصحف بعناية مجددًا. لم يرد أي ذكر لأي جريمة شنعاء في الصحف، الأمر الذي تكرر عندما تفحص صحف المساء.

قال جاك لنفسه: "غريب، ولكن، لعلهم كانوا أطفالاً صغارًا يلعبون في الغابة".

خرج مبكرًا في صباح اليوم التالي. وعندما مر بالكوخ، ألقى نظرة سريعة عليه من طرف عينه فوجد الفتاة في الحديقة تقتلع الحشائش الضارة. واضح أنها معتادة ذلك.

قام بضرب كرة ممتازة، وهو يأمل أن تكون الفتاة قد شاهدت هذه الضربة. وبينما رفع مضرب الكرة من جديد، نظر إلى ساعته.

تمتم قائلاً: "السابعة وخمس وعشرون دقيقة تمامًا، أتساءل ـــــ "

تجمدت الكلمات على شفتيه، فقد سمع من خلفه الصرخة نفسها التي فاجأته من قبل. صوت امرأة تستغيث بأحد.

"قتيل ـــــ أغيثونا! قتيل!".

ركض جاك للخلف. كانت فتاة البنفسج تقف على البوابة. بدت مندهشة عندما رأت جاك يركض مسرعًا نحوها وهو يصيح بانتصار:

"قطعًا سمعتها هذه المرة".

اتسعت عيناها وظهرت فيها عاطفة لم يفهمها، ولكنه لاحظ أنها تراجعت مبتعدة عنه عندما اقترب منها، بل إنها ألقت نظرة على المنزل كأنها تفكر في أن تركض بسرعة إليه لتحميه.

هزت رأسها نافية وهي تحدق إليه.

قالت له بتعجب: "لم أسمع أي شيء على الإطلاق".

شعر كأنها نفخت بقوة بين عينيه. كان صدقها واضحًا للغاية لدرجة حالت بينه وبين عدم تصديقها. ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه التفكير فيما سمعه ـــــ لم يستطع ـــــ لم يستطع ـــــــ

سمع صوتها وهي تحدثه برفق ـــــ كأنها تشفق عليه.

"لقد سمعت صرخة الاستغاثة، أليس كذلك؟".

في ومضة عين فهم نظرة الخوف التي بدت عليها، وهي تنظر للخلف نحو المنزل.. ظنت أنه يعاني هلاوس...

بعد ذلك كأنه حصل على دش ماء بارد، واتته فكرة مروعة، هل هي محقة؟ هل يعاني هلاوس؟ سيطر عليه الفزع من هذه الفكرة، فالتفت وابتعد عنها ثم تعثر وسقط على الأرض بدون أن ينبس ببنت شفة. راقبته الفتاة وهو يمضي في طريقه مبتعداً، وتنهدت، وهزت رأسها، ثم عادت تزيل الحشائش الضارة من حديقتها.

حاول جاك أن يخضع الأمر لتفكير منطقي. قال لنفسه: "إذا كنت قد سمعت الصرخة نفسها في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، فقطعًا أنا أعاني نوعًا من الهلاوس. ولكنني لن أعرف ذلك".

ظل متوترًا طوال اليوم، وخلد إلى النوم في وقت مبكر وهو مصر على أن يعثر على

الدليل صباح اليوم التالي.

كان من الطبيعي أن يظل مستيقظًا طوال الليل في تلك الليلة، حتى غلبه النعاس في النهاية. خرج من الفندق في تمام الساعة السابعة وعشرين دقيقة وهو يركض نحو البقعة التي كان فيها صباح الأمس. أدرك أنه لن يصل إلى تلك البقعة في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، ولكن قطعًا إذا كان الصوت من نسج خياله، فسوف يسمعه في أي مكان. ركض نحوه، مثبتًا عينيه على عقارب ساعة يده.

أصبحت الساعة السابعة وخمسًا وعشرين دقيقة. من مكان بعيد، سمع دوي صراخ المرأة تستغيث. لم يستطع تمييز الكلمات بالضبط، ولكنه كان مقتنعًا بأنها الصرخة نفسها التي سمعها من قبل، وأنها أتت من البقعة نفسها، من مكان ما بالقرب من الكوخ.

الغريب في الأمر أن هذه الحقيقة طمأنته، فقد تكون مجرد خدعة. وعلى العكس مما يبدو، ربما تكون الفتاة نفسها هي من يخدعه. وقف منتصبًا بثبات، وأخرج مضرب الجولف من حقيبة الجولف الخاصة به، وقرر أن يلعب في الفتحات القليلة القريبة من الكوخ.

كانت الفتاة في الحديقة كالعادة. نظرت لأعلى هذا الصباح، فرفع قبعته محييًا إياها وقال لها صباح الخير على استحياء... نظرت إليه، فوجدها أجمل من ذي قبل.

صاح جاك بابتهاج، وقال لها: "يوم جميل، أليس كذلك؟"، كأنه يخفي ملاحظته السخيفة التي كانت واضحة عليه.

"هذا صحيح، إنه جميل حقًا".

"هذا مفيد للحديقة كما أظن؟".

ابتسمت الفتاة قليلاً، فظهرت لديها غمازتان بديعتان.

"للأسف، لا! فالأمطار مطلوبة لأزهاري. انظر، لقد جفت كلها".

تقبل جاك الدعوة التي استشعرها في إيماءتها، واقترب من السياج المنخفض الذي يفصل الحديقة عن الملعب، وهو ينظر بعينيه إلى الحديقة.

قال لها على استحياء: "إنها تبدو بخير"، كان قد أدرك نظرة الشفقة التي تبدو على وجه الفتاة.

قالت له: "الشمس جميلة، أليس كذلك؟ وبالنسبة للأزهار يمكن لنا أن نرويها دومًا. ولكن الشمس تمنحها قوة وصحة. سيدي أفضل حالاً اليوم كما أرى".

أزعجته نبرة التشجيع التي أحسها في صوتها كثيرًا.

قال لنفسه: "اللعنة على كل ذلك. أعتقد أنها تحاول أن تداويني بإيحائي بذلك".

قال لها: "أنا بخير حال".

فردت عليه الفتاة بسرعة ونعومة: "هذا جيد".

استشعر جاك أنها لا تصدقه، الأمر الذي ضايقه كثيراً.

ضرب الكرة بضع مرات أخرى ثم أسرع ليتناول إفطاره. وبينما كان يتناوله، لاحظ أن الرجل الجالس على الطاولة المقابلة كان يراقبه، ولم تكن المرة الأولى التي يراها فيه. كان في منتصف العمر، له وجه يعكس القوة. ولحية داكنة قصيرة وعينان رماديتان ثاقبتان. كانت تصرفاته تعكس الارتياح والطمأنينة؛ وهو ما يضعه في مرتبة عليا بين الطبقات العاملة. كان جاك يعرف أن اسمه لافينجتون، وكان قد سمع شائعات لا يعرف مصدرها أنه طبيب بشري معروف، ولكن نظراً لأنه لم يكن كثير التردد على شارع هارلي، لم يكن اسمه يعني له الكثير.

ولكنه هذا الصباح لاحظ أنه واقع تحت مراقبة هذا الرجل، الأمر الذي أخافه قليلاً. هل كان سره مكتوباً على وجهه بصراحة حتى يراه الجميع؟ هل هذا الرجل، بدافع مهنته، يعرف أن هناك شيئاً خاطئاً لديه؟

ارتعش جاك من الفكرة. هل هذا صحيح؟ هل جن جنونه حقاً؟ هل الأمر كله مجرد هلاوس، أم أنها خدعة كبيرة؟

وفجأة خطرت على باله طريقة بسيطة للغاية ليختبر الحل الذي خطر له. لقد كان وحده عندما سمع الصرخة. فماذا لو كان معه شخص آخر؟
قد يحدث أمر من ثلاثة احتمالات. قد يسكت الصوت، وقد يسمعه كلاهما. أو قد يسمعه وحده.

ذلك المساء، قرر أن ينفذ خطته. كان لافينجتون هو الرجل المنشود. دخلا في حديث بمنتهى البساطة، لعل الرجل الأكبر كان ينتظر هذا الحوار. كان من الواضح لسبب أو لآخر أن جاك يثير اهتمامه، فوافق الطبيب على أن يلبي دعوة جاك بسهولة وتلقائية ويشاركه لعب الجولف في الصباح قبل أن يتناولا إفطارهما، فأعدا نفسيها للعب الجولف صباح اليوم التالي.

بدآ قبل الساعة السابعة. كان يوماً رائعاً، هادئاً وصافياً، ولكنه لم يكن دافئاً تماماً. كان الطبيب يحسن اللعب، أما جاك فكان سيئاً للغاية. كان يفكر في الكارثة التي ستحدث عما قريب. ظل ينظر إلى ساعته طوال الوقت. وصلا إلى الضربة السابعة؛ حيث كان الكوخ بأكمله أمامهما، وذلك في حوالي الساعة السابعة وعشرين دقيقة.

كانت الفتاة ـــــ كعادتها ـــــ في الحديقة وهما يمران. ولكنها لم تنظر لأعلى.

كانت هناك كرتان على الحشائش، وكان جاك قريباً من الكرة، والطبيب بعيداً عنها بعض الشيء.

قال لافينجتون: "سأضرب أنا هذه الكرة. يجب أن أذهب إليها على ما أظن".

انحنى للأمام، وهو يحسب الاتجاه الذي ينبغي أن يتخذه، بينما تصلب جاك في مكانه، مثبتًا عينيه على الساعة. كانت الساعة السابعة وخمسًا وعشرين دقيقة بالضبط. جرت الكرة بسرعة على الحشائش، وتوقفت على حافة الحفرة في تردد قبل أن تسقط فيها.

قال جاك: "ضربة موفقة"، بدا صوته أجش كأنه ليس صوته... رفع ساعة يده لأعلى ذراعه وعلى وجهه راحة غامرة. لم يحدث شيء. تحرر من اللعنة.

قال له: "لو لم يكن لديك مانع لنتوقف دقيقة، أعتقد أنني سأدخن الغليون".

توقفا قليلاً عند الضربة الثامنة. فملأ جاك غليونه وأشعله بأصابع مرتعشة بعض الشيء رغمًا عنه؛ فقد بدا كأن حملاً ثقيلاً انزاح عن عقله.

قال وهو ينظر إلى المرشح أمامه بالفوز: "يا إلهي! كم هو يوم جميل! اذهب يا لافينجتون، إنها ضربتك".

لحظة ما كان الطبيب يضرب الكرة، انطلقت صرخة امرأة، عالية تنم عن فزع.

"قتيل ـــــ أغيثونا! ـــــ قتيل!".

سقط الغليون من يد جاك المرتعشة، وبينما التفت في اتجاه الصوت، تذكر صديقه، فنظر إليه وهو منقطع النفس.

كان لافينجتون ينظر لأسفل، واضعًا يده أعلى عينيه ليتجنب أشعة الشمس.

"قصيرة بعض الشيء ـــــ ولكنها تجنبت الفخ على ما أظن".

لم يسمع أي شيء.

شعر جاك بأن العالم يدور من حوله. أخذ خطوة أو اثنتين، وهو يترنح بشكل واضح. وعندما استعاد عافيته، وجد نفسه مستلقيًا على المسطح الأخضر، ولافينجتون منحن نحوه يتفقده.

"والآن، هدئ من روعك، هدئ من روعك".

"ماذا حدث؟".

"لقد سقطت مغشيًا عليك، أو حاولت أن تتظاهر بذلك في محاولة جيدة منك".

قال جاك وهو يتأوه: "يا إلهي!" .

"ما المشكلة؟ شيء في عقلك؟".

"سوف أخبرك به خلال دقيقة، ولكنني أريد أن أطرح عليك سؤالاً أولاً".

أشعل الطبيب غليونه، وجلس على الأرض بجوار جاك.

قال الطبيب براحة: "سل ما تشاء".

"لقد كنت تراقبني طوال يوم سابق أو يومين. لماذا؟".

لمعت عينا لافينجتون قليلاً.

"يا له من سؤال محرج! ولكن كما تعرف فإن الملوك يجذبون انتباه العامة".

"لا تراوغني. أنا حريص على أن أسمع إجابتك. لماذا كان ذلك؟ لدي سبب مهم يجعلني أطرح هذا السؤال".

اتسم وجه لافينجتون بقدر أكبر من الجدية.

"سوف أجيب عليك بصراحة. لقد لاحظت من كل تصرفاتك أنك تعاني ضغط عصبيًا حادًا، وقد ثار فضولي المهني لأعرف السبب".

قال جاك بمرارة: "سوف أخبرك بالسبب بمنتهى السهولة. أنا في طريقي للجنون".

توقف على نحو درامي، ولكن جملته لم تبد كأنها أثارت الاهتمام والفزع الذي توقعه، فكرر ما قال.

"أقول لك إنني في طريقي إلى الجنون".

تمتم لافينجتون قائلاً: "غريب جدًا، هذا غريب فعلاً".

شعر جاك باستياء.

"أعتقد أنك لاحظت ذلك، يا للأطباء متحجري المشاعر!".

"تعال يا صديقي الصغير، أنت تتحدث بشكل عشوائي. أولاً ، ورغم حصولي على شهادة في الطب، فأنا لا أمارسه. بصراحة، أنا لست طبيبًا ـــــ لست طبيب أبدان".

نظر إليه جاك بشغف.

"طبيب عقول؟".

"نعم بشكل ما، ولكنني أحب أن أصف نفسي بأنني طبيب للروح".

"أوه!".

"أرى امتهانًا في نبرة صوتك، إلا أننا يجب أن نستخدم كلمة لوصف الكيان المستقل والمنفصل عن المادة، أقصد الجسد. يجب أن تتصالح مع روحك، أتفهمني يا صديقي، إنها ليست كلمة دينية اخترعها رجال الدين. ولكننا سوف نسميه العقل، أو العقل الباطن، أو أي مصطلح يناسبك. لقد أساءت إليك الكلمة، ولكنني أؤكد لك أنني

استأت كثيراً ووجدته أمراً غريباً أن أجد شاباً متوازناً وطبيعياً تماماً مثلك يعاني أوهاماً تجعله في طريقه للجنون".

"إذن أنا في طريقي للجنون فعلاً. أعاني خبلاً واضحاً".

"سوف تسامحني على قول ذلك، ولكنني لا أظن ذلك".

"أنا أتخيل أشياء غير حقيقية".

"بعد العشاء؟".

"لا في الصباح".

قال الطبيب وهو يشعل غليونه الذي انطفأ: "لا يمكن ذلك".

"أقول لك إن ما أسمعه لا يسمعه شخص آخر غيري".

"رجل واحد بين مائة بإمكانه أن يرى أقمار المشتري. لأن التسعة والتسعين الآخرين لا يجدون سبباً للتشكيك في وجود أقمار له من الأساس، وطبعاً لا يمكننا أن نصف مائة رجل بالجنون".

"ولكن أقمار المشتري حقيقة علمية أثبتها العلم".

"من المرجح أيضاً أن تصبح أوهام اليوم حقائق علمية مثبتة غداً".

رغماً عنه، تركت طريقة لافينجتون التي تقوم على الحقائق أثرها في نفس جاك. شعر بقدر كبير من الراحة والبهجة. نظر إليه الطبيب باهتمام شديد للحظة أو اثنتين ثم أومأ برأسه.

قال له: "هذا أفضل. المشكلة معك يا صديقي أنك واثق تماماً أنه لا يمكن أن يوجد شيء خارج فلسفتك الخاصة، لدرجة أنك قد تصاب برعب عندما يحدث شيء ما يختلف عما تؤمن به. لنسمع الأسباب التي تجعلك تظن أنك في طريقك للجنون، وسوف نقرر بعد ذلك ما إذا كان علينا حبسك أم لا".

بأقصى قدر ممكن من الصدق والصراحة، قص جاك تسلسل الأحداث بالكامل على لافينجتون كما حدث.

أنهى كلامه قائلاً: "ولكن ما لا أفهمه، هو لماذا انطلقت الصرخة هذا الصباح في السابعة والنصف، متأخرة نصف ساعة عن موعدها".

فكر لافينجتون للحظة أو اثنتين. ثم سأله: "كم الساعة الآن في ساعة يدك؟".

أجابه جاك: "الثامنة إلا ربعاً".

"هذا بسيط للغاية. ساعتي تقول إن الساعة الآن السابعة وأربعون دقيقة، أي أن

ساعتك مقدمة خمس دقائق. هذه نقطة مثيرة ومهمة للغاية لك ـــــ ولكنها بالنسبة لي عديمة الأهمية".

"كيف؟".

أصبح جاك مهتمًا بالأمر:

"حسنًا، التفسير الواضح أنك صباح اليوم الأول سمعت مثل هذه الصرخة ـــــ التي قد تكون خدعة، وقد لا تكون كذلك. وفي صباح اليوم التالي، ظننت أنك سمعتها في الوقت نفسه تقريبًا".

"أنا واثق أنني لم أتوهم".

"بالطبع رغمًا عنك، ولكن العقل الباطن يخدعنا ببعض الحيل، أتفهمني؟ ولكن على أية حال، هذا التفسير لن يصدقه أحد. إذا سمحت لي بإبداء رأي، لقد سمعت الصرخة في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، حسب ساعة يدك، ولم يكن من الممكن أن تسمعها في الساعة السابعة والنصف، كما كنت تظن".

"حسنًا، إذن؟".

"حسنًا، هذا واضح للغاية، أليس كذلك؟ صرخة الاستغاثة تلك تصدر في مكان ووقت محدد تمامًا. المكان قريب من هذا الكوخ، والوقت هو السابعة وخمس وعشرون دقيقة".

"ولكن لماذا أسمعها وحدي؟ أنا لا أؤمن بالأشباح والأرواح ومثل هذه الأمور. فلماذا أسمع هذه الصرخة اللعينة؟".

"أها! هذا ما لا يمكننا البت فيه الآن. من الغريب أن نجد أن بعض أفضل الوسطاء هم أكثر الأشخاص المتشككين، وليس المهتمون بالظواهر الخفية هم من تتراءى لهم الأدلة. بعض الناس يرون ويسمعون أشياء لا يراها أو يسمعها الآخرون، ونحن لا نعرف السبب في ذلك، وتسعة من أصل عشرة لا يرغبون في سماعها أو رؤيتها، وهم مقتنعون بأنهم يعانون أوهامًا، مثلك تمامًا. الأمر أشبه بالكهرباء. فبعض المواد تنقل الكهرباء بشكل جيد، بينما بعضها الآخر لا يفعل ذلك، وطوال فترة طويلة ونحن لا نعرف السبب، ويجب أن نرضى بقول هذه الحقيقة فحسب. ولكننا الآن صرنا نعرف السبب. وذات يوم ـــــ وهذا أمر حتمي ـــــ لن يكون هناك ما يوصف بأنه خارق للطبيعة. والتعرف على القوانين التي تحكم ما يعرف بالظاهرة النفسية سوف تكون مهمة شاقة ـــــ ولكن أقل القليل يساعدنا".

سأله جاك: "ولكن ماذا سأفعل؟".

ضحك لافينجتون.

"عمليًا، حسنًا صديقي، سوف تذهب لتتناول إفطارك وتنطلق إلى المدينة بدون أن تخشى على عقلك من الأمور التي لا تفهمها. أما أنا على الصعيد الآخر، فسوف أدرس الأمر وأرى ما الذي يمكنني معرفته عن هذا الكوخ. فهنا يكمن السر، على حد ما أتصور".

وقف جاك على قدميه.

"حسنًا يا سيدي. سوف أذهب، ولكنني أقول ـــــ "

"نعم؟".

احمر وجه جاك من الخجل.

تمتم قائلاً: "أنا واثق أن الفتاة طيبة".

بدا لافينجتون مندهشًا.

"لم تقل لي إنها كانت فتاة جميلة! حسنًا ابتهج. أعتقد أن السر بدأ قبلها بكثير".

وصل جاك إلى منزله في ذلك المساء في حالة فضول شديد. كان لديه أمل شديد في لافينجتون. وتقبل الطبيب الأمر برحابة كبيرة، ونظرًا لكونها حقائق علمية ثابتة، كان جاك سعيدًا بذلك كثيرًا.

وجد صديقه الجديد ينتظره في الردهة عندما نزل لتناول العشاء، واقترح الطبيب أن يتناولا عشاءهما معًا على طاولة واحدة.

سأله جاك بحماسة: "هل هناك أية أخبار يا سيدي؟".

"لقد جمعت تاريخ كوخ هيذر منذ إنشائه. لقد تم تأجيره في البداية لمزارع عجوز وزوجته، وتوفي الزوج، وانتقلت السيدة العجوز لتعيش مع ابنتها.
ثم استولى عليه عامل بناء، وطوره لحد كبير، ثم باعه إلى نبيل يقطن المدينة كان يتردد عليه في العطلات الأسبوعية. ومنذ عام تقريبًا، باعه إلى شخص يدعى تيرنر ـــــ السيد والسيدة تيرنر. بديا زوجين غريبين بعض الشيء من كل ما عرفته عنهما. كان رجلاً إنجليزيًا، وكان الناس يظنون أن زوجته نصفها روسي، وكانت سيدة جميلة جدًا وغريبة الشكل. عاشا في هدوء، وكانا يخرجان بالكاد من حديقة الكوخ. انتشرت شائعات تقول إنهما كانا خائفين من شيء ما ـــــ ولكنني لا أظن أننا يجب أن نعتمد على ذلك.

"وفجأة ذات يوم غادرا المنزل، تركاه في صباح باكر، ولم يعودا إليه مطلقًا. حصل أحد السماسرة هنا على خطاب من السيد تيرنر من لندن، ينصحه ببيع المنزل في أسرع وقت ممكن. فتم بيع الأثاث، وبيع المنزل نفسه إلى السيد مولفيرير. ولكنه لم يبقَ في المنزل سوى ليلة واحدة ـــــ ثم أعلن رغبته في تأجيره. ويعيش فيه حاليًا أستاذ جامعي فرنسي مريض بالسل وابنته. وهما هناك منذ عشرة أيام فقط".

سمع جاك ذلك في صمت.

قال أخيرًا: "أنا لا أرى أن هذه المعلومات تقودنا لأي شيء، أم أنك تخالفني الرأي؟".

قال لافينجتون بهدوء: "أريد فقط أن أعرف المزيد عن عائلة تيرنر. لقد غادرا في وقت مبكر للغاية في الصباح، هل تذكر. على حد ما توصلت إليه، لم يرهما أي شخص وهما يغادران. رأى الناس السيد تيرنر فحسب، ولكنني لم أجد من رأى السيدة تيرنر عندما غادرت".

شحب وجه جاك.

"لا يمكن ـــــ لا تعني ـــــ "

"لا تُخِف نفسك يا صديقي. فتأثير أي شخص على حافة الموت ـــــ خاصة الموت العنيف ـــــ على الأشياء المحيطة به قوي للغاية. وهذه الأشياء المحيطة من المحتمل أن تمتص هذا التأثير، فتبعث منه هذا التأثير لمتلقٍ مناسب ـــــ الذي كان أنت في هذه الحالة".

تمتم جاك بتمرد وهو يقول: "ولكن لماذا أنا؟ لماذا ليس شخصًا آخر بإمكانه أن يقوم بعمل جيد؟".

"أنت تعتبر القوة ذكية وأنها اختارتك عن عمد، لم يحدث بطريقة عمياء وميكانيكية. أنا شخصيًا لا أؤمن بالروابط الروحية، التي تسكن بقعة معينة لسبب معين. ولكن ما رأيته مرة تلو أخرى ـــــ حتى أصبحت أرى أن الأمر لم يحدث بمحض المصادفة ـــــ هو نوع من تلمس طريق أعمى نحو العدالة ـــــ تحرك باطني لقوى عمياء، دائمًا ما تعمل على نحو غامض نحو هذه النهاية..."

هز رأسه ـــــ كأنه يتخلص من هوس معين استحوذ عليه ـــــ ثم التفت إلى جاك بعدما رسم ابتسامة على شفتيه.

ثم اقترح عليه اقتراحًا: "دعنا نتوقف عند هذا الحد ـــــ لهذه الليلة على الأقل بأي ثمن".

وافق جاك على ذلك فورًا، ولكنه لم يجد أنه من السهل أن يتوقف عن التفكير في الموضوع برمته.

خلال العطلة الأسبوعية، قام ببعض التحريات بنفسه، ونجح في استخراج قدر أكثر قليلاً من المعلومات التي جمعها الطبيب. وأقلع بالطبع عن ممارسة الجولف قبل تناول الإفطار.

الرابط التالي في السلسلة أتاه من شخص غير متوقع على الإطلاق. فعندما عاد ذات

يوم، علم أن فتاة تنتظر رؤيته. ولكنه تفاجأ كثيراً عندما علم أنها فتاة الحديقة ـــــ فتاة البنفسج ـــــ مثلما كان يسميها في عقله. كانت متوترة وحائرة للغاية.

"اعذرني يا سيدي على مجيئي إليك على هذا النحو؟ ولكن هناك شيئًا أريد أن أخبرك به ـــــ أنا ـــــ "

نظرت حولها في ريبة.

قال جاك على الفور: "تعالي هنا"، وهو يقودها إلى غرفة جلوس "السيدات" التي بالفندق والتي كانت خالية في ذلك الوقت. كانت غرفة مخيفة، تحتوي على قدر كبير من اللون الأحمر. "والآن اجلسي يا آنسة، آنسة ـــــ "

"مارشاود، يا سيدي، فليس مارشود".

"اجلسي آنسة مارشود، وأخبريني بكل شيء".

جلست فليس في هدوء. كانت ترتدي ثوبًا أخضر قاتمًا اليوم، وكان جمال وسحر وجهها الصغير أكثر وضوحًا من المعتاد. خفق قلب جاك بسرعة أكبر عندما جلس إلى جوارها.

قالت فليس: "الأمر كما يلي. لقد أتينا إلى هنا منذ وقت قصير، ومنذ البداية ونحن نسمع أن منزلنا ـــــ منزلنا الصغير الجميل ـــــ مسكون. لذلك لم يبق فيه أي خادم. ولكن هذا ليس مهمًا كثيراً ـــــ فبإمكاني أن أقوم بأعمال المنزل والطهي بنفسي".

قال الشاب المفتون في نفسه: "ملاك، إنها رائعة".

ولكنه أبدى اهتمامًا يعكس توجهه العملي والجاد.

"قبل أربعة أيام، كنت أجد الكلام عن الأشباح أمرًا سخيفًا تمامًا. ولكن طوال أربعة أيام يا سيدي، وحلم واحد يراودني. أرى سيدة واقفة هناك ـــــ سيدة جميلة، طويلة وغاية في البياض. كانت تمسك في يدها زهرية زرقاء من الخزف. كانت بائسة ـــــ بائسة جداً، وكانت تعطيني هذه الزهرية على الدوام، كأنها تحثني على القيام بشيء ما بها ـــــ ولكن يا إلهي! إنها لا تستطيع أن تتحدث، وأنا ـــــ أنا لا أعرف ما الذي تريده. رأيت هذا الحلم في أول ليلتين ـــــ ولكنني قبل البارحة، رأيت المزيد. فقد اختفت هي والزهرية الزرقاء، وفجأة سمعت صوتها يصرخ ـــــ علمت أنه صوتها ـــــ أتفهمني، أوه! يا سيدي كانت الكلمات التي قالتها هي الكلمات نفسها التي قلتها لي ذلك الصباح: "قتيل ـــــ أغيثونا! ـــــ قتيل!" استيقظت وأنا مرعوبة. قلت لنفسي ـــــ إنه كابوس، والكلمات التي سمعتها مجرد مصادفة. ولكن حلم البارحة راودني. ما هذا يا سيدي؟ لقد سمعتها أنت أيضًا؟ ماذا سنفعل؟".

كان الرعب واضحًا على وجه فليس. كانت تطبق يديها الصغيرتين، وهي تثبت نظرها على جاك كأنها تستحلفه المساعدة. ولكن جاك تصنع أنه غير مهتم رغم أنه لم

يكن يشعر بذلك فعلاً.

"لا بأس يا آنسة مارشود, لا تخافي. سوف أخبرك بما أريدك أن تفعليه، إذا لم يكن لديك مانع في ذلك، فاحكي القصة بأكملها إلى صديق لي يقيم هنا في الفندق ويدعى الدكتور لافينجتون".

أبدت فليس استعدادها للقيام بذلك، فخرج جاك بحثًا عن لافينجتون، حتى عادا معًا في غضون دقائق.

تفحص لافينجتون الفتاة بعناية عندما قدمهما جاك لبعضهما بسرعة. وبكلمات قليلة تطمئنها، جعل الفتاة تهدأ، واستمع هو بدوره إلى قصتها باهتمام شديد.

قال لها عندما انتهت من قصتها: "غريب جدًا. هل أخبرت والدك بذلك؟".

هزت فليس رأسها نافية.

"لم أرد أن أقلقه، فهو لا يزال مريضًا". امتلأت عينها بالدموع ـــــ "أنا أبعد عنه أي شيء قد يخيفه أو يغضبه".

قال لافينجتون بحنو: "مفهوم. وأنا سعيد لأنك جئت إلينا يا آنسة مارشود. هارتينجتون كما تعرفين، لديه تجربة مشابه لتجربتك. أعتقد أننا نسير على الطريق الصحيح الآن. أليس هناك شيء تذكرينه؟".

قامت فليس بحركة سريعة.

"طبعًا! كم أنا غبية! إنه أهم شيء في القصة كلها. انظر يا سيدي، انظر لما وجدته في أحد دواليب المطبخ حيث انزلق وراء الرف".

أعطتهما قطعة متسخة من ورق الرسم رسمت بألوان مائية تظهر صورة لسيدة. كانت مجرد شخبطة بالألوان، ولكن الشبه كان قريبًا جدًا، فهي تظهر سيدة طويلة بيضاء، في وجهها شيء غير إنجليزي. كانت تقف بجوار طاولة عليها زهرية زرقاء من الخزف.

قالت فليس: "لقد وجدتها هذا الصباح فقط. سيدي الطبيب، إنه وجه المرأة التي رأيتها في حلمي، وهذه هي الزهرية الزرقاء".

قال لافينجتون: "غريب جدًا. واضح أن مفتاح هذا اللغز هو الزهرية الزرقاء. إنها تبدو كأنها مصنوعة من الخزف، ربما تكون قطعة قديمة. تبدو عليها صور غريبة متكررة".

قال جاك: "إنها صينية. لقد رأيت واحدة مماثلة لها بين مقتنيات عمي ـــــ إنه يحب اقتناء الخزف الصيني، وأذكر أنني لاحظت زهرية كهذه منذ وقت قصير".

قال لافينجتون وهو يفكر: "الزهرية المصنوعة من الخزف".. ظل لحظة أو اثنتين غارقًا في أفكاره، ثم رفع رأسه فجأة، وضوء غريب يلمع في عينيه. "هارتينجتون، منذ متى وعمك لديه هذه الزهرية؟".

"منذ متى؟ لا أعرف حقًا".

"فكر. هل اشتراها مؤخراً".

"لا أعرف ـــــ نعم، أظنني أعرف، الآن تذكرت. أنا لست مهتمًا بالخزف بنفسي، ولكنني أذكر أنه أراني "مقتنياته الجديدة"، وكانت هذه القطعة من بينها".

"منذ أقل من شهرين؟ لقد غادرت عائلة ترينر هذا الكوخ منذ شهرين فقط".

"نعم، أعتقد ذلك".

"هل يذهب عمك إلى مزادات في المدينة أحيانًا؟".

"إنه دائمًا ما يتردد على المزادات العلنية".

"إذن لا يمكننا أن نستبعد أنه اشترى هذه القطعة المصنوعة من الخزف في المزاد الذي أقامه السيد تيرنر. مصادفة غريبة ـــــ أو ربما ما أسميه العدالة العمياء. هارتينجتون، يجب أن تعرف من عمك من أين اشترى هذه الزهرية".

خفض جاك رأسه.

"أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً، فقد سافر عمي جورج وغادر القارة. ولا أعرف إلى أين اتجه بالضبط".

"كم سيغيب؟".

"ثلاثة أسابيع أو شهراً على الأقل".

ساد الصمت لفترة. وجلست فليس تنقل نظرها بقلق من أحدهما إلى الآخر.

سألت على استحياء: "أليس هناك ما يمكننا عمله؟".

قال لافينجتون بحماسة يكتمها: "نعم، هناك شيء. لعله يكون شيئًا غير معتاد، ولكنني أعتقد أنه سوف ينجح. هارتينجتون، يجب أن تحضر هذه الزهرية. أحضرها إلى هنا، وإذا سمحت لنا الآنسة، فسوف نقضي ليلة في كوخ هيذر، ومعنا الزهرية الزرقاء".

تحسس جاك وجهه بعدم ارتياح.

سأله في تخوف: "ماذا تعتقد أنه سيحدث؟".

"ليست لدي أدنى فكرة ـــــ ولكنني بصراحة أؤمن بأن اللغز سوف ينكشف لنا وترتاح الروح. ومن الممكن أن يكون هناك شيء مختبئ بداخل الزهرية. إذا لم يحدث

أي شيء، يجب أن نستخدم مهارتنا".

شبكت فليس يديها.

صاحت قائلة: "إنها فكرة رائعة".

لمعت عيناها بحماسة شديدة. ولكن جاك لم يشعر بكل هذا القدر من الحماسة ـــــ بل إنه في واقع الأمر كان مرعوبًا من التجربة للغاية. ولكن لم يكن هناك شيء يشجعه على الاعتراف بمشاعره تلك أمام فليس، فقد كان الطبيب يتصرف كأن اقتراحه هو أكثر اقتراح طبيعي في العالم كله.

سألت فليس وهو تنظر إلى جاك: "متى يمكنك أن تحضر الزهرية؟".

أجاب جاك بكره وامتعاض: "غدًا".

كان عليه أن يخوض التجربة، فذكرى صرخة الاستغاثة المرعوبة التي لازمته لأيام كانت شيئًا بشعًا مضطرًا للتخلص منه لا التفكير فيه.

ذهب إلى منزل عمه في مساء اليوم التالي، وأخذ الزهرية المقصودة. ازداد اقتناعه أكثر من قبل بأنها كانت الزهرية نفسها التي رآها في اللوحة المرسومة بالألوان المائية، ولكنه عندما ألقى نظرة عليها عن كثب، لم يرَ أية علامة تدل على أنها تحتوي على سر كبير بأي شكل.

كانت الساعة السابعة صباحًا عندما وصل هو ولافينجتون إلى كوخ هيذر. كانت فليس في الخارج تبحث عنهما، ففتحت لهما الباب بسرعة قبل أن يطرقاه.

همست قائلة: "ادخلا. والدي نائم في الطابق العلوي، ويجب ألا نوقظه. لقد أعددت لكما قهوة هنا".

قادتهما إلى غرفة الجلوس الصغيرة المريحة. كان هناك موقد صغير موضوع على الطاولة، عليه حامل حديدي؛ حيث كانت تعد لهما القهوة.

وبسرعة أخرج جاك الزهرية الزرقاء من اللفات العديدة التي كان يضعها فيها، فانقطعت أنفاس فليس عندما سقطت عيناها عليها.

صاحت بحماسة: "هذا صحيح، هذا صحيح. إنها هي، سوف أعرفها في أي مكان".

في هذه الغضون كان لافينجتون يقوم بترتيباته الخاصة. أزال كل الأثاث من الطاولة الصغيرة ووضعها في منتصف الغرفة. ووضع حولها ثلاثة كراسي. ثم أخذ الزهرية الزرقاء من جاك، ووضعها في منتصف الطاولة.

قال لهما: "والآن، أصبحنا جاهزين. أطفئا الأنوار واجلسا حول الطاولة في الظلام".

أطاعه الاثنان على الفور. وسمع صوت لافينجتون مرة أخرى في الظلام.

"لا تفكرا في أي شيء أبداً، ولا تجبرا عقليكما على التفكير في أي شيء. فلعل بيننا من يتمتع بقدرات الوسيط الروحي. إذا كان الأمر كذلك، فسوف يدخل هذا الشخص في غيبوبة. تذكرا أنه ليس هناك ما يدعو للخوف. اطردا الخوف من قلبيكما، اتركا لنفسيكما العنان ـــــ "

تلاشى صوته وساد الصمت. ولحظة بعد أخرى. بدأ الصمت يزداد ويصبح أكبر ليضم كل الاحتمالات. كان كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لـ لافينجتون وهو ما جعله يقول لهما "اطردا الخوف". ولكن جاك لم يكن يشعر بالخوف ـــــ وإنما الفزع. وكان واثقاً تقريباً بأن فليس تشعر بما يشعر به. وفجأة سمع صوتها، منخفضاً ومرعوباً.

"شيء مروع سوف يحدث. أنا أشعر به".

قال لها لافينجتون: "اطردي الخوف. لا تحاربي التأثير".

بدأت الظلمة تزداد أكثر وأكثر وازداد الصمت حدة. واقترب ذلك الإحساس المحتوم بالوعيد.

شعر جاك بأنه مخنوق ـــــ ومكبوت ـــــ كان شيئاً شريراً قريباً منه للغاية...

ثم مرت لحظة النزاع. كان ينساب، ينساب لأسفل ـــــ أغمض جفنيه ـــــ في هدوء وظلام....

II

تململ جاك قليلاً. كان رأسه ثقيلاً ـــــ ثقيلاً للغاية. أين كان؟

أشعة شمس.... طيور... إنه راقد تحت السماء.

ثم تذكر كل ما حدث. الجلسة. الغرفة الصغيرة. فليس والطبيب. ما الذي حدث؟

وقف على قدميه ووجد رأسه يدق على نحو مؤلم، وألقى نظرة حوله. كان مستلقياً في أجمة صغيرة ليست بعيدة عن الكوخ. لم يكن هناك أحد بالقرب منه. أخرج ساعة يده. فوجد أنها الثانية عشرة والنصف، الأمر الذي فاجأه كثيراً.

حاول جاك أن يقف على قدميه، وركض بأقصى سرعته في اتجاه الكوخ. قطعاً استشعرا فشله في الخروج من الغيبوبة التي دخلها، فحملاه وألقياه في الهواء الطلق.

عندما وصل إلى الكوخ، طرق الباب بضربات عالية. ولكنه لم يتلق إجابة، ولم تكن هناك أي مؤشر يدل على وجود حياة فيه. قطعاً تركا البيت طلباً للمساعدة. أو ربما شيء آخر ـــــ استشعر جاك خوفاً لا نهاية له يغزو قلبه. ما الذي حدث الليلة الماضية؟

شق طريق العودة إلى الفندق بأقصى سرعة ممكنة. كان على وشك الاستفسار في مكتب الاستقبال، عندما تلقى لكمة قوية في ضلوعه أسقطته على الأرض، وعندما التفت بامتعاض وغضب، رأى نبيلاً عجوزاً بلحية بيضاء يتنفس بحماسة تعكس الفرحة.

قال الشخص: "لم تكن تتوقع رؤيتي يا ولد. لم تكن تتوقع رؤيتي، أليس كذلك؟".

"لماذا عمي جورج، ظننتك سافرت أميالاً عديدة ـــــ في مكان ما في إيطاليا".

"أها! ولكنني لم أسافر. بت البارحة في دوفر، واعتقدت أنني سأسافر بالسيارة إلى المدينة ففكرت أن أتوقف لرؤيتك. لأجدك في الخارج طوال الليل، أليس كذلك؟ الخروج بالليل لطيف ـــــ "

عانقه جاك بفرحة وقال له: "عمي جورج لدي قصة غير عادية سأرويها لك. أظنك لن تصدقني".

ضحك الرجل العجوز وقال له: "أظنني لن أصدقك، ولكنني سوف أبذل قصارى جهدي يا ولد".

تابع جاك كلامه قائلاً: "ولكنني يجب أن أتناول شيئًا، أنا أتضور جوعًا".

ذهب إلى غرفة تناول الطعام وفي أثناء تناوله الطعام، قص على عمه القصة بالكامل".

ثم أنهى كلامه بقوله: "والله وحده هو من يعرف ماذا حل بهما".

بدا عمه على حافة الإصابة بسكتة دماغية.

وأخيرًا نجح في لفظ كلمة "الزهرية. الزهرية الزرقاء! ماذا حل بها؟".

حدق جاك إليه بدون أن يفهم، ولكنه بدأ في الفهم بعد سيل الكلمات التي سمعها.

خرجت الكلمات من فم عمه بسرعة: "إنها من قصر مينج ـــــ فريدة ـــــ جوهرة مقتنياتي ـــــ قيمتها عشرة آلاف جنيه ـــــ حصلت عليها من هوجينهيمر المليونير الأمريكي ـــــ الوحيدة من نوعها في العالم كله ـــــ يا للهول. ماذا فعلت بزهريتي الزرقاء؟".

أسرع جاك بالخروج من الغرفة. يجب أن يعثر على لافينجتون. رمقته الشابة الصغيرة الواقفة في مكتب الاستقبال ببرود.

"لقد غادر الدكتور لافينجتون في وقت متأخر الليلة الماضية ـــــ بسيارته. وقد ترك لك هذا الخطاب".

مزق جاك الخطاب. كان قصيرًا ومختصرًا.

صديقي العزيز الصغير

هل انتهى يوم الأحداث الخارقة للطبيعة؟ ليس بعد ـــــ خاصة عندما تنخدع بلغة علمية معاصرة. أرق تحيات فليس، ووالدها المزيف وتحياتي الشخصية. لقد بدأنا في رحلتنا منذ اثنتي عشرة ساعة، أظنها كافية تماماً.

المخلص لك،

أمبروز لافينجتون،

طبيب الروح

حالة السير آرثر كارمايكل الغريبة

(مقتبسة من مدونات المرحوم الدكتور إدوارد كارستيرز الطبيب النفسي البارز)

I

أدرك تماماً أن هناك طريقتين منفصلتين للنظر إلى الأحداث الغريبة والمأساوية التي شهدتها هنا. ورأيي الشخصي لم يتغير مطلقاً. لقد أقنعني أحدهم بكتابة القصة بالكامل، وأعتقد أن هذا يعود إلى أن العلم والحقائق العلمية الغريبة لا ينبغي أن يدخلا في طي النسيان.

سمعت للمرة الأولى بهذه الحالة من خلال تلغراف تلقيته من صديقي الدكتور ساتل. رغم ذكر اسم كارمايكل، لم يكن التلغراف واضحاً، ولكن بناءً على رغبته، أخذت قطار 12:20 المسافر من بادينجتون إلى وولدون في هرتفوردشير.

كان اسم كارمايكل مألوفاً بالنسبة لي، فقد كنت أعرف الراحل السير ويليام كارمايكل القاطن في وولدون، ولكنني لم أسمع شيئاً عنه طوال السنوات الإحدى عشرة الأخيرة. كان لديه ـــــ على حد علمي ـــــ ابن واحد، وريثه الحالي، الذي أصبح الآن شاباً في الثالثة والعشرين من عمره تقريباً. أذكر أنني سمعت بعض الشائعات عن زواج السير ويليام الثاني، ولكنني لم أتذكر أي شيء سوى انطباع سيئ لا أعرف مصدره تكوّن لديّ عن زوجته الثانية.

قابلني ساتل في المحطة.

قال وهو ينتزع يدي: "شكراً على قدومك".

"لا، أبداً. فهمت أنه شيء في تخصصي، أليس كذلك؟".

"إلى حد كبير".

سألته: "هي حالة عقلية إذن، ذات ملامح غير معتادة؟".

جمعنا حقائبي وجلسنا في عربة تجرها الكلاب أخذناها من المحطة واتجهنا بها إلى وولدون، التي كانت تبعد ثلاثة أميال تقريباً. لم يجب ساتل عن أسئلتي للحظة أو اثنتين، ثم انفجر في الكلام على نحو مفاجئ.

"الأمر كله غير مفهوم! إنه شاب في الثالثة والعشرين من عمره، لطالما كان طبيعياً في كل شيء. كان شاباً لطيفاً ومهذباً، لا يؤخذ

عليه سوى بعض الغرور، لعله لم يكن ذكيًا أو ألمعيًا، ولكنه كان شابًا إنجليزيًا ممتازًا من الطبقة العليا. ذهب إلى سريره وهو في كامل صحته ذات مساء، ووُجد في الصباح يتجول في القرية بطريقة شبه بلهاء، وغير قادر على التعرف على أقرب أقاربه وأعزائه".
قلت له بتفكير: "آه! تبدو حالة مثيرة للاهتمام. فقدان كامل للذاكرة؟ وهذا ما حدث ـــــ ؟".
"صباح الأمس. التاسع من أغسطس".
"ولم يحدث شيء ـــــ أو صدمة تعرف أي شيء عنها ـــــ جعله في هذه الحالة؟".
"لم يحدث أي شيء".
انتابني شك مفاجئ.
"هل تخفي أي شيء عني؟".
"لا، لا".
زاد تردده شكوكي.
"يجب أن أعرف كل شيء".
"الأمر غير مرتبط بـآرثر. ولكنه مرتبط بـ ـــــ بـ ـــــ المنزل".
كررت قوله في دهشة: "المنزل".
"لديك خبرة طويلة مع هذا النوع من الأمور، أليس كذلك يا كارستيرز؟ لقد "اختبرت" المنازل المسكونة. ما رأيك في الأمر كله؟".
أجبته قائلاً: "تسع حالات من أصل عشر يكون الأمر كله خدعة. ولكن الحالة العاشرة، حسنًا، لقد قابلت حالة ليس لها أي تفسير على الإطلاق من وجهة النظر المادية. وأنا أؤمن بالقوى الخفية".
أومأ ساتل برأسه. كنا على وشك دخول بوابة المتنزه. فأشار بسوطه إلى قصر أبيض مقام على جانب التل.
قال لي: "هذا هو البيت. وهناك شيء في ذلك المنزل، شيء غير عادي ـــــ مروع. جميعنا شعرنا به... وأنا لا أؤمن بالخرافات..."
سألته: "ما الشكل الذي يتخذه هذا الشيء؟".
نظر إلى الأمام مباشرة. "أفضل ألا تعرف أي شيء. أتفهمني ـــــ فعندما تذهب إلى هناك بدون تحيز ـــــ وليست لديك أية معرفة ـــــ وترى الأمر كله بنفسك ـــــ فهذا أفضل ـــــ ".
قلت له: "صحيح. من الأفضل ذلك. ولكن يسعدني أن أعرف المزيد عن العائلة".
قال ساتل: "تزوج السير ويليام مرتين. آرثر هو ابنه من زوجته الأولى. ومنذ تسع سنوات مضت تزوج مرة أخرى، وزوجته الحالية

أشبه بلغز. وهي نصف إنجليزية، وأظن أن هناك دمًا آسيويًا يجري في عروقها".
ثم توقف عن الكلام.
قلت له: "ساتل، أنت لا تحب السيدة كارمايكل؟".
اعترف بذلك بصراحة. "لا، لا أحبها. فدائمًا ما أشعر بأن هناك شرًا بداخلها. حسنًا دعني أواصل. ومن زيجته الثانية أنجب السير ويليام طفلاً آخر: ولدًا أيضًا في الثامنة من عمره الآن. وقد توفي السير ويليام منذ ثلاث سنوات الآن. وورث آرثر عن والده لقبه ومنزله. ولا تزال زوجة أبيه وأخوه غير الشقيق يعيشان معه في وولدون. ويجب أن أخبرك بأن التركة بسيطة للغاية. فكل دخل السير آرثر يكفيه بالكاد. ولم يستطع السير وليام أن يترك لزوجته سوى مئات معدودة من الجنيهات كل عام، ولكن لحسن الحظ أن السير آرثر على وفاق كبير مع زوجة أبيه، وهو سعيد للغاية بإقامتهما معه. الآن ـــــ ".
"نعم؟".
"منذ شهرين خطب السير آرثر فتاة جميلة ـــــ الآنسة فليس باترسون". ثم أردف قائلاً بعدما خفض صوته بلمسة عاطفة: "كان من المقرر أن يعقدا قرانهما في الشهر التالي. وهي تقيم معهم الآن. لك أن تتخيل حالة الاكتئاب التي تعانيها ـــــ ".
أحنيت رأسي في صمت.
كنا نقترب بالعربة من المنزل الآن. كانت المروج الخضراء ممتدة عن يميننا. وفجأة رأيت منظرًا خلابا للغاية. كانت هناك فتاة شابة تسير ببطء في الحديقة متجهة إلى المنزل. لم تكن ترتدي قبعة، وكانت أشعة الشمس تزيد لمعان شعرها الذهبي البديع. كانت تحمل سلة كبيرة من الزهور، وكانت هناك قطة رمادية جميلة تمر من بين قدميها بحب كبير.
نظرت إلى ساتل مستفهمًا.
قال: "إنها الآنسة باترسون".
قلت: "فتاة مسكينة. فتاة مسكينة". كم كانت صورتها مع القطة الرمادية وهي تمسك الزهور رائعة".
سمعت صوتًا خافتًا، فنظرت بسرعة إلى صديقي، فوجدت العنان انزلق من بين أصابعه، وأصبح وجهه شاحبًا تمامًا.
سألته: "ما الخطب؟".
تمالك نفسه بجهد كبير.
خلال لحظات قليلة وصلنا إلى المنزل، وكنت أتبعه إلى غرفة المعيشة الخضراء؛ حيث وجدنا الشاي معدًا.

وقفت سيدة في منتصف العمر كانت لا تزال تحتفظ بجمالها عندما دخلنا، واتجهت نحونا مادة يدها.
"هذا صديقي الدكتور كارستيرز، سيدة كارمايكل".
لا أستطيع تفسير موجة الاشمئزاز التي انتابتني وأنا أصافح يد هذه السيدة الأرستقراطية الجميلة، والتي كانت تتحرك بتألق قاتم وضعيف ذكرني بتخمين ساتل أن فيها دماءً شرقية.
قالت بصوت موسيقي منخفض: "شكراً على قدومك دكتور كارستيرز. وشكراً على محاولتك مساعدتنا في مشكلتنا الكبيرة".
أجبتها برد بسيط ، ثم قدمت لي الشاي.
خلال لحظات، دخلت الفتاة التي رأيتها في الحديقة الغرفة. لم تكن القطة معها، ولكنها كانت لا تزال تحمل سلة الأزهار في يدها. قدمها ساتل إليّ واقتربت مني بعفوية.
"أوه! دكتور كارستيرز، أخبرنا دكتور ساتل بالكثير عنك. أشعر بأنك سوف تتمكن من عمل شيء لمساعدة آرثر المسكين".
قطعًا كانت الآنسة باترسون فتاة جميلة جداً، رغم شحوب وجنتيها، ووجود هالات سوداء حول عينيها الصريحتين.
قلت مطمئنًا إياها: "سيدتي العزيزة. طبعًا يجب ألا تيأسي. فمثل حالات فقدان الذاكرة تلك، أو ازدواج الشخصية، كثيراً ما تستمر لفترة قصيرة. وفي أية لحظة قد يستعيد المريض كامل قواه".
هزت رأسها نافية وقالت: "لا أستطيع أن أصدق أن هذه الحالة ازدواج شخصية. إنه ليس آرثر أبداً. إنها ليست شخصيته. إنه ليس هو. أنا ـــــ".
قالت السيدة كارمايكل بصوت رقيق: "عزيزتي فليس، اشربي شايك".
فهمت من التعبير الظاهر في عينيها التي ثبتتهما على الفتاة أن السيدة كارمايكل لم تكن تحب خطيبة ابن زوجها كثيراً.
أخذت الآنسة باترسون الشاي، وقلت لألطف الحوار: "ألن تتناول القطة بعض الحليب؟".
نظرت إلي على نحو غريب.
"القطة؟".
"نعم، التي كانت ترافقك منذ لحظات قليلة وأنت في الحديقة ـــــ".
صدرت ضوضاء جعلتني أقطع كلامي. فقد قلبت السيدة كارمايكل غلاية الشاي، وانسابت المياه الساخنة على الأرض. أصلحت الوضع، ونظرت فليس باترسون باستفسار إلى ساتل، الذي نهض من مكانه.
"هل تريد أن ترى مريضك الآن يا كارستيرز؟".

تبعته على الفور. وصاحبتنا الآنسة باترسون. صعدنا الطابق العلوي وأخرج ساتل مفتاحاً من جيبه هو يقول: "أحياناً يتجول في كل مكان. لذلك أغلق الباب عليه دوماً عندما أخرج من المنزل".
فتح الباب الموصد ودخلنا الغرفة.
كان الشاب جالساً على المقعد القريب من النافذة حيث سقطت أشعة الشمس الصفراء واللامعة منتشرة في المكان.
كان يجلس في هدوء غريب، وهو محدب جسمه، وكل عضلة فيه مرتخية. ظننت في البداية أنه غير واعٍ لوجودنا حتى رأيت فجأة أنه يراقبنا عن كثب من تحت جفنيه غير المتحركين. خفض عينيه عندما التقت بعيني، ورمش بعينيه. ولكنه لم يتحرك.
قال ساتل بابتهاج: "تعال يا آرثر. لقد جاءت الآنسة فليس وصديق لي لرؤيتك".
ولكن الشاب الجالس على كرسي النافذة رمش بعينيه فقط.
وبعد لحظة أو اثنتين رأيته يراقبنا مرة أخرى ـــــ سراً وخفاءً.
سأل ساتل، بصوت عال ومبهج كأنه يحدث طفلاً صغيراً: "هل تريد شايك؟".
وضع على الطاولة كوباً مليئاً بالحليب، فرفعت حاجبي في دهشة وابتسم ساتل.
قال: "شيء غريب، المشروب الوحيد الذي يحتسيه هو اللبن".
خلال لحظة أو اثنتين، وبدون تأخير، فك السير آرثر نفسه من وضع الاحتداب الذي كان عليه، وسار ببطء نحو الطاولة. أدركت فجأة أن حركاته كانت صامتة تماماً، وأن قدميه لم تحدثا أي صوت في أثناء سيره. وبمجرد أن وصل إلى الطاولة شد عضلاته بقوة، ومد إحدى قدميه، والثانية ممدودة خلفه. وأطال هذا التدريب لأقصى حد، ثم تثائب. لم أرَ في حياتي مثل هذا التثاؤب! بدا كأنه ابتلع وجهه بالكامل.
ركز انتباهه الآن على الحليب، وانحنى للأمام نحو الطاولة حتى لمست شفتاه الحليب.
أجاب ساتل نظرتي المتسائلة.
"لا يستخدم يديه على الإطلاق. يبدو كأنه عاد لحالة بدائية. غريب! أليس كذلك؟".
شعرت بأن فليس باترسون تضاءلت أمامي قليلاً، فوضعت يدي عليها لأهدئها.
نفد الحليب أخيراً، ومد السير آرثر كارمايكل عضلاته مرة أخرى، وبالخطوات الهادئة نفسها التي لا تصدر أي صوت عاد إلى شباك النافذة

مرة أخرى، الذي كان يجلس عليه، طاوياً جسمه، وهو يرمش بعينيه.
قادتنا الآنسة باترسون إلى الردهة. كانت ترتعش تماماً.
صاحت قائلة: "أوه! دكتور كارستيرز. إنه ليس هو ـــــ هذا الشيء الجالس هناك ليس آرثر! كنت سأشعر به ـــــ كنت سأعرف ـــــ ".
هززت رأسي في حزن.
"المخ قد يمارس حيلاً غريبة يا آنسة باترسون". اعترفت بأن الحالة حيرتني كثيراً. كانت لها سمات غير عادية. رغم أنني لم أرَ السير كارمايكل في صغره من قبل، رأيت شيئاً في طريقة سيره الغريبة، والطريقة التي يرمش بعينيه من خلالها، ذكرتني بشخص أو شيء لم أستطع تحديده بالضبط.
تناولنا عشاءً بسيطاً تماماً في تلك الليلة، وتحملت أنا والسيدة كارمايكل عناء فتح باب المناقشة. وعندما انتهت السيدتان من تناول العشاء، سألني ساتل عن انطباعي عن مضيفتي.
قلت له: "يجب أن أعترف، بأنني لا أحبها أبداً بدون أي سبب أو مبرر. إنها تتمتع بقوى خفية. إنها سيدة لديها قوة جاذبة غير عادية".
كان ساتل على وشك أن يقول شيئاً ما، ولكنه كبح نفسه ولم يقل بعد لحظة أو اثنتين سوى:
"إنها تفني نفسها في العناية بابنها الصغير".
جلسنا في غرفة المعيشة الخضراء مرة أخرى بعد العشاء. كنا قد انتهينا لتونا من تناول القهوة وكنا نتحدث بصعوبة بعض الشي عن موضوعات اليوم عندما بدأت القطة في المواء بطريقة محزنة خارج الباب كأنها تطلب الدخول. ولكن لم يلحظ أحد ذلك، ونظراً لعشقي الحيوانات، نهضت من مكاني بعد لحظة أو اثنتين.
استأذنت السيدة كارمايكل: "هل يمكنني أن أدخل هذه المسكينة؟".
ظننت أن وجهها بدا شاحباً للغاية، ولكنها أحدثت حركة بسيطة برأسها فهمت أنها دليل الموافقة، فاتجهت ناحية الباب وفتحته، ولكن الردهة كانت خالية تماماً.
قلت: "غريب، أقسم أنني سمعت مواء قطة".
عندما عدت إلى مقعدي لاحظت أن الجميع يراقبني عن كثب. وقد جعلني هذا الأمر أشعر بشيء من عدم الراحة.
ذهبنا جميعاً إلى النوم مباشرة. وصاحبني ساتل إلى غرفتي.
سألني وهو ينظر من حوله: "هل حصلت على كل ما تريده؟".
"نعم شكراً".
ظل جالساً وهو محرج، كأن هناك شيئاً يود قوله ولكنه لم يستطع التعبير عنه.

قلت له: "بالمناسبة، قلت إن هناك شيئًا غير طبيعي في هذا المنزل؟ حتى الآن يبدو طبيعيًا تمامًا".
"هل تصفه بأنه منزل سعيد؟".
"من الصعب قول ذلك في ظل هذه الظروف. واضح تمامًا أنه مفعم بـ حزن شديد. ولكن بالنسبة لوجود شيء غير عادي، فإنني أظنهم أصحاء تمامًا".
قال ساتل فجأة: "تصبح على خير، أحلام سعيدة".
بالطبع حلمت. بدت قطة الآنسة باترسون الرمادية كأنها سيطرت على عقلي. فطوال تلك الليلة، رأيتها في أحلامي، حلمت بذلك الحيوان التعيس.
استيقظت وأنا أشعر بفزع شديد، وأدركت فجأة ما زج بالقطة في أحلامي بهذه القوة. كانت القطة تموء بشكل متواصل خارج غرفتي. ومن المستحيل أن أنام في ظل الضوضاء التي أحدثتها، فأشعلت الشمعة وذهبت إلى الباب وفتحته. ولكن الردهة كانت خالية، رغم استمرار مواء القطة. خطرت على بالي فكرة. قد تكون الهرة التعيسة محبوسة في مكان ما. كانت نهاية الممر على اليسار، فأين توجد غرفة الآنسة كارمايكل؟ لذلك اتجهت إلى اليمين ولم أسر سوى بضع خطوات عندما بدأت الضوضاء من جديد من خلفي، فاتجهت بسرعة ناحية الصوت مجددًا، فسمعته هذه المرة على يميني بوضوح.
شيء ما ـــــ لعله تيار الهواء الموجود في الردهة ـــــ جعلني أرتعش، فاتجهت بسرعة ناحية غرفتي. صمت كل شيء الآن، ونمت بعد وقت قصير ـــــ حتى استيقظت على يوم صيفي بديع آخر.
بينما كنت أرتدي ملابسي، رأيت من نافذتي ما سبب لي الإزعاج الليلة الماضية. كانت القطة الرمادية تزحف ببطء وسرًا في الحديقة. فظننت أن سبب هجومها هو سرب صغير من الطيور كان يزقزق ويتباهى بنفسه في مكان قريب.
ثم حدث شيء غريب للغاية. جاءت القطة مباشرة من وسط سرب الطيور، وفراؤها يكاد يمسهم ـــــ بدون أن تطير الطيور. لم أفهم ما حدث ـــــ بدا الأمر غير مفهوم على الإطلاق.
أثر هذا الأمر فيّ كثيرًا لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي ذكره على الإفطار.
قلت للسيدة كارمايكل: "هل تعرفين، أن لديك قطة غريبة للغاية؟".
سمعت صلصلة طبق على صحن، ثم رأيت فليس باترسون، فاتحة شفتيها وتتنفس بسرعة، كانت تثبت نظرها عليّ.
مرت لحظة صمت ثم قالت السيدة كارمايكل برفض شديد: "أعتقد

أنك مخطئ. ليست لدينا قطة هنا. ولم تكن لدي قطة من قبل".
كان واضحاً أنني أقحمت نفسي في الأمر على نحو مخجل، لذلك غيرت الموضوع بسرعة.
ولكن الأمر حيرني. لماذا تنكر السيدة كارمايكل وجود قطة في المنزل؟ لعلها قطة الآنسة باترسون، ووجودها محجوب عن سيدة المنزل؟ لعل السيدة كارمايكل ممن يكرهون القطط التى أقابلها كثيراً هذه الأيام. لم يبد ذلك تفسيراً منطقياً، ولكنني اضطررت للقبول به الوقت الراهن.
كان مريضنا لا يزال على حالته نفسها. فحصته هذه المرة بعناية وتمكنت من دراسته عن كثب أكثر من الليلة الماضية. وبناءً على اقتراحي، قررنا أن يقضي أطول وقت ممكن مع الأسرة. كنت آمل أن أحصل على فرصة أفضل لمتابعته وهو بعيد عن حراسه، كما كنت آمل أيضاً أن توقظه الأحداث اليومية المعتادة وتعيده إلى عقله. ولكن سلوكه ظل كما هو بدون أدنى تغيير. كان هادئاً ومطيعاً، ـــــ بل بدا كأنه خاوٍ ـــــ ولكنه في واقع الأمر كان يراقب ما يحدث عن كثب وسراً. ولكن ما فاجأني كثيراً هو العاطفة الشديدة التي أظهرها نحو زوجة والده. كان يتجاهل الآنسة باترسون تماماً، ولكنه كان يجلس دوماً بالقرب من السيدة كارمايكل قدر المستطاع، ورأيته مرة يفرك رأسه في كتفها ووجهه يعلوه تعبير غبي بالحب.
كنت قلقاً من الحالة، ولكنني كنت أشعر بأن هناك لغزاً للأمر كله ولكنه ابتعد عني كثيراً.
قلت لساتل: "إنها حالة غاية في الغرابة".
أجابني قائلاً: "نعم، إنها توحي بالكثير".
نظر إلي سراً كما ظننت.
قال لي: "أخبرني. ألا يذكرك بأي شيء؟".
فاجأني سؤاله كثيراً، لأنه ذكرني بالانطباع الذي أخذته عنه في اليوم السابق.
سألته: "يذكرني بماذا؟".
هز رأسه.
تمتم قائلاً: "ربما يكون من نسج خيالي. إنه مجرد خيال".
ولم يكن بحاجة لقول المزيد في هذا الصدد.
كان هناك سر يحيط بالأمر برمته. كنت لا أزال مشغولاً بذلك الشعور المحير الذي استحوذ عليّ، وهو أنني فقدت مفتاح حل هذا اللغز. كما كان هناك لغز آخر يتعلق بأمر أقل أهمية ـــــ أعني تلك القطة الرمادية الغريبة. فلسبب أو آخر كان هذا الأمر يرهق

أعصابي. حلمت بقطط ـــــ وكنت أتخيل دومًا أنني أسمع مواءها. كما أنني كنت ألمح بين الحين والآخر قطة جميلة. وحقيقة أن هناك لغزًا ما مرتبطًا بها أقلقني إلى حد غير محتمل. وفجأة وبدون مقدمات ذهبت بعد ظهيرة أحد الأيام إلى الخادم لأحصل منه على بعض المعلومات.

قلت له: "هل يمكنك أن تخبرني بأي شيء عن القطة التي أراها؟".

قال مندهشًا بأدب: "القطة يا سيدي؟".

"ألم يكن هناك ـــــ أليست هناك ـــــ قطة؟".

"كانت السيدة لديها قطة يا سيدي، قطة كبيرة. ولكنها اضطرت لقتلها. هذا مؤسف، فقط كانت جميلة جدًا".

سألته ببطء: "قطة رمادية؟".

"نعم يا سيدي ".

"وقلت إنه تم قتلها؟".

"نعم يا سيدي".

"هل أنت متأكد أنها ماتت؟".

"أوه، متأكد تمامًا يا سيدي. لم تكن السيدة تسمح بإرسالها إلى الطبيب البيطرى ـــــ ولكنها فعلت ذلك بنفسها. منذ أقل من أسبوع الآن. وقد دفنت هناك تحت شجرة الزان تلك". ثم خرج من الغرفة تاركًا إياي لتأملاتي.

لماذا أكدت السيدة كارمايكل بقوة أنها لم تكن لديها قطة؟

شعرت بحدسي بأن مسألة القطة البسيطة تلك مهمة بشكل ما. وجدت ساتل فأخذته جانبًا.

قلت له: "ساتل، أريد أن أطرح عليك سؤالاً. هل سمعت أو رأيت قطة في هذا المنزل أم لا؟".

لم يبد متفاجئًا من السؤال، بل إنه بدا كأنه يتوقعه.

قال: "لقد سمعت مواء قطة. ولكنني لم أرها".

صحت قائلاً: "ولكن في اليوم الأول. في الحديقة مع الآنسة باترسون".

ثبت ناظريه عليّ.

"لقد رأيت الآنسة باترسون تسير في الحديقة، ولم أرَ شيئًا آخر".

بدأت أفهم. قلت له: "إذن القطة ـــــ ؟"

أومأ برأسه.

"أردت أن أرى ما إذا كنت ـــــ بدون أي مؤثر من جانبي ـــــ سمعت ما نسمعه جميعًا...؟".

"جميعكم تسمعونه؟".

أومأ برأسه مرة أخرى.

تمتمت قائلاً وأنا غارق في التفكير: "هذا غريب. لم أسمع من قبل أن قطة سكنت مكانًا".
أخبرته بما علمته من الخادم، فأبدى اندهاشه.
"هذا جديد عليّ. لم أكن أعرف ذلك".
ولكنني سألت بيأس: "ولكن ما الذي يعنيه ذلك؟".
هز رأسه في نفسي: "الله وحده أعلم! ولكنني سأخبرك يا كارستيرز ـــــ أنا خائف. الـ ـــــ هذا الشيء صوته يتوعد".
قلت بقوة: "يتوعد؟ يتوعد من؟" حرك يديه وقال: "لا أستطيع القول".
لم أدرك حتى المساء ما كان يعنيه بكلماته. كنا نجلس في غرفة المعيشة الخضراء، تمامًا مثل ليلة وصولي، عندما صدر ـــــ صوت المواء المستمر خارج الغرفة. ولكن صوتها كان غاضبًا هذه المرة بما لا يدع مجالاً للشك؛ كانت تصدر مواءً عنيفًا، طويلاً، متوعدًا. وعندما انقطع الصوت، تحرك الخطاف النحاسي خارج الباب بقوة كأن قطة فعلت ذلك بمخالبها.
نهض ساتل من مكانه.
صاح قائلاً: "أقسم أنها حقيقية".
أسرع نحو الباب وفتحه.
لم يجد شيئًا في الخارج.
عاد وهو يمسح حاجبيه. كانت فليس ترتعش ووجهها شاحبًا، وكانت السيدة كارمايكل بيضاء كأنها ميتة. وحده آرثر، كان يجلس القرفصاء برضا كأنه طفل، واضعًا رأسه على ركبة زوجة أبيه، وكان هادئًا وغير منزعج. وضعت الآنسة باترسون يدها على ذراعي وصعدنا إلى أعلى.
صاحت قائلة: "أوه - دكتور كارستيرز. ما هذا؟ ما الذي يعنيه كل ذلك؟".
قلت لها: "لم نعرف بعد سيدتي الصغيرة العزيزة. ولكنني أسعى لاكتشاف الأمر. ولكنك يجب ألا تخافي. أنا مقتنع بأنه ليس هناك خطر عليك تحديدًا".
نظرت إليّ بريبة: "أتعتقد ذلك؟".
قلت لها بحسم: "أنا واثق من ذلك".
تذكرت الطريقة المحبة التي كانت القطة الرمادية تدور بها حول قدميها. كنت واثقًا تمام الثقة من ذلك. لم يكن الوعيد موجهًا لها.
بعد بعض الوقت سقطت فريسة للنوم، ولكنني غفوت بدون أن أرتاح ثم استيقظت وأنا مصدوم. سمعت صوت خرفشة واشتعال كأن شيئًا يتمزق

بقوة. نهضت من سريري وأسرعت إلى الممر. وفي اللحظة نفسها وجدت ساتل يخرج من غرفته. كان الصوت صادراً من جهة اليسار.
صاح قائلاً: "سمعت ذلك يا كارستيرز. سمعت ذلك؟".
صعدنا بهدوء إلى باب السيدة كارمايكل. لم نمر على أي شيء، ولكن الضوضاء توقفت. كانت الشموع التي معنا تلمع على سطح باب غرفة السيدة كارمايكل اللامع. حدقنا إلى بعضنا.
همس قائلاً: "هل تعرف ماذا كان ذلك؟".
أومأت برأسي. "مخالب قطة تمزق شيئًا". ارتعشت قليلاً. وفجأة أصدرت صرخة وخفضت الشمعة التي كنت أمسكها.
"انظر هنا يا ساتل".
"كان هناك كرسي مُسْنَد على الحائط ـــــ وكان الكرسي ممزقًا إلى شرائط طويلة...
فحصناها عن كثب. نظر إلي وأومأت برأسي.
قال وهو يلتقط أنفاسه في خوف: "مخالب قطة".
"لا مجال للشك" انتقل بعينيه من الكرسي إلى الباب المغلق. "هذا هو الشخص الذي تتوعده القطة. السيدة كارمايكل!".
لم أنم في تلك الليلة. وصلت الأمور لنقطة تضطرنا لعمل شيء ما. وعلى حد علمي، لم يكن هناك سوى شخص واحد لديه مفتاح لهذا اللغز. شككت أن السيدة كارمايكل تعرف أكثر مما اختارت قوله.
كانت ضعيفة إلى حد الموت عندما نزلت صباح اليوم التالي، ولم تتناول شيئًا من الطعام الموجود في طبقها. كنت واثقًا أن إصرارها الحديدي فقط هو الذي يمنعها الانهيار. وبعد الإفطار طلبت الحديث معها لبعض الوقت. دخلت في لب الموضوع مباشرة.
قلت لها: "سيدة كارمايكل، لدي سبب يدفعني لأن أؤمن بأنك في خطر كبير".
قالت بشجاعة وعدم اهتمام مفتعلين: "حقًا؟".
تابعت كلامي: "هناك في هذا المنزل. شيء ـــــ مخلوق ـــــ من الواضح أنه يعاديك".
تمتمت قائلة في ازدراء: "ما هذا الهراء؟ كأنني أؤمن بأي تفاهات من هذا القبيل".
قلت لها على نحو جاف: "الكرسي الموجود خارج غرفتك، تم تمزيقه إلى شرائط الليلة الماضية".
رفعت حاجبيها وهي تتظاهر بالدهشة: "حقًا!" ولكنني فهمت أنني لم أخبرها بشيء جديد عليها.
"مزحة غبية على ما أظن".

أجبتها وشعور ما يخالجني: "الأمر ليس كذلك. وأريدك أن تخبريني ـــــ لمصلحتك أنت ـــــ " توقفت عن الكلام.
سألت: "أخبرك بماذا؟".
قلت لها بشجاعة: "بأي شيء يشرح الأمر".
ضحكت.
قالت: "لا أعرف شيئًا، لا أعرف أي شيء".
ولم يكن هناك أي تحذير بالخطر كان سيحثها على الكلام. إلا أنني كنت مقتنعًا بأنها تعرف قدرًا كبيرًا مما لا نعرفه نحن، ولديها مفتاح اللغز الذي نجهله جميعا تمامًا. ولكنني رأيت أنه من المستحيل تمامًا دفعها إلى الحديث.
ولكنني أصررت أن آخذ حذري قدر الإمكان، لأنني مقتنع تمام الاقتناع بأن هناك خطرًا حقيقيًا وقريبًا جدًا ينتظرها. وقبل أن تذهب إلى غرفتها في الليلة التالية، تفحصتها أنا وساتل بعناية. واتفقنا على تبادل حراسة الممر كل بدوره.
أخذت نوبة الحراسة الأولى، التي مرت بدون حوادث. وفي الساعة الثالثة صباحًا جاءني ساتل. كنت متعبًا بعد ليلة البارحة التي لم أذق النوم فيها، فنمت على الفور. وراودني حلم غريب.
حلمت أن القطة الرمادية كانت جالسة تحت سريري وكانت تثبت عينيها على عيني كأنها ترجوني بشكل غريب. فعلمت أن هذا المخلوق يريدني أن أتبعه. فعلت ذلك، فقادتني إلى الطابق السفلي مباشرة إلى الجناح المقابل من المنزل إلى غرفة كان من الواضح أنها مكتبة. وقفت هناك عند أحد جوانب الغرفة ورفعت مخلبها الأمامي حتى وضعته على أحد أرفف الكتب المنخفضة، وهي تنظر إلي مرة أخرى بنظرة الرجاء نفسها.
بعد ذلك، اختفت القطة والمكتبة، واستيقظت لأجد الصباح قد حل.
مرت نوبة ساتل بدون حوادث، ولكنه كان متحمسًا ليسمع حلمي. وبناءً على طلبي أخذني إلى المكتبة، التي وجدتها مثلما رأيتها في حلمي تمامًا. بل إنني استطعت أن أحدد المكان المحدد التي وضعت القطة مخلبها عليه وفي عينيها نظرة الرجاء الحزينة تلك.
وقف كلانا في حيرة صامتة. وفجأة خطرت لي فكرة، فانحنيت لأقرأ عنوان الكتاب الموجود في ذلك المكان بالضبط، لاحظت أن هناك مكانًا فارغًا في هذا الصف من الكتب.
قلت لساتل: "لقد أخذت بعض الكتب من هنا".
انحنى هو الآخر إلى الرف.
قال: "انظر، هناك مسمار في الخلف مزق قطعة من الكتاب المفقود".

أخرج قصاصة الورق الصغيرة بعناية شديدة. لم تكن أكبر من بوصة واحدة ـــــ ولكننا وجدنا عليها كلمة مهمة: "القطة..."
قال ساتل: "هذا الشيء جعل الدم يتجمد في عروقي. إنه أمر غير عادي، بل مروع".
قلت له: "سأدفع أي ثمن لأعرف الكتاب المفقود من هناك. هل تعتقد أن هناك طريقة لنعرف ذلك؟".
"قد يكون كاتالوج موضوعاً في مكان ما. لعل السيدة كارمايكل ـــــ ".
حركت رأسي في نفي.
"السيدة كارمايكل لن تخبرك بأي شيء".
"أتعتقد ذلك؟".
"أنا واثق من ذلك. فبينما نحن نفكر ونتحسس الأمر في الظلام، السيدة كارمايكل تعرف السر. ولسبب ما خاص بها لن تخبرنا بأي شيء، فهي تفضل أن تخوض مخاطرة مروعة على أن تخرج عن صمتها".
مر اليوم بدون أية أحداث، الأمر الذي ذكرني بالهدوء الذي يسبق العاصفة. وانتابني شعور غريب بأن المشكلة على وشك الحل. كنت كالذي يتحسس طريقه في الظلام، ولكنه سيرى عما قريب. كانت الحقائق كلها هناك، جاهزة، تنتظر بصيص النور الصغير الذي يربطها معاً ويظهر دلالتها.
وقد جاء! بأغرب طريقة على الإطلاق!
حدث ذلك عنما كنا نجلس معاً في غرفة المعيشة الخضراء كالعادة بعد العشاء. كان الجميع يلزم الصمت. لم تكن هناك أية ضوضاء في الغرفة فعلاً لدرجة تمكن أي فأر صغير من دخول الغرفة ـــــ وخلال لحظة حدث ذلك فعلاً.
بوثبة طويلة قفز السير آرثر كارمايكل من فوق كرسيه، وانطلق جسمه المرتعش كالسهم مقتفياً أثر الفأر. كان الفأر قد اختفى خلف الجدران الخشبية؛ حيث جثم هناك ـــــ مراقباً ـــــ وجسمه لا يزال يرتعش بتلهف.
كان ذلك مروعاً! لم أرَ في حياتي لحظة جمود كهذه. لم يعد هناك مجال للحيرة بشأن ما ذكرني به آرثر كارمايكل بقدمه الخفية وعينه المراقبة. وفي لحظة جاء التفسير، جامحاً، لا يصدق، غير معقول إلى ذهني. رفضته لكونه مستحيلاً ـــــ لا يخطر على بال أحد! ولكنني لم أستطع أن أطرده من عقلي.
أذكر بالكاد ما حدث بعد ذلك. بدا الأمر كله مشوشاً وغير حقيقي.

أعرف أننا صعدنا الطابق العلوي بشكل ما، ونحن نقول ليلة سعيدة باختصار، كأن الجميع يخشى أن تلتقي عينه بعين الآخر؛ خوفًا من أن نرى فيهما تأكيدًا لمخاوفه الخاصة.
أجلس ساتل نفسه خارج باب غرفة السيدة كارمايكل ليأخذ نوبة المراقبة الأولى، وهو ينوي إيقاظي في الثالثة صباحًا. لم تكن لدي مخاوف خاصة للسيدة كارمايكل، فقد استحوذت عليّ نظرية خيالية مستحيلة. قلت لنفسي إن هذا مستحيل ـــــ ولكن عقلي عاد للتفكير فيها وهو مذهول.
وفجأة كسر هدوء الليل. حيث انطلق صوت ساتل يناديني, فأسرعت إلى الردهة.
كان يدق ويطرق باب غرفة السيدة كارمايكل بكل ما أوتي من قوة.
صاح قائلاً: "لقد أخذ الشيطان المرأة! إنها محبوسة فيها!".
"ولكن ـــــ "
"إنه هناك يا رجل! هناك معها! ألا تسمعه؟".
من وراء الباب المغلق سمعت مواء قطة طويلاً غاية في الشدة والعنف. وبعده سمعت صرخة مروعة، تلتها صرخة أخرى... وسمعت صوت السيدة كارمايكل.
صحت قائلاً: "الباب! يجب أن نكسر الباب وندخل. لو تأخرنا لحظة واحدة سيكون الأوان قد فات".
وجهنا كتفينا نحو الباب، واندفعنا بأقصى ما أوتينا من قوة نحوه. فانكسر القفل محدثًا ضجة كبيرة ـــــ وسقطنا نحن في الغرفة.
كانت السيدة كارمايكل راقدة على السرير مغطاة بالدماء. لم أر في حياتي منظراً مروعًا أكثر من هذا المنظر. كان قلبها لا يزال ينبض، ولكن جروحها كانت مروعة، وكان جلد رقبتها ممزقًا تمامًا... قلت وأنا أرتجف من هول المنظر بهمس: "المخالب... " ودوت بداخلي صرخة رعب لا توصف.
ربطت الجراح وضمدتها بعناية واقترحت على ساتل أن نخفي السبب الذي أحدث هذه الجروح سرًا، خاصة عن الآنسة باترسون. وأرسلت تلغرافًا أطلب ممرضة من مستشفى، لكي يتم إرسالها في أسرع وقت ممكن.
كان الفجر يتسلل الآن إلى النافذة. نظرت إلى الحديقة بأسفل.
قلت فجأة لساتل: "ارتد ملابسك لنخرج. سوف تكون السيدة كارمايكل في أمان الآن".
وبسرعة كان جاهزًا، وخرجنا معًا إلى الحديقة".
"ماذا ستفعل؟".

قلت له باختصار: "سأحفر لأخرج جثة القطة. يجب أن أتأكد ـــــ "
وجدت مجرافًا في مخزن أدوات الحديقة وبدأنا في العمل على الحفر أسفل شجرة الزان الضخمة. وأخيرًا آتى حفرنا بثماره. لم تكن مهمة سهلة. فقد توفي الحيوان منذ أسبوع. ولكنني رأيت ما أردت أن أراه.
قلت له: "هذه هي القطة. القطة التي رأيتها بالضبط في اليوم الأول من حضوري إلى هنا".
تشمم ساتل الرائحة، كانت هناك رائحة لوز مر تعبئ المكان.
قال: "حامض البروسيك".
أومأت برأسي.
سأل بفضول شديد: "ما الذي تفكر فيه؟".
"ما تفكر فيه أنت الآخر!".
لم يكن اكتشافي جديدًا عليه ـــــ فقد خطر بباله أيضًا كما رأيت.
تمتم قائلاً: "هذا مستحيل! مستحيل! هذا يفوق كل العلوم ـــــ كل الطبيعة..." خف صوته تدريجيًا وجسمه كله يرتعش ثم قال: "الفأر الذي رأيناه الليلة الماضية. ولكن ـــــ أوه! لا يمكن أن يكون!".
قلت له: "السيدة كارمايكل، امرأة غريبة للغاية. إنها تتمتع بقوة غير طبيعية ـــــ قوة تنويم مغناطيسي. لقد قدم أسلافها من الشرق. هل يمكننا أن نعرف لماذا استخدمت هذه القوة على شخص محبوب ضعيف مثل آرثر كارمايكل؟ وتذكر يا ساتل، أنه إذا ظل آرثر على حالته الميئوس منها تلك، تصبح التركة كلها عملًا لها ولابنها ـــــ الذي أخبرتني بأنها تعشقه بجنون. وكان آرثر على وشك الزواج!".
"ولكن ماذا سنفعل يا كارستيرز؟".
قلت له: "ليس هناك ما يمكننا عمله. سوف نبذل قصارى جهدنا لنحول بين السيدة كارمايكل والانتقام".
تحسنت حالة السيدة كارمايكل ببطء. وشفيت جروحها إلى حد معقول كما كان متوقعًا ـــــ أغلب الظن أن الندوب الناجمة عن هذا الهجوم المروع سوف تلازمها حتى الممات.
لم أشعر في حياتي بقلة الحيلة كالتي شعرت بها، فالقوة التي هزمتنا كانت لا تزال في أوجها، لم تهزم بعد، ورغم سكونها في الوقت الراهن، لا يمكننا أن نظن أنها اكتفت بذلك ولن تظهر مجددًا. كنت مصرًا على أمر واحد. بمجرد أن تتعافى السيدة كارمايكل يجب إبعادها عن ولدون. لعل هذه القوة المروعة تعجز عن اتباعها. وهكذا مرت الأيام.
حددت يوم الثامن عشر من سبتمبر كموعد لإبعاد السيدة كارمايكل عن المنزل. وفي صباح اليوم الرابع عشر وقعت الكارثة غير المتوقعة.
كنت في المكتبة أناقش تفاصيل حالة السيدة كارمايكل مع ساتل

عندما اقتحمت خادمة الغرفة بسرعة.
صاحت قائلة: "أوه! سيدي. تعال بسرعة! السيد آرثر ـــــ لقد سقط في البركة. لقد قفز على القارب فاندفع به، ثم اختل توازن القارب وسقط في البركة! لقد رأيت ذلك من النافذة".
بسرعة، ركضت خارج الغرفة وساتل من خلفي. كانت فليس خارج الغرفة وسمعت قصة الخادمة فركضت معنا.
صاحت قائلة: "لا داعي للخوف. آرثر سباح ممتاز".
ولكنني شعرت بنذير شؤم، فضاعفت سرعتي. كان سطح البركة ساكناً. طفا القارب الخاوي على السطح ـــــ ولكن لم يكن هناك أي أثر لـ آرثر.
خلع ساتل معطفه وحذاءه، وقال: "سوف أنزل البركة, خذ أنت المجداف وابحث عنه في الجانب الآخر من البركة. إنها ليست عميقة".
بدا كأن وقتاً طويلاً للغاية مر ونحن نبحث عن آرثر بدون جدوى. لحظة تلو أخرى. وعندما أصابنا اليأس، وجدناه، وحملنا جسمه الذي بدا لا حياة فيه إلى الشاطئ.
لن أنسى الحزن البائس الذي ارتسم على وجه فليس ما حييت.
"لم ـــــ لم ـــــ" رفضت شفتاها أن تنطق الكلمة المخيفة.
قلت لها: "لا، لا يا عزيزتي. سوف نفيقه حالاً. لا تخافي أبداً".
ولكن الأمل لم يكن قوياً بداخلي. فقد ظل تحت الماء ما يقرب من نصف ساعة. أرسلت ساتل إلى المنزل ليحضر بطاطين وبعض الأشياء الضرورية، وبدأت أنا في عمل تنفس صناعي له.
عملنا بكل وسعنا معه لأكثر من ساعة، ولكنه لم يبد أية استجابة للحياة. فاقترحت على ساتل أن يأخذ مكاني مرة أخرى، واقتربت أنا من فليس.
قلت لها بلطف: "أخشى ألا يكون هناك أمل. لم يعد بوسعنا مساعدته".
ظلت ثابتة للحظة، وفجأة رمت نفسها على الجسد الخالي من الحياة.
صاحت قائلة: "آرثر! آرثر! عد لي! آرثر ـــــ عد لي! عد لي!".
دوى صوتها في المكان الذي خيم عليه الصمت. وفجأة لمست ذراع ساتل وقلت له: "انظر!".
سرى لون خفيف في وجه الرجل الغريق. واستشعرت نبضات قلبه.
صحت قائلاً: "استمر في إجراء التنفس الصناعي، إنه يستعيد الحياة!".
بدت اللحظات تمر الآن. وخلال وقت قصير جداً فتح عينيه.
وفجأة لمست الفارق. كانت عينين طبيعيتين، آدميتين، ذكيتين.
ثبت عينيه على فليس.
قال بصوت ضعيف: "مرحباً! فليس. هل هذا أنت؟ ظننت أنك لن تأتي

قبل الغد".
ولكنها لم تستطع أن تأتمن نفسها على الكلام واكتفت بالتبسم في وجهه، فنظر حوله بحيرة متزايدة.
"ولكن أين أنا؟ وكيف وصلت لهذه الحالة الرثة! ما خطبي؟ مرحباً دكتور ساتل!".
أجابه ساتل وهو متجهم قائلاً: "كنت على وشك الغرق تقريباً ـــــ هذا هو كل ما في الأمر".
عبس السير آرثر.
"كنت أسمع دوماً أن إفاقة الغريق أمر بشع! ولكن كيف حدث ذلك؟ هل كنت أسير وأنا نائم؟".
هز ساتل رأسه نافياً.
قلت وأنا أتقدم للأمام: "يجب أن نأخذه إلى المنزل".
أمعن النظر فيّ، وقدمتني فليس له: "إنه دكتور كارستيرز، الذي يمكث معنا".
ساعدناه على الوقوف بيننا وبدأنا في السير نحو المنزل. وفجأة نظر كأن فكرة واتته.
"دكتور، هذا لن يمنعني من إتمام زواجنا في الثاني عشر من الشهر، أليس كذلك؟".
قلت ببطء: "الثاني عشر؟ تقصد الثاني عشر من أغسطس؟".
"نعم ـــــ الجمعة المقبلة".
قال ساتل فجأة: "اليوم هو الرابع عشر من سبتمبر" بدت الحيرة واضحة عليه.
"ولكن ـــــ ولكنني ظننته الثامن من أغسطس؟ قطعاً كنت مريضاً إذن؟".
تدخلت فليس بسرعة بصوتها الحنون.
"نعم، كنت مريضاً جداً".
عبس وتجهم وجهه. "لا أفهم، كنت بخير حال عندما ذهبت إلى السرير الليلة الماضية ـــــ طبعاً لم تكن الليلة الماضية. وراودتني أحلام. أذكر أحلاماً..." اقترب حاجباه من بعضهما أكثر في محاولة منه للتذكر. "عن شيء ـــــ ماذا كان؟ شيء مروع ـــــ شخص فعل ذلك بي ـــــ وكنت غاضباً ـــــ يائساً... ثم حلمت أنني كنت قطة ـــــ نعم قطة! حلم مضحك، أليس كذلك؟ ولكنه لم يكن حلماً مضحكاً. كان مروعاً! ولكنني لا أستطيع أن أذكره. كل شيء أنساه عندما أفكر".
وضعت يدي على كتفه وقلت له: "لا تحاول أن تفكر السير آرثر". ثم

قلت له بشجاعة: "حاول أن ـــــ تنسى".
نظر إلي بطريقة حائرة وأومأ برأسه. سمعت فليس تلتقط أنفاسها بشكل ينم عن الراحة. ثم وصلنا إلى المنزل.
وفجأة قال السير آرثر: "بالمناسبة، أين أمي؟".
قالت فليس بعد توقف دام لحظة: "لقد كانت ـــــ مريضة".
رن صوته بنبرة اهتمام حقيقي قائلاً: "أوه! يا لوالدتي المسكينة! أين هي؟ في غرفتها؟".
قلت له: "نعم، ولكن من الأفضل ألا تزعجها ـــــ "
تجمدت الكلمات على شفتي، عندما انفتح باب غرفة المعيشة وخرجت السيدة كارمايكل، وهي متدثرة بثوب نسائي، إلى الردهة.
كانت عيناها مثبتتين على آرثر. لم أرَ في حياتي نظرة رعب ممزوج بذنب مثل الذي رأيتها على وجهها. كان من الصعب أن نصف وجهها بأنه آدمي من الرعب الجنوني الذي بدا عليه. وضعت يدها على حلقها.
تقدم آرثر نحوها بحب صبياني.
"مرحبًا يا أمي! إذن مرضت أنت أيضًا؟ أنا حزين من أجلك".
تراجعت من أمامه وعيناها تتسعان. وفجأة، كأن روحًا منحوسة سيطرت عليها، سقطت أمام باب الغرفة المفتوح.
أسرعت نحوها، ثم طلبت من ساتل الحضور.
قلت له: "خذه للطابق العلوي في هدوء ثم انزل بعد ذلك. السيدة كارمايكل توفيت".
عاد بعد بضع دقائق، قال لي: "ما سبب الوفاة؟".
قلت له بتجهم: "الصدمة. صدمة رؤية آرثر يعود إلى الحياة! أو يمكنك أن تسميه، مثلما أفضل، العدالة الإلهية!".
قال بتردد: "أتعني ـــــ؟ "
نظرت إلى عينيه حتى يفهم.
قلت بمهابة: "نفس بنفس".
"ولكن ـــــ ".
"أوه! أعرف أن حادثًا غريبًا وغير متوقع أعاد روح آرثر كارمايكل إلى جسده من جديد. ولكن رغم ذلك، كان آرثر كارمايكل قد قتل فعلاً".
نظر إلي بخوف، وسألني بصوت منخفض: "بحمض بروسيك؟" .
أجبته: "نعم. بحمض بروسيك".

لم أتحدث أنا أو ساتل عن ظنوننا. فمن غير المحتمل أن تلقى التصديق. وفقًا لوجهة النظر الروحية كان آرثر كارمايكل يعاني فقدانًا في الذاكرة، ومزقت السيدة كارمايكل رقبتها بيديها في لحظة جنون. أما عن ظهور قطة رمادية فهو من نسج الخيال.

ولكن من وجهة نظري هناك حقيقتان واضحتان تمام الوضوح. إحداهما هي الكرسي الممزق الموجود في الردهة، أما الحقيقة الثانية وهي الأكثر أهمية، فهي الكتالوج الذي وجد في المكتبة، وبعد بحث مضنٍ ثبت أن المجموعة المفقودة كانت عملاً قديمًا وغريبًا على احتمالات تحويل البشر إلى حيوانات!

وهناك شيء آخر أيضًا، وهو سعادتي لأن آرثر لم يعرف أي شيء عما حدث، فقد أخفت فليس السر الذي استمر طوال تلك الأسابيع في قلبها، كما أنني واثق تمامًا أنها لن تكشف عنه أبدًا لزوجها الذي تحبه كثيرًا، والذي عاد إلى الحياة بعدما كان في براثن قبره من خلال نداء صوتها.

نداء الأجنحة

I

سمع سيلاس هامر بهذا الأمر لأول مرة في ليلة شتوية في شهر فبراير. كان هو وديك عائدين من حفل عشاء أقامه بيرنارد سلدون؛ إخصائي الأعصاب. كان بورو صامتًا على غير العادة، فسأله سيلاس هامر بفضول عما يفكر فيه. فكانت إجابة بورو غير متوقعة.

"كنت أفكر أن من بين كل الرجال الذين كانوا معنا الليلة، هناك اثنان فقط بإمكانهما ادعاء السعادة. وهذان الاثنان ـــــ وهو الغريب في الأمر ـــــ هما أنت وأنا!".

كانت كلمة "غريب" في محلها، فليس هناك اثنان مختلفان أكثر من ريتشارد بورو؛ رجل الدين الذي يعمل بجد والقاطن في إيست إند بلندن، وسيلاس هامر؛ الثري حسن المظهر، الراضي تمامًا عن نفسه، والذي لا يمكنه عد أو حصر ملايينه.

قال بورو وهو مستغرق في التفكير: "هذا غريب. أتعرف! أعتقد أنك المليونير الوحيد الذي عرفته سعيدًا وراضيًا عن نفسه".

التزم هامر الصمت للحظة. وعندما تحدث كانت نبرة صوته قد تغيرت.

"لقد كنت بائع صحف بائسًا صغيرًا. أردت ذلك ـــــ أردت ما أصبحت أملكه الآن! ـــــ الراحة والرفاهية اللتين يجلبهما المال، وليس قوتهما. أردت المال، لا لأستخدمه كمصدر قوة، وإنما لأنفقه بسخاء على نفسي! أنا صريح مع نفسي في ذلك. فالمال لا يمكنه شراء كل شيء كما يقولون. وهذا صحيح تمامًا، ولكنه يجعلني أشتري كل ما أريده، لذلك أنا سعيد. أنا إنسان مادي يا بورو، مادي حتى النخاع!".

أكد الشارع الواسع العريض المضاء اعترافه هذا. فقد كان سيلاس هامر متدثرًا بمعطف ثقيل تغطي أطرافه الفراء، كما أكد الضوء الأبيض الذي وقع على وجهه سُمْك الشحم الموجود أسفل ذقنه. على العكس منه كان ديك بورو يسير إلى جانبه، بوجه نحيل متقشف، وعينين تملؤهما الحماسة تتطلعان إلى النجوم.

قال هامر بتأكيد: "أنا لا أفهمك".

ابتسم بورو.

"أنا أعيش وسط التعاسة، والحاجة والحرمان، وكل أمراض البدن! وهناك رؤية

مهيمنة تسيطر عليّ. ليس من السهل أن تفهم ذلك إلا إذا كنت تؤمن بالرؤى، وهو ما أظنك لا تؤمن به".

قال سيلاس هامر بتبلد: "أنا لا أؤمن بأي شيء لا أراه، أو أسمعه أو ألمسه".

"بالضبط، هذا هو الفارق بيننا. حسنًا، الوداع، سوف أتركك الآن!".

وصلا إلى بوابة محطة قطار مترو الأنفاق المضاءة، والتي كانت في طريق بورو إلى منزله.

تابع هامر طريقه وحده. كان سعيداً أنه أرسل سيارته إلى المنزل واختار أن يعود إلى منزله سيراً على قدميه. كان الهواء شديداً وبارداً، وكان يستشعر بحواسه سعادة التمتع بالدفء الذي يُشعِره به معطفه المكسو بالفراء.

توقف للحظة عند الرصيف قبل أن يعبر الطريق. كانت هناك حافلة كبيرة تشق طريقها نحوه. فانتظر هامر مرورها وهو لديه متسع كبير من الوقت، فلو كان مر من أمامها، لكان عليه أن يسرع ـــــ والعجلة شيء يكرهه كثيراً.

إلى جانبه كان هناك سباق بشري محموم لأشخاص يركضون في محاولة للوصول إلى الرصيف. سمع هامر صوت صرخة، ثم شاهد انعطاف الحافلة بدون جدوى، وبعدها نظر بغباء، ورعب متزايد يرتسم على وجهه، وهو ينظر إلى كومة الملابس الواقعة في منتصف الطريق.

في لمحة بصر اجتمعت حشود غفيرة، وتواجد سائق الحافلة واثنان من رجال الشرطة في المنتصف بالضبط. ولكن هامر ثبت عينيه على الكومة التي لا حياة فيها والتي كان رجلاً من قبل ـــــ رجلاً مثله! فارتعد جسمه كأنه تلقى تهديداً.

قال له رجل خشن المظهر كان يقف إلى جواره: "لا تلم نفسك يا سيدي. لم يكن باستطاعتك عمل شيء له. كان سيحدث ذلك بأية حال".

حدق هامر إليه. ففكرة إمكانية عمل أي شيء لإنقاذ حياة الرجل لم تخطر على باله من الأساس. ولكنه وجد الفكرة الآن سخيفة. لماذا إذن كان بهذه الحماقة؟ يفكر في تلك اللحظة... تداعت الأفكار عليه على نحو مفاجئ، فابتعد عن الحشود. شعر بأنه يرتجف من خوف مروع لا يوصف ولا يخمد. اضطر لأن يعترف لنفسه بأنه كان خائفاً ـــــ خائفاً إلى حد الموت... الموت الذي يأتي بسرعة مروعة ويقين لا يعرف الندم إلى الأغنياء والفقراء على حد سواء...

سار بخطى أسرع، ولكن الخوف الجديد كان لا يزال بداخله، يحيط به بقبضته الباردة.

تعجب من نفسه، فقد كان يعرف أنه ليس جباناً بطبعه. تذكر أنه منذ سنوات مضت، لم يكن هذا الخوف يخالجه أبداً، فالحياة لم تكن بهذه الحلاوة بالنسبة له... نعم

تلك هي الحقيقة؛ حب الحياة هو مفتاح اللغز. التحمس للحياة أصبح في أوجه بالنسبة له، وليس هناك مصدر تهديد لها سوى الموت، المدمر!

خرج من الطريق المضاء. كان هناك ممر ضيق، جدرانه عالية يختصر عليه الطريق إلى الميدان القابع فيه منزله، والذي كان مشهوراً بكنوزه الفنية.

قلّت الضوضاء الصادرة من الشارع الكائن خلفه حتى تلاشت تدريجيًا، ولم يسمع سوى وقع خطوات أقدامه الخفيف المكتوم على الطريق.

وفجأة صدر صوت آخر من الظلمة الممتدة أمامه. كان هناك رجل يجلس عند الحائط يعزف الفلوت. واحد من مجموعة كبيرة من عازفي الشوارع بالطبع، ولكن لماذا اختار مثل هذه البقعة الغريبة؟ طبعاً في هذا الوقت من المساء ـــــ انقطع حبل أفكار هامر فجأة عندما أدرك أن الرجل ليس لديه قدمان؛ الأمر الذي صدمه كثيراً. ووجد إلى جواره عكازين مستندين إلى الحائط إلى جواره. كما رأى هامر الآن أنه لم يكن يعزف على الفلوت وإنما على آلة موسيقية غريبة كانت أنغامها أعلى وأوضح بكثير من أنغام الفلوت.

استمر الرجل في العزف على الآلة. لم يلحظ اقتراب هامر منه. كان يرجع رأسه إلى الخلف ملقياً إياها على كتفه، كأن متعة الموسيقى الذي يعزفها نقلته لعالم آخر، وكانت الأنغام تخرج واضحة ومبتهجة، فكانت ترتفع لأعلى وأعلى...

كانت نغمة غريبة ـــــ على وجه الدقة لم تكن نغمة على الإطلاق، وإنما عبارة واحدة، قريبة الشبه بعزف رينزي على الكمان، كان يكررها مرة تلو أخرى، متنقلاً من مستوى صوتي لآخر، ومن تناغم لآخر، ولكنها كانت ترتفع دوماً فتحقق في كل مرة درجة أعلى من الحرية لا حد لها.

كانت النغمات مختلفة تماماً عن كل ما سمعه هامر من قبل. كان فيها شيء غريب، شيء ملهم، يسمو بسامعه ... إنها .... أمسك بكلتا يديه ـــــ على نحو جنوني ـــــ الانعكاس الموجود على الجدار المجاور له. كان يعي أمراً واحداً فقط ـــــ أنه يجب أن يكبح زمام نفسه ـــــ بأي ثمن يجب أن يكبح نفسه...

وفجأة أدرك توقف الموسيقى، فوجد الرجل مبتور القدمين يمد ذراعيه ليصل إلى عكازيه الخشبيين، وكان سيلاس هامر يمسك بقوة في نتوء حجري، لسبب بسيط ومناف للعقل تماماً، فكرة قد تبدو سخيفة ـــــ وهو أنه يرتفع عن الأرض ـــــ وأن الموسيقى ترفعه لأعلى...

ضحك. يا لها من فكرة مجنونة! بالطبع لم ترتفع قدمه عن الأرض ولا لحظة، ولكن كم كانت هلوسة غريبة! وعندما سمع نقر العكاز الخشبي على الرصيف علم أن الرجل مبتور القدمين يمضي في طريقه. فتابعه بنظره حتى اختفى تماماً في ظلمة الليل. يا له من شخص غريب!

تابع طريقه ببطء أكبر. لم يستطع أن يطرد من عقله ذلك الإحساس الغريب المستحيل الذي انتابه بأن الأرض انخفضت أسفل قدميه...
وفجأة وبدون مقدمات، التفت بسرعة وأسرع في الاتجاه الذي سار فيه الرجل الآخر. من المستحيل أن يكون الرجل ابتعد عنه كثيراً ـــــ سوف يلحق به سريعًا.

بمجرد أن رأى الرجل مبتور القدمين وهو يترنح ببطء ناداه.

"ياا! أتسمح بدقيقة؟".

وقف الرجل ثابتًا في مكانه حتى لحق به هامر. كان هناك مصباح مضاء فوقه فكشف عن كل ملامح وجهه. التقط سيلاس هامر أنفاسه بدهشة تلقائية. كان الرجل يتمتع برأس جميل وغريب لم ير مثله من قبل. من الممكن أن تعطيه أية سن، ولكنه قطعًا لم يكن صبيًا، إلا أن الشباب كان أكثر سمة مسيطرة عليه ـــــ الشباب والحماسة في أوجههما!

وجد هامر صعوبة غريبة في البدء في الحديث معه.

قال على استحياء: "اسمعني. أريد أن أعرف ما اللحن الذي كنت تعزفه منذ قليل؟".

ابتسم الرجل... وبهذه الابتسامة بدا العالم كأنه دخل في حالة مفاجئة من البهجة...

"إنه لحن قديم ـــــ قديم للغاية... منذ سنين ـــــ أو ربما قرون".

تحدث بوضوح ونقاء وتفرد غريب، كأنه يعطي كل كلمة يتفوه بها القدر نفسه من الأهمية. واضح أنه ليس إنجليزيًا، ولكن هامر لم يستطع تحديد جنسيته.

"أنت لست إنجليزيًا؟ من أين أتيت؟".

ارتسمت على وجه الرجل الابتسامة المبهجة نفسها.

"من وراء البحار يا سيدي. لقد جئت ـــــ منذ زمن طويل ـــــ منذ زمن طويل جدًا".

"قطعًا مررت بحادث مروع. هل حدث ذلك مؤخرًا؟".

"منذ فترة الآن يا سيدي".

"من الصعب أن تفقد كلتا قدميك".

قال الرجل بهدوء شديد: "الحمد لله". ثم حول ناظريه برزانة غريبة إلى محدثه. "كانتا شرًا".

وضع هامر شلنًا في يده وابتعد عنه. شعر بحيرة وارتباك لم يعرف سببهما. "كانتا شرًا!" كم من الغريب أن يقول ذلك! واضح أنها كانت عملية لمداواة مرض معين،

ولكن كم بدا الأمر غريباً.

ذهب هامر لمنزله وهو يفكر. حاول بدون جدوى أن يصرف هذه الواقعة من تفكيره. استلقى على السرير، وعندما استحوذت عليه أولى علامات النعاس، سمع دقات ساعة قريبة منه تعلن الساعة الواحدة. دقة واحدة واضحة ساد بعدها الصمت ـــــ صمت كسره صوت مألوف خافت... أدرك حقيقة الأمر. شعر هامر بأن قلبه ينبض بسرعة. إنه عزف الرجل الذي قابله في الممر، في مكان ما ليس بعيداً عنه...

سمع الألحان السارة، والتحول البطيء لندائه المبهج، والعبارة الصغيرة نفسها التي سيطرت عليه... تمتم هامر قائلاً: "هذا غير طبيعي. إنها تتمتع بأجنحة..."

بوضوح أكبر وأكبر، وبصوت أعلى وأعلى ـــــ كانت كل موجة ترتفع أعلى من التي تسبقها، وتجعله يلحق بها. ولكنه لم يقاوم نفسه هذه المرة، بل ترك العنان لنفسه... أعلى ـــــ أعلى... كانت موجات الصوت ترفعه لأعلى وأعلى... تسللت إليه معلنة انتصارها.

أعلى وأعلى... تجاوزت حدود الصوت البشري الآن، ولكنها استمرت ـــــ ترتفع أكثر فأكثر... هل ستصل إلى الهدف النهائي ـــــ أوج علوها؟

ترتفع...

شيء ما كان يجذبه ـــــ شيء يجذبه لأسفل. شيء كبير وثقيل ومُلح. شيء جلب الندم بشكل تدريجي، جذبه لأسفل، وأسفل ... وأسفل.

استلقى على سريره وهو يحملق إلى النافذة المقابلة له. بعد ذلك، مد ذراعه خارج السرير وهو يتنفس بثقل وصعوبة. بدت الحركة شاقة عليه للغاية الأمر الذي وجده غريباً. كانت نعومة السرير ثقيلة، كما كانت الستائر الثقيلة الموضوعة على النافذة التي تحجب الضوء والهواء ثقيلة للغاية. بدا السقف كأنه يطبق عليه. شعر بالاختناق. فقام وتحرك في المنزل بملابس نومه، شاعراً بأن ثقل جسمه أثقل من أي شيء آخر...

II

"أريد نصيحتك يا سلدون".

أرجع سلدون كرسيه بوصة تقريباً للخلف مبعداً إياه عن الطاولة. كان يتساءل في نفسه عن سبب هذا العشاء الشخصي. لم يرَ هامر سوى مرات قليلة طوال الشتاء، وكان يستشعر الليلة وجود تغير في صديقه لم يستطع تحديده.

قال المليونير: "إنني قلق على نفسي".

ابتسم سلدون وهو ينظر عبر الطاولة.

"تبدو بصحة ممتازة".

سكت هامر للحظة، ثم أردف قائلاً: "الأمر ليس كذلك. أخشى أنني أفقد عقلي".

رمقه إخصائي الأعصاب باهتمام مفاجئ. وسكب لنفسه كوبًا من الشراب بحركة بطيئة بعض الشيء، ثم قال بهدوء، وهو يرمق الرجل الآخر بنظرة حادة: "ما الذي يجعلك تظن ذلك؟".

"شيء ما حدث لي. شيء لا يصدق، ولا يمكن شرحه. لا يمكن أن يكون حقيقيًا، فإني لذلك قطعًا جننت".

قال سلدون: "خذ وقتك، واحكِ لي ما حدث".

بدأ هامر في الحديث: "أنا لا أؤمن بالأشياء الخرافية. ولم أؤمن بها يومًا. ولكن هذا الشيء... حسنًا، من الأفضل أن أروي لك القصة بالكامل من البداية. لقد بدأ الأمر في مساء ليلة شتوية بعدما تناولت العشاء معك".

وباختصار ودقة قص عليه الأحداث التي حدثت له وهو في طريقه إلى المنزل والأحداث الغريبة التي تلتها.

"كانت هذه هي بداية كل شيء. لا أستطيع أن أشرح لك الأمر بشكل ملائم ـــــ أعني الإحساس الذي انتابني ـــــ ولكنه كان رائعًا! مختلفًا عن أي شيء آخر استشعرته أو حلمت به. حسنًا، لقد لازمني منذ ذلك الوقت. طبعًا لم يلازمني كل ليلة، وإنما بين الحين والآخر. الموسيقى، إحساسي بأنني أرتفع، وتحليقي... ثم الجذب المروع، وعودتي إلى الأرض، وبعد ذلك الألم، والألم البدني الذي أستشعره عندما أستيقظ. شعرت كأنني أهبط من جبل عالٍ، أتعرف الألم الذي تستشعره في أذنيك عندئذ؟ حسنًا إنه الإحساس نفسه، ولكن أشد ـــــ وشعرت معه بإحساس مروع بالثقل ـــــ إنني محاصر، مخنوق..."

ثم توقف عن الكلام وساد صمت.

"يظنني الخدم مجنونًا بالفعل. لا أطيق السقف أو الجدران ـــــ لذلك أعددت مكانًا أعلى المنزل، مفتوحًا إلى السماء، ليس فيه أثاث أو سجاجيد، أو أي شيء يخنقني... ورغم ذلك، أجد المنازل المحيطة بي تشعرني بالسوء. أريد مكانًا مفتوحًا ـــــ مكانًا يمكن للمرء أن يتنفس فيه...". توقف عن الكلام، ثم نظر إلى سلدون وقال له: "حسنًا، ما رأيك؟ هل يمكنك أن تفسر الأمر؟".

قال سلدون: "مممم. هناك الكثير من التفسيرات، فإما أن تكون قد خضعت لتنويم مغناطيسي، أو أن تكون أخضعت نفسك لتنويم مغناطيسي. وقد تكون أعصابك متعبة. أو لعله مجرد حلم".

هز هامر رأسه نافيًا: "لا شيء من هذه التفسيرات".

قال سلدون ببطء: "وهناك تفسيرات أخرى، ولكن الناس لا يعترفون بها".

"يمكنك أن تعترف بها؟".

"بشكل عام، نعم! هناك قدر كبير لا يمكننا أن نفهمه أو نشرحه بشكل منطقي. إلا أن هناك قدراً كبيراً منها موجود فعلاً، لهذا السبب أنا أؤمن بضرورة التمتع بعقل مفتوح".

سأله هامر بعد فترة صمت: "بماذا تنصحني؟".

مال سلدون بخفة نحو الأمام: "أمامك عدة اختيارات، ابتعد عن لندن، ابحث عن "المكان المفتوح" ـــــ الذي تنشده. وقد تكف هذه الأحلام عن مراودتك".

قال هامر بسرعة: "لا يمكنني أن أفعل ذلك. لقد وصلت إلى حد أعجز فيه عن القيام بذلك. لا أريد أن أستغني عنها.

"أها! وجدتها. هناك بديل آخر، اعثر على هذا الشخص مبتور القدمين. أنت تصفه الآن بكل السمات الخارقة للطبيعة. تحدث إليه. وحرر أفكارك".

هز هامر رأسه ثانية.

"ولم لا؟".

قال هامر بمنتهى البساطة: "أنا خائف".

أبدى سلدون حركة تدل على نفاد صبره، فقال: "لا تؤمن بكل ذلك بشكل أعمى! تلك النغمة ـــــ الوسيط الذي بدأ في كل ذلك ـــــ كيف كانت؟".

دندن هامر النغمة، واستمع إليها سلدون وهو مقطب جبينه بطريقة تنم عن الحيرة.

"أشبه بمقطوعة موسيقية لرينزي. هناك شيء يرفعك في هذه الموسيقى ـــــ كأن لها أجنحة. ولكنني لم أرتفع عن الأرض. والآن هل المرات التي حلقت فيها، واحدة جميعاً؟".

مال هامر نحو الأمام بشغف وقال: "لا، لا. إنها تتطور. أرى كل مرة قدراً أكبر. من الصعب أن أشرح الأمر. هل تفهمني، أعرف دوماً أنني وصلت إلى حد معين ـــــ تحملني الموسيقى إلى هناك ـــــ ليس مباشرة، وإنما بتتابع الأمواج، وفي كل مرة أصل إلى درجة أعلى من التي تسبقها، حتى أصل لأعلى نقطة حيث لا يمكنني أن أعلو أكثر، فأبقى هناك حتى أُجذب لأسفل. إنه ليس مكاناً، وإنما حالة. بعد فترة قصيرة، بدأت أفهم أن هناك أشياء أخرى تحيط بي تنتظرني حتى أصبح مستعداً لاستقبالها. فكر في قطة صغيرة. لها عينان، ولكنها لا ترى بهما في البداية، فهي تولد عمياء حتى تتعلم أن ترى. هذا هو ما حدث معي بالضبط. فالعينان والأذنان الفانيتان لم تصبح مفيدة لي، ولكن هناك شيئاً مماثلاً لها، لم يتطور بعد ـــــ شيئاً ليس مادياً أبداً. يكبر شيئاً فشيئاً...

فأشعر بالضوء... ثم الصوت... ثم اللون... كلها ضبابية وغير تامة. الأمر متعلق بمعرفة الأشياء أكثر من رؤيتها أو سماعها. أولاً يأتي الضوء؛ ضوء يزداد قوة ووضوحاً... ثم رمال، بقاع كبيرة من الرمال الحمراء... وأرى بين الحين والآخر أمواجاً طويلة لماء مثل القنوات ـــــــ ".

التقط سلدون أنفاسه بقوة وقال: "قنوات! هذا مثير. تابع كلامك".

"ولكن هذه الأشياء غير مهمة حقاً ـــــ لم تعد مهمة بعد. الشيء المهم هي الأشياء التي لم أرها بعد ـــــ ولكنني أسمعها... إنه صوت مثل رفرفة أجنحة... لا أستطيع أن أشرح السبب، ولكنه كان بديعاً بشكل ما! ليس هناك شيء مثله هنا. ثم تأتي حالة أخرى ـــــ رأيتها ـــــ الأجنحة! أوه يا سلدون، الأجنحة!".

"ولكن ماذا كانت؟ رجال ـــــ كائنات أخرى ـــــ طيور؟".

"لست أدري. لم أرها، لم أرها بعد. ولكن ألوانها! لون جناح ـــــ لم أصل إليه بعد ـــــ ولكنه لون بديع".

كرر سلدون كلامه: "لون جناح؟ كيف يبدو؟".

أشاح بيده بنفاد صبر قائلاً: "كيف أستطيع أن أصفها؟ كيف أصف اللون الأزرق لشخص أعمى! إنه لون لم تره من قبل ـــــ لون جناح!".

"إذن؟".

"إذن؟ هذا كل شيء. هذا على حد ما وصلت إليه. ولكن، في كل مرة تكون العودة أسوأ ـــــ وتكون مؤلمة أكثر. لا أستطيع أن أفهم ذلك. أنا مقتنع بأن جسمي لم يغادر السرير قط. في هذا الوضع أصبحت مقتنعاً بأنه لم يعد لدي وجود مادي. فلماذا يؤلمني لهذا الحد إذن؟".

هز سلدون رأسه في صمت.

"إنه شيء مروع ـــــ العودة. الجذب الذي أستشعره خلالها ـــــ ثم الألم؛ ألم في كل مفصل وفي كل عصب، كما أشعر بأن أذنيّ تنفجران، ثم يضغط كل شيء عليّ بقوة، بكل ثقله ـــــ بالإحساس المروع بأنني مسجون. أريد ضوءاً، هواءً، مساحة ـــــ تعلو كل المساحات لأتنفس! وأريد الحرية".

سأله سلدون: "ومن بين كل هذه الأشياء، ما الذي يمثل أهمية كبرى بالنسبة لك؟".

"هذا أسوأ ما في الأمر، فقد أصبحت مهتماً بها أكثر من ذي قبل. وهذه الأشياء، الراحة، والرفاهية، والمتعة، تبدو كأنها تجذبني في اتجاه معاكس للأجنحة. إنه صراع أبدي يدور بينها ـــــ ولا أعرف إلى ماذا سينتهي".

جلس سلدون في صمت. كانت الحكاية الغريبة التي سمعها خيالية للغاية رغم حقيقتها. هل كل ذلك وهم، هلاوس جامحة، أم من الممكن أن تكون حقيقية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا هامر من بين كل البشر...؟ طبعًا الشخص المادي، الرجل الذي يعشق الجسد وينكر الروح، هو آخر رجل من الممكن أن يرى عالمًا آخر.

كان هامر يجلس على الجانب الآخر من الطاولة يراقبه بتلهف.

قال سلدون ببطء: "أعتقد، أنه لا يسعك سوى أن تنتظر. انتظر لترى ما سيحدث".

"لا أستطيع! قلت لك لا أستطيع! كلامك يوضح أنك لا تفهم. الأمر يقسمني إلى اثنين، ذلك النزاع المروع ـــــ ذلك الصراع المستمر بين ـــــ بين ـــــ "تردد في متابعة كلامه.

قال له سلدون مقترحًا: "الجسد والروح؟".

حدق هامر أمامه بقوة ثم قال: "أعتقد أننا يمكننا أن نصفه بذلك. على أية حال... الأمر لا يحتمل... لا يمكنني أن أتحرر...".

هز بيرنارد سلدون رأسه مرة أخرى. شعر بأنه محبوس بين براثن ما لا يمكن تفسيره, ثم أبدى اقتراحًا آخر.

نصحه قائلاً: "لو كنت مكانك، لبحثت عن هذا الشخص مبتور القدمين".

ولكن عندما عاد إلى المنزل تمتم محدثًا نفسه: "قنوات ـــــ أتساءل".

III

خرج سيلاس هامر من المنزل صباح اليوم التالي بخطى تدل على إصرار بداخله. قرر أن يعمل بنصيحة سلدون ويعثر على الرجل مبتور القدمين. ولكنه كان مقتنعًا في داخله بأن بحثه قد يكون عديم الجدوى، وأن الرجل الآخر سوف يختفي تمامًا كأن الأرض انشقت وابتلعته.

منعت المباني القاتمة الموجودة على الجانب الآخر من الممر أشعة الشمس الدخول، تاركة إياها مظلمة وغامضة. فقط في مكان واحد ، في منتصف الطريق، كان هناك شق في الحائط، عبر من خلاله شعاع ذهبي سقط مشعًا على شخص جالس على الأرض. شخص ـــــ نعم، كان الرجل!

كانت آلة المزمار مستندة إلى الحائط بجانب عكازيه، وكان يغطي الرصيف الحجري برسومات صنعها بطبشور ملون. كان قد انتهى من اثنين، مناظر من الغابة لجمال بهي وخلاب، أشجار متمايلة وجدول منساب بدا كأنه حقيقي.

انتاب الشك هامر مرة أخرى. هل هذا الرجل مجرد عازف ورسام يجوب الشوارع، أم أنه أكثر من ذلك...؟

وفجأة لم يستطع المليونير كبح نفسه، وصاح بعنف وغضب قائلاً: "من أنت؟ بحق الله من أنت؟".

التقت عينا الرجل بعينيه فابتسم له.

"لماذا لا تجيب؟ تكلم يا رجل، تكلم!".

ثم لاحظ أن الرجل كان يرسم بسرعة لا تصدق على لوح من الصخر. تابع هامر رسمه بعينيه... بضع حركات بالطبشور، فظهر شكل شجرة ضخمة. ثم رسم شيئًا يجلس على جلمود ضخم... رجل... يعزف بآلة المزمار. كان الرجل له وجه جميل بشكل غريب ـــــ وقدما ماعز...

قام الرجل مبتور القدمين بحركة سريعة. جلس الرجل بهدوء على الصخر، ولكن قدمي الماعز كانتا قد اختفتا، ثم التقت عيناه مرة أخرى بعيني هامر.

قال له: "كانتا شرًا".

حدق هامر مذهولاً، فقد أصبح الوجه الذي أمامه هو الوجه نفسه الموجود في الصورة، ولكنه أصبح أجمل، الأمر الذي كان غريبًا ولا يصدق... أصبح صافيًا من كل شيء باستثناء متعة الحياة الشديدة والجذابة.

التفت هامر وركض مسرعًا في الممر متجهًا إلى ضوء الشمس الساطع، وهو يردد على نفسه بدون تردد: "هذا مستحيل. مستحيل... أنا أحلم حلمًا جنونيًا!" .

دخل المتنزه وجلس على كرسي. كانت ساعة موحشة. كان هناك عدد قليل من المربيات يجلسن مع أطفال رضع تحت ظلال الأشجار، وهنا وهناك على المساحات الخضراء، استلقى بعض الرجال كأنهم جزر في بحر....

كانت عبارة "متشرد بائس" بالنسبة لهامر صورة مصغرة للبؤس. واليوم على نحو مفاجئ، أصبح يحسدهم...

استشعر أنهم من بين كل البشر، الأشخاص الوحيدون الأحرار. الأرض من تحتهم، والسماء من فوقهم. العالم ممتد أمامهم يتجولون فيه... ليسوا محاصرين، وليست عليهم أية قيود.

وفي لمح البصر، تراءى له أن ما يقيده بهذه الدرجة ويؤنب ضميره لهذه الدرجة هو الشيء الذي كان يعبده ويعطيه الأولوية على غيره ـــــ الثروة! كان يظن أنها أقوى شيء على الأرض، والآن، بعدما أحاطته قوتها الذهبية، رأى حقيقة كلماته. كانت أمواله هى ما يقيده ويشعره بالسجن...

ولكن هل هي كذلك؟ هل هذا صحيح؟ هل هناك حقيقة أعمق وأدق لم يرها بعد؟ هل كان المال أم أنه حبه الشخصي للمال؟ أصبح مقيداً بأغلال صنعها بيديه، ليست الثروة في حد ذاتها، ولكن حب الثروة كان هو السلسلة التي تقيده.

علم الآن بوضوح القوتين اللتين كانتا تتجاذبانه، القوة المركبة الدافئة التي تجلبها المادية والتي طوقته وأحاطته، وفي المقابل، النداء الإجباري ـــــ الذي سماه نداء الأجنحة.

وبينما كانت إحداهما تحارب وتتشبث بالحياة، كانت الأخرى تكره الحرب، ولا تنزل أبداً لمستوى الصراع. كانت تناديه فقط، تناديه بلا توقف... كان يسمعها بوضوح شديد لدرجة أنها حدثته بكلمات واضحة.

بدت كأنها تقول له: "لا يمكنك أن تتصالح معي، فأنا أعلو فوق جميع الأشياء الأخرى. إذا اتبعت ندائي، فيجب أن تتخلى عن كل شيء آخر وتتخلص من القوى التي تتشبث بك. فالحر وحده هو من يتبعني حيث أقوده...".

صاح هامر قائلاً: "لا أستطيع. لا أستطيع...".

التفت بعض الناس لينظروا إلى الرجل الكبير الجالس يحدث نفسه.

عليه أن يقوم بتضحية كبيرة، التضحية بالشيء الذي كان عزيزاً عليه للغاية، ذلك الشيء الذي كان جزءاً من نفسه.

جزءاً من نفسه ـــــ تذكر الرجل مبتور القدمين...

IV

سأل بورو: "أي ريح طيبة أتت بك إلى هنا؟".

هذا صحيح، فالتواجد في الإيست إند لم يكن أمراً مألوفاً بالنسبة لـ هامر.

قال المليونير: "لقد استمعت لعدد كبير من الخطب الدينية الجيدة. جميعها تتحدث عما يمكن عمله إذا كان لديكَ أموال. لقد جئت لأخبرك بما يلي: سوف يصير لديك مال".

أجابه بورو بشيء من الدهشة: "هذا جميل منك للغاية. جزء كبير، إيه؟".

ابتسم هامر بطريقة جافة وهو يقول: "بإمكاني أن أقول ذلك. كل مليم أملكه".

"ماذا؟".

قص عليه هامر التفاصيل بطريقة سريعة أشبه بطريقة رجال الأعمال. بدأ رأس

بورو في الدوران.

"أنت ـــــ أنت تعني أن تقول إنك تنازلت عن ثروتك لكي تخصصها لخدمة الفقراء والمحتاجين الموجودين في إيست إند بحيث أكون أنا الوصي عليها؟".

"بالضبط".

"ولكن لماذا ـــــــــ؟".

قال هامر ببطء: "لا أستطيع أن أشرح لك. هل تذكر كلامنا عن الرؤى في فبراير الماضي؟ حسنًا، سيطرت عليّ رؤيا معينة".

مال بورو للأمام وعيناه تلمعان وقال: "هذا رائع!".

قال هامر بتجهم: "ليس هناك شيء رائع تحديداً في ذلك. أنا لست مهتمًا بالفقر في الويست إند. فكل ما يحتاجون إليه هو التجلد والتحمل. لقد كنت فقيراً ـــــ وخرجت من هذا الفقر. ولكنني يجب أن أتخلص من المال، وهؤلاء الحمقى يجب ألا يحصلوا على المال. ولكنني أستطيع أن أثق بك. أطعم الأبدان أو الأرواح بهذا المال ـــــ ويستحسن أن تركز على الثانية. لقد كنت جائعًا، ولكن يمكنك أن تفعل بها ما يحلو لك".

تمتم بورو قائلاً: "لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا من قبل".

تابع هامر كلامه وقال: "الأمر كله تم وانتهى. وانتهى المحامون من إصلاح الوضع أخيراً، ووقعت على كل شيء. لقد كنت مشغولاً بهذا الأمر خلال الأسبوعين الماضيين. يبدو أن التخلص من ثروة أمر لا يقل صعوبة عن جمعها".

"ولكن ماذا عنك ـــــ قطعًا تركت لنفسك شيئًا؟".

قال هامر بابتهاج: "ولا مليم. ولكن هذا ليس صحيحًا، فقط تركت في جيبي بنسين". قالها وهو يضحك.

ثم ودع صديقه الذي تركه حائراً، وانتهى من مهمته وانطلق بعد ذلك إلى الشوارع التي تفوح منها رائحة الشر، وهو يردد عبارة "ولا مليم!". بسعادة بالغة وشعور مؤلم بالخسارة يراوده عن ثروته الكبيرة التي لم يبقَ منها لديه أي شيء. أصبح خائفًا الآن ـــــ خائفًا من الفقر، والجوع والبرد. لم تكن التضحية حلوة بالنسبة له.

ومن خلف كل ذلك كان مدركًا أن الثقل والتهديد انزاح عنه، لم يعد مقيداً أو مكبلاً. لقد آلمه وعذبه قطع السلسلة، ولكن رؤية الحرية كانت تقويه. قد تضعف احتياجاته المادية النداء، ولكن يستحيل أن تقضي عليه، فقد علم أنها مسألة أبدية لا يمكن أن تموت.

كانت هناك لمسة خريفية في الجو، وهبت رياح باردة. شعر بالبرد وارتعش، كما

أنه كان جائعًا أيضًا ـــــ فقد نسي أن يتناول غداءه. لقد قربه ذلك من المستقبل بسرعة كبيرة.

من المستحيل أن يكون قد تخلى عن كل ذلك: التحرر من القلق، والراحة، والدفء! صرخ جسمه من الضعف... عندئذ اعتراه مرة أخرى إحساس بهيج يرفعه ويحرره.

تردد هامر. كان قريبًا من محطة مترو الأنفاق. كان معه بنسان في جيبه. خطرت على باله فكرة، وهي أن يذهب إلى المتنزه الذي قابل فيه المتسكع المستلقي منذ أسبوعين. وفيما عدا ذلك لم يخطط لأي شيء في المستقبل. في الحقيقة كان يؤمن بأنه مجنون ـــــ وحتى المجانين لا يتصرفون مثلما فعل. ورغم ذلك، كان جنونًا رائعًا ومذهلاً.

نعم سوف يتجه الآن إلى المكان المفتوح، ألا وهو المتنزه، ولكن هناك أهمية خاصة بالنسبة له لكي يذهب إليها بمترو الأنفاق. فمترو الأنفاق يمثل بالنسبة له كل رهبة الدفن، وسجن الحياة... سوف يصعد من سجنها حرًا إلى الخضرة الواسعة والأشجار التي تخفي تهديد المنازل التي تخنقه.

جذبه المصعد بسرعة وبقسوة نحو الأرض. كان الهواء ثقيلاً خاليًا من الحياة. وقف على نهاية الرصيف بعيدًا عن الجماهير. كانت نهاية الرصيف على يساره؛ حيث يظهر القطار ـــــ الذي يشبه الثعبان. شعر بأن المكان برمته شر خفي. لم يكن إلى جواره أي شخص سوى غلام محدب غارق في الكرسي كأنه غارق في أفكاره.

على بعد، سمع ضوضاء قدوم القطار. نهض من فوق كرسيه ووقف في مكان هامر؛ حيث وقف على حافة الرصيف وهو يحدق إلى النفق.

وفجأة، وبسرعة كبيرة بدا كأنه فقد توازنه وسقط بطريقة غير معقولة...

اندفعت مئات الأفكار في وقت واحد إلى ذهن هامر. رأى كومة من الملابس ملقاة أمام حافلة، وسمع صوتًا أجش يقول: "لا تلم نفسك يا سيدي. لم يمكن باستطاعتك عمل شيء له". عندئذ علم أن هذه الحياة لا يمكن إنقاذها ـــــ إذا كان من الممكن إنقاذها ـــــ إلا من خلاله. لم يكن هناك شخص قريب منه، وكان القطار قريبًا... كل هذه الأفكار تواردت إلى ذهنه بسرعة كبيرة. شعر بهدوء غريب من وضوح الأفكار.

لم تكن أمامه سوى لحظة قصيرة يقرر فيها، وعلم في هذه اللحظة أن خوفه من الموت لا سبيل لتخفيفه. كان خائفًا إلى حد الموت، ثم ظهر القطار مسرعًا من منحنى النفق، لا سبيل لأن يتوقف في أية لحظة.

وبسرعة أمسك هامر الغلام من ذراعه. لم يكن هناك دافع نبيل يدفعه لعمل ذلك، فجسمه المرتعش كان يطيع أمر روح غريبة طلبت منه التضحية. وبجهد أخير دفع الفتى للأمام على الرصيف وسقط هو....

وفجأة اختفى خوفه. لم يعد العالم المادي يسيطر عليه. تحرر من قيوده.

تخيل للحظة أنه سمع العزف المبهج، ثم اقترب من الصوت حيث علا أكثر وأكثر ـــــ وابتلع كل شيء آخر ـــــ وحضرت أجنحة لا تعد ولا تحصى... طوقته وأحاطت به....

الجلسة الأخيرة

عبر راؤول دوبريل نهر السين وهو يدندن لحنًا لنفسه. كان شابًا فرنسيًا حسن المظهر في الثانية والثلاثين من عمره، متورد الوجه، ذا شارب أسود صغير. كان يعمل مهندسًا. وصل إلى منطقة كاردونيت في موعده بالضبط واتجه إلى المنزل رقم 17. فنظر إليه البواب من غرفته وقال له على مضض: "صباح الخير". ثم صعد درجات السلم حتى وصل إلى الشقة الكائنة في الطابق الثالث. قرع الجرس ووقف ينتظر من يجيبه، وهو يدندن لنفسه لحنًا آخر. كان راؤول دوبريل سعيدًا هذا الصباح. فتحت الباب سيدة فرنسية مسنة ارتسمت على وجهها المليء بالتجاعيد ابتسامة عندما رأت الزائر.

"صباح الخير يا سيدي".

قال لها راؤول: "صباح الخير أليس".

دخل الردهة وهو يخلع قفازيه.

سألها بدون أن يلتفت إليها: "السيدة تنتظرني، أليس كذلك؟".

"آه، طبعًا يا سيدي".

أغلقت أليس الباب الأمامي والتفتت نحوه.

يمكنك يا سيدي أن تدخل غرفة الاستقبال، وسوف تأتيك السيدة في غضون دقائق. فهي ترتاح قليلاً الآن".

نظر راؤول بحدة وقال لها: "هل هي متعبة؟".

"حسنًا!".

قالتها بلهجة لا تبشر بخير. تجاوزت راؤول وفتحت باب غرفة الاستقبال الصغيرة حتى يجلس فيها. فتبعها وتبعته.

تابعت كلامها قائلة: "حسنًا! كيف تكون بخير، يا لها من حمل مسكين؟ دائمًا ما تكون هناك جلسات روحية، والمزيد والمزيد منها! هذا ليس جيدًا ـــــ ليس طبيعيًا، لم يخلقنا الله لهذا. بالنسبة لي، أرى أنها ألاعيب من الشيطان".

ربت راؤول كتفها مطمئنًا إياها.

قال لها بلين: "اهدئي يا أليس، اهدئي، لا تنفعلي هكذا، ولا تزجي بالشيطان دومًا في

كل شيء لا تفهمينه".

هزت أليس رأسها في ريبة.

قالت متبرمة: "أها، حسنًا. بإمكانك أن تقول ما تشاء يا سيدي، ولكنني لا أحب هذه الجلسات. انظر إلى سيدتي، إنها تشتد شحوبًا ونحافة كل يوم، والصداع!".

رفعت يدها لأعلى.

"أها، لا، هذا ليس طبيعيًا، كل هذه الجلسات الروحية. روحية فعلاً! الأرواح الطيبة سكنت الجنة، أما الأرواح الأخرى فلا تزال على الأعراف".

قال راؤول وهو يجلس على الكرسي: "رؤيتك للحياة الأخرى بسيطة للغاية يا أليس".

وقفت السيدة العجوز في شموخ.

"أنا إنسانة متدينة يا سيدي".

خرجت من الغرفة متجهة نحو الباب، ثم توقفت، وهي تضع يدها على المقبض.

قالت له: "بعد زواجكما يا سيدي، لن تستمر في ذلك، أليس كذلك؟". كانت تتحدث بلهجة رجاء.

ابتسم لها راؤول بعطف.

قال لها: "أنت إنسانة طيبة قوية الإيمان يا أليس، كما أنك مخلصة لسيدتك. لا تخافي، بمجرد أن نتزوج، فإن كل هذه "الأعمال الروحية" كما تسمينها، سوف تتوقف. لن تكون هناك جلسات تحضير أرواح أخرى للسيدة دوبريل".

ابتسمت أليس ابتسامة عريضة.

سألته بشغف: "هل صحيح ما تقول؟".

أومأ الآخر بشجاعة.

قال لها كأنه يحدث نفسه لا يحدثها: "نعم، نعم يجب أن ينتهي كل ذلك. سيمون لديها هبة رائعة وقد أحسنت استخدامها، ولكنها يجب أن تلتفت لنفسها الآن. وكما قلت لتوك يا أليس، إنما تزداد شحوبًا ونحافة يومًا بعد الآخر. فحياة الوسيط الروحي مرهقة ومتعبة للغاية، تتطلب قدرًا كبيرًا من الجهد العصبي. وسيدتك يا أليس أفضل وسيط روحى في باريس كلها ـــــ بل في فرنسا. لذلك يأتيها الناس من كل أنحاء العالم؛ لأنهم يعرفون أنه ليس هناك غش أو خداع في الجلسات الروحية التي تجريها".

أصدرت أليس صوتًا ينم عن ازدراء.

"خداع! مستحيل. فالسيدة لا تستطيع أن تخدع طفلاً حديث الولادة حتى لو حاولت".

قال الشاب الفرنسي بحماسة: "إنها ملاك. وسوف أفعل كل ما بوسعي لأسعدها. أنت تصدقين ذلك؟".

اعتدلت أليس في جلستها، محدثة إياه باحترام.

"لقد خدمت السيدة سنوات عديدة يا سيدي، ويمكنني القول إنني أحبها بكل ما تعنيه الكلمة. إذا لم أكن مقتنعة بأنك تحبها كما تستحق ـــــ اعذرني يا سيدي! سأكون على أتم استعداد لأمزقك وأقطع أوصالك".

ضحك راؤول.

"أحسنت يا أليس! أنت صديقة مخلصة، ويجب أن تثقي بي عندما أقول لك إن السيدة سوف تتوقف عن القيام بهذه الجلسات بعد زواجنا".

توقع أن تستقبل السيدة العجوز الخبر بضحكة، ولكنها ظلت رزينة، الأمر الذي أدهشه.

قالت بتردد: "افترض يا سيدي، أن الأرواح لم تتركها؟".

حدق راؤول إليها.

"نعم! ما الذي تعنيه؟".

كررت أليس كلامها: "قلت، افترض أن الأرواح لم تتركها؟".

"ظننتك لا تؤمنين بالأرواح يا أليس؟".

قالت أليس بعناد: "لم أعد أؤمن بها. من الحماقة أن نؤمن بها. رغم ذلك ـــــ "

"حسنًا؟".

"من الصعب عليّ أن أشرح لك يا سيدي. لطالما كنت أعتقد أن الوسطاء الروحيين ـــــ كما يسمون أنفسهم ـــــ مجرد نصابين أذكياء يستغلون البسطاء والمساكين الذين فقدوا أعزاءهم. ولكن سيدتي ليست كذلك. سيدتي طيبة. سيدتي صريحة و ـــــــ ".

خفضت صوتها وتحدثت بنبرة تنم عن رهبة.

"هناك أشياء تحدث. أشياء ليست خدعة، هناك أشياء تحدث، ولهذا السبب أنا خائفة. فأنا واثقة من ذلك يا سيدي. هذا ليس جيداً. هذا ضد الطبيعة، يا إلهي! وسوف يدفع شخص ما الثمن".

نهض راؤول من كرسيه وربت كتفها.

قال لها مبتسمًا: "اهدئي يا أليس الطيبة. سوف أطلعك على خبر سار. اليوم ستكون آخر جلسة من جلسات تحضير الأرواح، لن تكون هناك جلسات بعد الآن".

سألته السيدة العجوز بريبة: "إذن هناك جلسة اليوم؟".

"آخر جلسة يا أليس، آخر جلسة".

هزت أليس رأسها كأنها لم تجد ما يواسيها في هذا الخبر.

قالت له: "سيدتي ليست على ما يرام ـــــــ ".

قطعت كلامها، عندما انفتح الباب، ودخلت سيدة طويلة جميلة الغرفة. كانت نحيفة وجميلة، ذات وجه بريء جميل. أضاء وجه راؤول، وانسحبت أليس بتروٍ.

"سيمون!".

أمسك يديها ذواتي الأصابع الطويلة البيضاء وضمهما بين يديه وقبلهما كلاً على حدة. فتمتمت باسمه بطريقة غاية في الرقة.

"حبيبي راؤول".

فقبل يديها مرة أخرى ثم تعمد النظر إلى وجهها. "سيمون، تبدين شاحبة للغاية! قالت لي أليس أنك ترتاحين، أنت ليستِ مريضة يا حبيبتي؟".

قالت بتردد: "لا، لست مريضة ـــــ ".

قادها إلى الأريكة وجلسا عليها.

"ماذا بك إذن؟".

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

تمتمت قائلة: "سوف تظنني حمقاء".

"أنا؟ أظنك حمقاء؟ مستحيل".

شدت سيمون يدها من يده. والتزمت الصمت للحظة أو اثنتين وهي تثبت ناظريها على السجادة. ثم تحدثت بصوت منخفض وسريع.

"أنا خائفة يا راؤول".

انتظر لحظة أو اثنتين وهو ينتظر أن تكمل كلامها، ولكنها لم تفعل، فقال مشجعًا إياها:

"نعم، خائفة من ماذا؟".

"خائفة فقط ـــــ هذا كل ما في الأمر".

"ولكن ـــــــــ ".

نظر إليها في حيرة، فأجابت نظرته بسرعة.

"نعم، هذه سخافة، أليس كذلك، ولكنني أشعر بذلك فحسب. خائفة فقط. لا أعرف مم أخاف، أو سبب خوفي، ولكن هناك فكرة تسيطر عليّ طوال الوقت أن هناك شيئًا مروعًا، مروعًا، سوف يحدث لي...".

ثبتت ناظريها للأمام، فضمها راؤول بين ذراعيه في حنان.

قال لها:"حبيبتي، تعالي، يجب ألا تستسلمي. أعرف السبب. إنه الجهد يا سيمون، الجهد الذي تبذله الوسيطة في عملها. كل ما تحتاجين إليه هو الراحة ـــــ الراحة والهدوء".

نظرت إليه بامتنان.

"نعم يا راؤول أنت محق. هذا هو ما أحتاج إليه. الراحة والهدوء".

أغمضت عينيها وأرجعت رأسها للخلف متكئة على ذراعه.

همس راؤول في أذنها: "والسعادة".

ضمها إليه أكثر بذراعيه. فأخذت سيمون، وهي لا تزال مغمضة عينيها نفسًا عميقًا.

تمتمت قائلة: "نعم، نعم. عندما تحوطني بذراعيك، أشعر بالأمان. أنسى حياتي ـــــ الحياة المروعة التي تحياها الوسيطة. أنت تعرف الكثير يا راؤول، ولكنك رغم ذلك لا تعرف ما يعنيه ذلك".

شعر بأن جسمها يتصلب في حضنه. فتحت عينيها مرة أخرى ونظرت أمامها.

"أن تجلس في الخلوة في الظلام، وتنتظر. والظلام مروع يا راؤول، إنه ظلام الخلوة، ظلام الفراغ. أتعمد أن أتخلى عن نفسي وأتركها لهذا الظلام الدامس. وبعد ذلك لا تعرف أي شيء، ولا تشعر بأي شيء، كل ما تشعر به هو العودة البطيئة المؤلمة، والاستيقاظ من النوم، وأنت تشعر بالإنهاك ـــــ إحساس مروع بالتعب".

تمتم راؤول قائلاً: "أنا أعرف، أعرف".

تمتمت سيمون ثانية: "تعب شديد".

بدا جسمها بالكامل يذبل وهي تكرر كلماتها.

"ولكنك رائعة يا سيمون".

أمسك يدها وهو يقول لها ذلك، وهو يحاول أن يعيدها إلى حماستها مرة أخرى.

"أنت إنسانة فريدة ـــــ أعظم وسيطة عرفها العالم كله".

هزت رأسها نافية، وهي ترسم على وجهها ابتسامة بسيطة.

أصر راؤول على قوله: "نعم، نعم".

أخرج خطابين من جيبه.

"انظري، هذا من الأستاذ روتشي بمستشفى بيتي سالباتير، وهذا من الدكتور جينير بمستشفى نانسي، كلاهما يتوسل أن تذهبي إليهما من وقت لآخر".

"أوه، لا!".

هبت سيمون واقفة على قدميها.

"لن أفعل، لن أفعل. لقد انتهيت من ذلك، انتهيت من كل ذلك. لقد وعدتني يا راؤول".

حدق راؤول إليها في دهشة وهي واقفة ترتعش كأنها على وشك الموت. فوقف وأمسك يدها.

قال لها: "نعم، نعم، طبعًا انتهى ذلك. هذا مفهوم. ولكنني فخور بك جدًا يا سيمون، لهذا السبب أخرجت هذين الخطابين".

رمقته بنظرة من طرف عينها تنم عن الريبة.

"ألا تريدني أن أذهب إليهما مرة أخرى؟".

قال راؤول: "لا، لا، إلا إذا كنت أنت تريدين ذلك، مرة كل حين إكرامًا لهؤلاء الأصدقاء القدامى".

ولكنها قاطعته وقالت بانفعال: "لا، لا، لن أفعل ذلك مرة أخرى أبدًا. هناك خطر. صدقني، أنا أشعر به، هناك خطر كبير".

وضعت يديها على جبينها للحظة، ثم سارت نحو النافذة.

قالت له وهي تنظر عبر النافذة بصوت أكثر هدوءًا: "عدني بألا أفعل ذلك مجددًا".

تبعها راؤول ووضع ذراعه على كتفها.

قال لها بحنان: "حبيبتي، أعدك بألا تقومين بعد اليوم بأية جلسة أخرى".

شعر بالرجفة المفاجئة التي انتابتها.

تمتمت قائلة: "اليوم. آه، نعم ـــــ لقد نسيت السيدة إكس".

نظر راؤول إلى ساعته. "إنها على وشك الوصول في أية لحظة الآن، ولكن إذا كنت متعبة فلعلك ـــــــ ".

كانت تسمعه بالكاد، بعدما غرقت في أفكارها الخاصة.

"إنها ـــــ سيدة غريبة يا راؤول ـــــ سيدة غريبة جداً هل تعرف أنا ـــــ أنا مرعوبة منها جداً".

"سيمون!".

كان صوته ينم عن عتاب، استشعرته بسرعة.

"نعم، نعم، أعرف، أنت مثل كل الرجال الفرنسيين. أنت تراها أمًا حزينة على فراق ابنتها وليس من الشهامة أن أشعر نحوها بذلك، وهي حزينة على طفلتها التي فقدتها لهذه الدرجة. ولكنني، لا أستطيع أن أشرح لك ذلك. إنها ضخمة للغاية وسوداء، ويداها، هل رأيتهما من قبل يا راؤول؟ يدان ضخمتان وقويتان، كأنهما يدا رجل. أها!".

ارتعش جسمها قليلاً، فأغمضت عينيها. سحب راؤول ذراعه وحدثها ببرود.

"لا أستطيع أن أفهمك حقًا يا سيمون. طبعًا سيدة مثلك، لا يمكن أن تضمر أي شيء سوى التعاطف لسيدة مثلها؛ أمٍ حُرمت طفلتها الوحيدة".

أبدت سيمون حركة تدل على نفاد صبرها.

"أنت من لا يفهم يا صديقي! لا دخل للمرء فيما يشعر به. المرة الأولى التي رأيتها فيه، شعرت ـــــــ ".

أشاحت بيديها.

"خوف! هل تذكر، كان ذلك منذ فترة طويلة قبل أن أوافق على أن أقوم بجلسة لها؟ كنت شبه واثقة بأنها ستكون نذير شؤم لي".

هز راؤول كتفيه.

قال لها بطريقة جافة: "بينما ثبت العكس تمامًا. سارت الجلسة الروحية على نحو ممتاز حتى النهاية، كانت الجلسة الروحية ناجحة للغاية, كان يجدر بالأستاذ روتشي أن يحضر تلك الجلسة حقًا".

قالت سيمون بصوت منخفض: "هل كانت رائعة حقًا؟".

أومأ برأسه بحماسة كبيرة.

"نعم، ولكن ـــــــ".

"نعم؟"

تحدث برقة شديدة.

"سيمون، لقد حاولت أن أربت بيدى كتفك، ولكن شعرت بأن اللمسة آلمتك، ولم أكن لأسمح للسيدة إكس أن تفعل ذلك. كنت أخشى أن تفقد السيطرة على نفسها وتنهار، ويصيبك مكروه في النهاية".

اتجهت سيمون مرة أخرى إلى النافذة.

قالت له: "كنت متعبة للغاية فى نهاية الجلسة. راؤول، هل أنت واثق أنه ليس هناك خطر؟ أتعرف رأي أليس في تلك الجلسات؟ إننا نتعامل مع الشيطان".

ضحكت بشيء من الشك.

قال راؤول بشجاعة: "أنت تعرفين ما أؤمن به. في التعامل مع المجهول لابد أن يكون هناك خطر، ولكن السبب نبيل، بل إنه يقوم على حقائق علمية، وفي كل أنحاء العالم هناك شهداء للعلم ـــــ رواد دفعوا الثمن حتى يسير غيرهم بأمان على خطاهم. وطوال عشر سنوات الآن وأنت تعملين لخدمة العلم وتدفعين الثمن من إجهاد أعصابك. الآن انتهى دورك، ومن اليوم فصاعداً ستتفرغين لسعادتك الشخصية".

ابتسمت له في حنو، بعدما استعادت هدوءها. ثم نظرت بسرعة إلى الساعة. تمتمت قائلة: "لقد تأخرت السيدة إكس. لعلها لن تحضر".

قال راؤول: "أظنها ستفعل. ساعتك مقدمة قليلاً يا سيمون".

تحركت سيمون في الغرفة، وهي ترتب الأثاث هنا وهناك.

قالت: "أتساءل من تكون، أعني السيدة إكس. من أين أتت؟، من أهلُها؟ من الغريب ألا نعرف عنها أي شيء".

هز راؤول كتفيه.

"أغلب الناس يختارون اسماً مستعاراً ويلتزمون الصمت قدر المستطاع عندما يحضرون لأي وسيط. من باب الحذر".

أيدت سيمون كلامه بفتور: "أعتقد ذلك".

انزلقت زهرية من الخزف كانت تمسكها بيدها من بين أصابعها وسقطت وتكسرت لأجزاء صغيرة أمام المدفأة. فنظرت بسرعة إلى راؤول.

قالت له: "أرأيت، لست وحدي. راؤول، هل ستظنني ـــــ جبانة، جبانة جداً إذا قلت للسيدة إكس إنني لن أجري الجلسة اليوم؟".

نظر إليها بشيء من الأسى، وهو ما جعل وجهها يحمر.

قال لها بلطف: "لقد وعدتها يا سيمون ـــــ ".

اتكأت على الحائط.

"لن أفعل ذلك يا راؤول، لن أفعل ذلك".

فرمقها بالنظرة نفسها مرة أخرى، نظرة التأنيب الرقيق، فنظرت إلى الأرض.

"لا أفكر في المال يا سيمون، رغم أنك يجب أن تعلمي أن المال الذي قدمته لنا هذه السيدة في الجلسة الأخيرة كان كثيراً ـــــ كثيراً جداً".

قاطعته بتحدٍ.

"هناك أشياء أهم من المال".

أيد كلامها بحنو: "هذا صحيح بالطبع. هذا هو ما أقوله. فكري في هذه السيدة، هذه الأم، أم فقدت طفلتها الوحيدة. إذا لم تكوني متعبة فعلاً، وكان كل ما هناك شيء في نفسك يمنعك من ذلك ـــــ هل يمكنك أن تساعدي أماً فقدت طفلتها؟".

أشاحت بيدها في إحباط.

تمتمت قائلة: "أوه، أنت تعذبني. رغم ذلك أنت محق. سوف أفعل ما تريده، ولكنني أصبحت الآن أعرف مم أخاف ـــــ إنها كلمة "أم"".

"سيمون!".

"هناك بعض القوى البدائية يا راؤول، أغلبها دمرته الحضارة. ولكن عاطفة الأمومة لم تتغير منذ بداية الخليقة. والحيوانات وبنو الإنسان يشتركون في تلك العاطفة. حب أم لطفلتها لا شيء يضاهيه في العالم. لا يعرف قوانين، لا يعرف شفقة. إنه يتحدى كل شيء، ويحطم أي شيء يعترض طريقه بدون ندم".

توقفت عن الكلام والتقطت أنفاسها، ثم نظرت إليه بعدما رسمت على وجهها ابتسامة ملطفة.

"أنا حمقاء اليوم يا راؤول، أعرف ذلك".

أمسك يديها بكلتا يديه.

قال لها: "اجلسي للحظة أو اثنتين. استريحي حتى تأتي".

ابتسمت في وجهه وقالت له وهي تغادر الغرفة: "حسناً".

استغرق راؤول للحظة أو اثنتين في التفكير، ثم سار ناحية الباب، وفتحه، وخرج إلى الردهة الصغيرة، ومنها إلى غرفة موجودة على الجانب الآخر منها. كانت غرفة جلوس تشبه الغرفة التي تركها، ولكن في أحد أركانها كانت هناك مظلة تظلل على كرسي كبير بذراعين، تحيط به ستارة ثقيلة قاتمة. كانت أليس مشغولة بترتيب الغرفة. وبالقرب من المظلة، كان هناك كرسيان وطاولة صغيرة مستديرة. وعلى

الطاولة كان هناك دف صغير، وبوق، وبعض الأقلام والأوراق.

تمتمت أليس بقدر كبير من الرضا: "المرة الأخيرة. سيدي، أتمنى ألا تحضر وننتهي من ذلك".

دوى رنين الجرس الكهربي بسرعة.

"ها هي قد أتت، ضابط الشرطة الضخم المتخفي في زي امرأة" سكتت الخادمة العجوز قليلاً ثم تابعت كلامها قائلة: "لماذا لا تذهب وتجري جلستها الروحية فى أي مكان آخر؟".

قال راؤول بحسم: "افتحي الباب يا أليس".

نظرت إليه شزرًا، ثم نفذت أمره. وفي خلال لحظة أو اثنتين عادت وهي تقود الزائرة إلى الغرفة.

"سوف أخبر سيدتي بوصولك يا سيدتي".

اقترب راؤول ليصافح السيدة إكس، فترددت كلمات سيمون بوضوح في عقله.

"إنها ضخمة للغاية وسوداء".

كانت سيدة ضخمة، وبدت ملابس الحداد الثقيلة السوداء التي ترتديها مبالغًا فيها في حالتها. وكانت تتحدث بصوت غاية في العمق.

"أخشى أن أكون قد تأخرت يا سيدي".

قال لها راؤول مبتسمًا: "بضع دقائق فقط. السيدة سيمون راقدة في سريرها، يؤسفني أن أخبرك بأنها ليست بخير حال، فهي متوترة ومتعبة جدًا".

كانت على وشك أن تسحب يدها من يده، ولكنها عندما سمعته أطبقت على يده على نحو مفاجئ بطريقة معيبة.

قالت له بحدة: "ولكنها ستقيم الجلسة؟".

"أوه، نعم يا سيدتي".

تنهدت السيدة إكس بطريقة تنم عن الراحة، وجلست على كرسيها، وفتحت إحدى الستائر الثقيلة الداكنة التي تحيط بها.

تمتمت قائلة: "أها، سيدي! لا تستطيع أن تتخيل، متعة وسحر هذه الجلسات بالنسبة لي!".

تحدث راؤول بسرعة وحسم.

"سيدة إكس ـــــ كيف أستطيع أن أشرح لك ؟ مهما كان الوضع، فلا يجب أن

تفعلي أي شيء إلا بناءً على تعليماتي، فيما عدا ذلك، يكون في ذلك خطر كبير".

"خطر عليّ؟".

"لا يا سيدتي. على الوسيطة. يجب أن تفهمي أن هذه الظاهرة التي تحدث يفسرها العلم بطريقة معينة. سوف أبسط لك الأمر، بدون أن أستخدم مصطلحات معقدة. لكي نستحضر الروح، يجب أن تستخدم الجسم المادي للوسيط. ولكن الصعوبة الكبيرة هي الخطر والألم الذي يصيب الوسيط عند الاقتراب منه. فلو حاول أي إنسان لمس هذا التجسد، تكون النتيجة الموت الحتمي للوسيط".

استمعت إليه السيدة إكس بانتباه شديد.

"هذا مثير للغاية يا سيدي. أخبرني، ألن يأتي وقت معين يمكن للعلم أن يفسر ذلك الأمر ويعالجه؟".

"هذه مجرد فكرة يا سيدتي".

أصرت على قولها.

"ولكن على مستوى الحقائق، ليس مستحيلاً؟".

"مستحيل تمامًا اليوم".

"ولكن ربما في المستقبل؟"

أنقذه دخول سيمون الغرفة من الإجابة. بدت ضعيفة وشاحبة، ولكن كان من الواضح أنها استعادت السيطرة على نفسها تمامًا. تقدمت للأمام وصافحت السيدة إكس، إلا أن راؤول لاحظ الرعشة البسيطة التي انتابتها وهي تفعل ذلك.

قالت لها السيدة إكس: "يؤسفني أن أسمع أنك متعبة".

قالت سيمون بجفاف: "لا شيء. هيا نبدأ".

دخلت الجلسة الروحية وجلست على الكرسي.

وفجأة اعترت راؤول نوبة من الخوف.

صاح قائلاً: "لست قوية بدرجة كافية. يجدر بنا أن نلغي الجلسة. سوف تتفهم السيدة إكس الأمر".

"سيدي!".

نهضت السيدة إكس وهي غاضبة.

"نعم، نعم، من الأفضل ألا نفعل، أنا واثق من ذلك".

"لقد وعدتني الآنسة سيمون بجلسة أخيرة".

أيدت سيمون قولها: "هذا صحيح. وأنا مستعدة تمامًا لأنفذ وعدي".

قالت السيدة الأخرى: "أنت لها يا سيدتي".

قالت سيمون ببرود: "أنا لا أخلف وعدي" ثم أردفت قائلة: "لا تخف يا راؤول، فهي الجلسة الأخيرة ـــــ حمدًا لله أنها الجلسة الأخيرة ".

وبإشارة منها، أغلق راؤول الستائر الثقيلة السوداء على الخلوة. كما جذب ستائر النافذة حتى تصبح الغرفة قاتمة تمامًا. وأشار على السيدة إكس بالجلوس على أحد الكراسي، وأعد نفسه ليجلس على الكرسي الآخر. ولكن السيدة إكس قالت له.

"اعذرني يا سيدي، أنا مؤمنة بنزاهتك ونزاهة السيدة سيمون. ولكي ليطمئن قلبي، أحضرت هذا معي".

أخرجت من حقيبة يدها حبلاً قويًا.

صاح راؤول: "سيدتي، إنها إهانة!".

"من باب الحذر".

"أقول إنها إهانة".

قالت السيدة إكس ببرود: "لا أفهم سبب اعتراضك يا سيدي. ليست هناك خدعة في الأمر، فلا داعي للخوف".

ضحك راؤول بازدراء.

"أؤكد لك أنني لا أخشى شيئًا يا سيدتي. اربطي يدي وقدمي إن شئت".

لم يحدث كلامه التأثير الذي تمناه، فقد تمتمت السيدة إكس بصوت يخلو من أية عاطفة قائلة:

"شكرًا لك يا سيدي"، وهي تتقدم نحوه وفي يدها الحبل.

وفجأة صرخت سيمون من وراء الستائر وقالت له.

"لا يا راؤول لا تفعل، لا تسمح لها بأن تفعل ذلك".

ضحكت السيدة إكس باستهزاء.

قالت بتهكم: "السيدة خائفة".

"نعم أنا خائفة".

صاح راؤول: "تذكري ما كنتِ تقولينه يا سيمون. واضح أن السيدة إكس تظن

أننا مشعوذان".

قالت السيدة إكس بتجهم: "يجب أن أتأكد من ذلك".

قامت بأداء مهمتها بثبات، وربطت راؤول في كرسيه.

"اسمحي لي بأن أهنئك على قوة ربطتك يا سيدتي". قال لها بسخرية عندما انتهت: "هل أنت سعيدة الآن؟".

لم تجبه السيدة إكس. سارت في الغرفة تتفحص الجدران عن كثب. ثم أغلقت الباب المؤدي إلى الردهة، وأخذت المفتاح وعادت إلى كرسيها.

قالت بصوت لا يوصف: "والآن، أنا مستعدة".

مرت اللحظات. سمع صوت أنفاس سيمون من خلف الستائر وهو يشتد أكثر فأكثر بينما تدخل فى الحالة الخاصة باستحضار الروح. ثم تلاشى تماماً، وتبعته سلسلة من التأوهات. ثم ساد الصمت مرة أخرى للحظات، قطعته دقات مفاجئة للدف، ثم رفع البوق من فوق الطاولة وصدر صوته. ثم صدرت ضحكة ساخرة. وبدت ستائر الغرفة كأنها تراجعت للخلف قليلاً، فأصبح جسم الوسيطة ظاهراً تماماً، ورأسها مدلى على صدرها. وفجأة التقطت السيدة إكس أنفاسها بقوة، ثم بدأت روح الطفلة الصغيرة تحضر.

"إميلي! صغيرتي إميلي!".

صدر الصوت من السيدة إكس. كانت الوسيطة مجهدة، ومغيبة، وهي تتحدث بلسان الروح التي استحضروها، روح الطفلة إميلي.

"ماما!".

تحدثت الوسيطة بصوت طفولي ناعم.

صاحت السيدة إكس: "طفلتي. طفلتي!".

همت بالوقوف من فوق كرسيها.

صاح راؤول محذراً إياها: "احذري يا سيدتي".

اقتربت الوسيطة مادة ذراعها.

"ماما!".

صاحت السيدة إكس مجدداً: "أها!".

همت بالوقوف من فوق كرسيها مجدداً.

صاح راؤول محذراً إياها: "سيدتي، احذري ـــــ "

صاحت السيدة إكس بصوت أجش: "يجب أن ألمسها".

تقدمت خطوة للأمام.

صاح راؤول قائلاً: "بالله عليك يا سيدتي، تحكمي في نفسك".

شعر بخطر حقيقي الآن.

"اجلسي على الفور".

"ابنتي الصغيرة، يجب أن ألمسها".

"سيدتي، آمرك بالجلوس!".

كان يتململ على كرسيه محاولاً فك وثاقه، ولكن السيدة إكس كانت قد أدت مهمتها على نحو ممتاز، لم يكن باستطاعته عمل شيء. تسلل لنفسه إحساس بقرب حدوث كارثة.

صاح قائلاً: "أستحلفك بالله يا سيدتي اجلسي! تذكري الوسيطة".

التفت السيدة إكس نحوه وأطلقت ضحكة تملؤها القسوة: "لماذا أهتم بوسيطتك. أنا أريد طفلتي".

"أنت مجنونة!".

"طفلتي، أقول لك. طفلتي! ابنتي!".

فتح راؤول شفتيه، ولكن الكلمات لم تخرج منها، كانت هذه المرأة مروعة، لا تعرف الندم، قاسية القلب، سيطر عليها شغفها. انفتحت شفتا الوسيطة وقالت للمرة الثالثة: "ماما!".

صاحت السيدة إكس: "تعالي إلي يا صغيرتي".

وبحركة حادة، أمسكت ذراعي الوسيطة، فصدرت صرخت مدوية تدل على ألم شديد.

صاح راؤول: "سيمون! سيمون!".

شعر بأن السيدة إكس ركضت من خلفه، وفتحت الباب، وسمع وقع أقدامها على السلالم.

سمع دوي الصرخة الطويلة المروعة ـــــ كانت صرخة لم يسمعها راؤول من قبل، ثم سكتت بعدما صدرت بقبقة مروعة، ثم سمع صوت الجثة تهوي...

كان راؤول يعمل كالمجنون على فك وثاقه. فنجح في القيام بذلك في نوبة الجنون التي اعترته، وفك الحبل بقوة متناهية. وبينما كان يحاول فك قيود قدميه،

أسرعت أليس باقتحام الغرفة وهي تصرخ: "سيدتي!".

صاح راؤول: "سيمون!".

اندفعا معًا نحوها.

تراجع راؤول للخلف من هول المنظر.

تمتم قائلاً: "يا إلهي! دم، كل شيء ملطخ بالدم...".

صدر صوت أليس من خلفه مهتزًا وأجش.

"ماتت سيدتي. انتهى الأمر، ولكن أخبرني ما الذي حدث. ما الذي حدث هنا؟".

قال راؤول: "لا أعرف".

ثم صرخ قائلاً:

"لا أعرف. لا أعرف، سيجن جنوني.. سيمون! سيمون!".

نداء استغاثة

I

قال السيد دينسميد بطريقة تنم عن التقدير: "أها!".

تراجع للخلف وألقى نظرة على الطاولة المستديرة بنبرة استحسان. كانت صورة الألسنة المنبعثة من المدفأة تنعكس على مفرش الطاولة الأبيض الخشن، وعلى السكاكين والشوك، وباقي مستلزمات الطعام.

سألت السيدة دينسميد بتردد: "هل ـــــ هل كل شيء جاهز؟". كانت سيدة ضعيفة بعض الشيء، وجهها يخلو من الدموية، تربط شعرها الخفيف للخلف، وتتصرف دومًا بطريقة تعكس التوتر.

قال لها زوجها بشيء من الود الذي لا يخلو من حدة: "كل شيء جاهز".

كان رجلاً ضخم البنية، منحني الكتفين، محمر الوجه. وكانت عيناه صغيرتين للغاية، ترمشان أسفل حاجبيه الكثيفين، وكان ذا خد عريض يخلو من الشعر.

أبدت السيدة دينسميد اقتراحًا؛ في همس تقريبًا: "الليمون؟".

فهز زوجها رأسه نافيًا.

"الشاي أفضل بكثير. انظري إلى الجو، عاصف وبارد. كوب جميل من الشاي الساخن هو كل ما نحتاج إليه مع العشاء في ليلة كهذه".

غمز بعينه على نحو لا إرادي، ثم تفحص الطاولة مرة أخرى.

"أريد على العشاء طبقًا جيدًا من البيض، وآخر من اللحم البقري المعلب، والخبز والجبن. اذهبي وأعديه يا أم الأولاد. تشارلوت في المطبخ تنتظرك لكي تساعدك".

نهضت السيدة دينسميد، وهي تلملم كرة الخيط الذي كانت تحيك به.

تمتمت قائلة: "إنها فتاة ناضجة غاية في الجمال. جميلة جدًا".

قال السيد دينسميد: "أها! صورة رائعة لوالدتها! اذهبي معها، ولا تضيعي مزيدًا من الوقت".

تجول في الغرفة وهو يدندن لنفسه دقيقة أو اثنتين. وبمجرد أن اقترب من النافذة نظر منها.

قال لنفسه: "جو عاصف. ليس من المتوقع أن يأتينا زوار الليلة".

ثم ترك الغرفة هو الآخر.

وبعد عشر دقائق تقريباً، دخلت السيدة دينسميد الغرفة حاملة طبقاً من البيض المقلي. تبعتها ابنتاها، وهما تحملان بقية الطعام، ثم دخل السيد دينسميد وابنه جوني أخيراً. جلس الأب على رأس الطاولة.

قال شاكراً: "الحمد لله على كل هذه النعم". ثم تحدث بطريقة ساخرة قائلاً: "وشكراً لأول من فكر في صناعة الأطعمة المعلبة. فماذا كنا سنفعل، ونحن نبعد أميالاً عن البلدة إن لم تكن هناك أطعمة معلبة عندما ينسى الجزار موعده الأسبوعي".

تابع تقطيع اللحم البقري ببراعة.

قالت ابنته ماجدالين بتذمر: "أتعجب ممن فكر في بناء منزل كهذا، يبعد أميالاً عن أي مكان آخر. نحن لم نرَ أي شخص هنا".

قال والدها: "لا، ولا شخص".

قالت تشارلوت: "لا أعرف ما الذي جعلك تشتريه يا والدي".

"ألا تعرفين؟ حسناً، كانت لدي أسبابي ـــــ لدي أسبابي".

نظر خلسة إلى زوجته، ولكنها عبست وتجهمت.

قالت تشارلوت: "ومسكون أيضاً. لن أنم هنا وحدي لأي سبب".

قال والدها: "مجرد أوهام. لم أرَ أي شيء، أرأيت أنت؟ تعالي الآن".

"لعلي لم أرَ أي شيء، ولكن ـــــــــ "

"ولكن ماذا؟".

لم تجب تشارلوت، ولكنها ارتعشت قليلاً. انهمرت الأمطار الغزيرة على لوح النافذة الزجاجي، فأسقطت السيدة دينسميد ملعقة رنت على الأرض.

قال السيد دينسميد: "لست متوترة يا أم الأولاد".

"إنها ليلة باردة، هذا كل ما في الأمر. لا تقلقوا، إننا في أمان هنا بجوار المدفأة، ليس هناك شخص في الخارج يمكنه أن يزعجنا. لماذا، ستكون معجزة لو حدث ذلك. والمعجزات لا تحدث". ثم أردف قائلاً كأنه يحدث نفسه: "المعجزات لا تحدث".

عندما غادرت الكلمات شفتيه سمع نقراً مفاجئاً على الباب، وظل السيد دينسميد في مكانه كأنه تحجر.

تمتم قائلاً: "ما هذا؟" ـــــ قالها وهو فاغر فمه.

أطلقت السيدة دينسميد صرخة أنين وتدثرت بوشاحها جيداً، فانعكس لونه على وجه ماجدالين التي مالت للأمام وقالت محدثة والدها.

"لقد حدثت المعجزة. من الأفضل أن تذهب وترى من الذي أتانا".

II

قبل عشرين دقيقة، وقف مورتيمر كليفلاند تحت الأمطار الغزيرة والضباب الكثيف يتفقد سيارته. كان حظه سيئاً فعلاً، حيث أفرغت عجلتان ما بهما من هواء في غضون عشر دقائق على جانبي السيارة، ووقف هو هناك، تائهاً لا يعرف إلى أي مكان يذهب، في منتصف ويلتشاير والليل على وشك الحلول، وليس لديه أي أمل في العثور على مأوى. كأنه عقاب له على أنه سار من طريق مختصر. ليته سار في الطريق الأساسي! الآن ضل طريقه في مكان مهجور وعر، وليست لديه أدنى فكرة عما إذا كانت هناك أية قرية بالقرب منه.

نظر حوله في حيرة، حتى سقطت عينه على شعاع نور آتٍ من التل الذي يعلوه، ولكنه انتظر بنفاد صبر، حتى لمح ضوءاً آخر. وبعد لحظة تفكيرٍ، غادر السيارة وصعد في اتجاه التل.

بعد وقت قصير خرج من الضباب، ورأى الضوء يشع من نافذة مضاءة لكوخ صغير. وجد الملجأ هناك على أية حال. فسار مورتيمر كليفلاند بخطى سريعة، حانياً رأسه ليتجنب الرياح الشديدة العاتية والأمطار التي بدت كأنها تحاول بكل جهدها أن تعوقه عن الوصول.

كان كليفلاند في طريقه للوصول للشهرة، رغم أن الغالبية العظمى من الناس يجهلون اسمه وإنجازاته تماماً. كانت له مكانه بارزة في الأمراض العقلية، كما وضع كتابين رائعين عن العقل الباطن، فضلاً عن أنه عضو في جمعية أبحاث الأمراض النفسية، كما أنه يدرس علوم ما وراء الطبيعة في الخفاء خشية أن يضر ذلك باستنتاجاته وأبحاثه.

كان بطبيعته سريع التأثر بالجو إلى حد غريب، ومن خلال تدريب نفسه زادت موهبته تلك. عندما وصل أخيراً إلى الكوخ، وقرع الباب، شعر بدهشة وانفعال أصحابه، كأن كل قدراته اشتدت فجأة.

كانت تمتمة الأصوات الآتية من الداخل مسموعة تماماً بالنسبة له. فبمجرد أن طرق الباب، ساد صمت مطبق، ثم سمع صوت كرسي يعود للخلف محتكًا بالأرض. وخلال دقيقة أخرى، فتح الباب غلام في الخامسة عشرة من عمره تقريباً. فألقى كليفلاند نظره على المشهد أمامه على الفور.

ذكره ذلك المشهد بطراز منزل هولندي: طاولة مستديرة عليها وجبة، وأفراد الأسرة يجلسون حولها، وشمعة أو اثنتان ترتعشان ومدفأة تنير المكان بالكامل. الوالد ـــــ وكان رجلاً ضخماً ـــــ يجلس على رأس الطاولة، تجلس قبالته سيدة شاحبة صغيرة البنية يبدو على وجهها الخوف. وفي مواجهة الباب كانت هناك فتاة تنظر مباشرة إلى كليفلاند. نظرت بعينيها المندهشتين إلى عينيه مباشره ويدها التي تمسك كوباً على وشك أن تمس شفتاها.

أدرك كليفلاند على الفور أنها فتاة جميلة، فتاة فائقة الجمال. أحاط شعرها الأحمر المصفر برأسها مثلما يحيط الضباب بمكان ما، وكانت عيناها اللتان تبعدان عن بعضهما كثيراً، رماديتي اللون، وكان فمها وذقنها يشبهان نظيريهما في لوحة إيطالية لشابة رائعة الجمال.

سادت لحظة من الصمت المطبق، ثم دخل كليفلاند الغرفة وشرح المأزق الذي وقع فيه. وحين أنهى قصته المعتادة، ساد مرة أخرى صمت يصعب فهمه. وأخيراً وقف الوالد من مكانه، بصعوبة.

"ادخل يا سيدي، قلت إنك تدعى السيد كليفلاند".

قال مبتسماً: "هذا اسمي".

"أها! نعم. ادخل يا سيد كليفلاند. الجو اليوم لا يتحمله حتى الحيوان، أليس كذلك؟ اقترب من المدفأة. أغلق الباب يا جوني. لن تقف عندك حتى منتصف الليل".

اقترب كليفلاند وجلس على كرسي خشبي لا أرجل له بالقرب من المدفأة، فأغلق جوني الباب.

قال دينسميد بلطف حقيقي الآن: "أنا أدعى دينسميد. وهذه سيدة المنزل، ولدينا ابنتان؛ تشارلوت وماجدالين".

للمرة الأولى، رأى كليفلاند وجه الفتاة التي كانت تجلس وظهرها نحوه، ورأى أنها لا تقل جمالاً عن أختها إلى حد كبير، ولكن بطريقة مختلفة تماماً. كانت سمراء، لها وجه لامع مثل الرخام، وأنف معقوف قليلاً، وفم كبير. كان جمالها أشبه بجمال متجمد، متزمت، تقريباً ممتنع. وقد قابلت تقديم والدها لها بإيماءة بسيطة برأسها، ونظرت إليه نظرة حادة كأنها تدرس شخصيته. كان الأمر كأنها تستنبط شخصيته، تزنه بميزان حكمها الصغير.

"هل تريد أن تشرب شيئاً يا سيد كليفلاند؟".

قال مورتيمر: "شكراً لك، كوب من الشاي يفي بالغرض وأكون شاكراً".

تردد السيد دينسميد للحظة، ثم رفع فناجين الشاي الخمسة من فوق الطاولة ـــــ الواحد تلو الآخر ـــــ وسكبه في وعاء التخلص من الشاي.

قال بفظاظة: "هذا الشاي بارد. أعدي لنا شايًا آخر يا أم الأولاد".

نهضت السيدة دينسميد بسرعة وأسرعت إلى المطبخ وهي تحمل إبريق الشاي. شعر مورتيمر بأنها سعدت بخروجها من الغرفة.

جاء الشاي الساخن بسرعة. كما قدم طعام للزائر غير المتوقع.

تحدث السيد دينسميد أكثر وأكثر. كان صريحًا، ولطيفًا وثرثارًا. أخبر الغريب بكل شيء عنه. كان قد تقاعد مؤخرًا من العمل في المقاولات، بعدما ادخر لنفسه مبلغًا جيدًا. ففكر مع زوجته أنهما يريدان هواءً ريفيًا؛ نظرًا لأنهما لم يعيشا في الريف من قبل. طبعًا اختارا وقتًا غير مناسب من العام: شهري أكتوبر ونوفمبر، ولكنهما لم يطيقا الانتظار. "فالحياة غير مضمونة كما تعرف يا سيدي". لهذا اختارا هذا الكوخ. الذي يبعد ثمانية أميال عن أي مكان، وتسعة عشر ميلاً عما يمكن وصفه بأنه بلدة. لا، لم يتذمروا، صحيح أن الفتاتين تجدان المنزل مملاً بعض الشيء، ولكن والديها مستمتعان بالهدوء.

تحدث وتحدث، ومورتيمر أشبه بالخاضع للتنويم المغناطيسي من كثرة السرد. طبعًا لم يكن هناك هدف من الثرثرة سوى إظهار كرم الضيافة. ورغم ذلك، ومن النظرة الأولى عند دخوله، استشعر شيئًا آخر، بعض التوتر، بعض الضغط، النابع من شخص ما بين الأشخاص الخمسة ـــــ ولكنه لم يعرف مصدره بالضبط. مجرد حماقة، قطعًا أعصابه متعبة! لقد فوجئ الجميع بظهوره المفاجئ ـــــ هذا كل ما في الأمر.

سأل عن مكان يبيت فيه ليلته، فتلقى إجابة معدة بالفعل.

"عليك أن تبقى معنا يا سيد كليفلاند. ليست هناك أماكن حولنا. سوف نخصص لك غرفة نوم، ورغم أن بيجامة نومي قد تكون فضفاضة قليلاً، ولكنها أفضل من لا شيء، وسوف تجف ملابسك بحلول الصباح".

"هذا كرم شديد منك".

قال الآخر بود: "أبدًا، أبدًا. فكما قلت لك منذ قليل، لا يمكن لإنسان أن يترك ولا حتى كلبًا في ليلة كهذه. ماجدالين، تشارلوت، اصعدا وأعدا الغرفة لضيفنا".

غادرت الفتاتان الغرفة. سمعهما مورتيمر تتحركان من فوقه على الفور.

قال كليفلاند: "أفهم لماذا تجد ابنتاك الجميلتان والجذابتان المكان مملاً هنا".

قال السيد دينسميد بعجرفة أبوية: "إنهما جميلتان، أليس كذلك؟ لا تشبهان والدتهما أو تشبهانني كثيرًا. مظهرنا متواضع، ولكننا نحب بعضنا كثيرًا. لن أخفي عليك ذلك يا سيد كليفلاند".

ابتسمت السيدة دينسميد بتزمت. كانت قد بدأت في الحياكة مرة أخرى. كانت

الإبرتان تطقطقان بصوت عالٍ، فقد كانت تحيك بسرعة.

وعلى الفور أعلنت الفتاتان أن الغرفة جاهزة، فأعرب مورتيمر عن شكره للمرة الثانية، معلناً رغبته في الذهاب إلى غرفته.

سألت السيدة دينسميد الفتاتين بشيء من العجرفة: "هل وضعت زجاجة ماء ساخن على السرير؟".

"نعم يا أمي، وضعت اثنتين".

قال دينسميد: "هذا صحيح، اذهبا معه يا ابنتي، واحرصا على ألا يحتاج إلى شيء آخر".

اتجهت ماجدالين إلى النافذة وتأكدت أن قفله موصد جيداً. ألقت تشارلوت نظرة أخيرة على مستلزمات الحوض، ثم خرجت الفتاتان وأوصدتا الباب.

"تصبح على خير سيد كليفلاند. هل كل ما تحتاج إليه لديك؟".

"نعم، شكراً لك يا آنسة ماجدالين. آسف لأنني سببت لكما كل هذا الإزعاج. تصبحان على خير".

"تصبح على خير".

خرجتا وأوصدتا الباب خلفهما. أصبح مورتيمر كليفلاند وحده. خلع ملابسه ببطء وتروٍّ. عندما ارتدى بيجامة السيد دينسميد الوردية، لملم ملابسه المبتلة ووضعها خارج الباب كما طلب منه مضيفه. سمع من الطابق السفلي دمدمة صوت السيد دينسميد.

كم هذا الرجل ثرثار! إنه شخصية غريبة تماماً ـــــ ولكن هناك شيئاً غريباً في هذه الأسرة بالكامل حقاً، أم أن هذا من محض خياله؟

دخل غرفته ببطء وأغلق الباب، ثم وقف بجوار السرير وهو غارق في أفكاره. ثم حدق بعينيه ـــــ

كانت الطاولة المصنوعة من شجر الماهوجني يغطيها التراب. وكتب على هذا التراب ثلاثة أحرف وهي ـــــ SOS والتي تعني "نداء استغاثة".

حدق مورتيمر كأنه لا يصدق عينيه. أكد ذلك ظنونه وتخوفاته. لقد كان محقاً، هناك شيء خاطئ في هذا المنزل.

نداء استغاثة. ولكن لمن الأصابع التي كتبت نداء الاستغاثة هذا؟ ماجدالين أم تشارلوت؟ تذكر أن الاثنتين وقفتا هناك، للحظة أو اثنتين، قبل أن تخرجا من الغرفة. يد من تسللت خلسة إلى الطاولة وكتبت هذه الأحرف؟

تراءت صورة الفتاتين في مخيلته. ماجدالين ـــــ السمراء المتحفظة، وتشارلوت،

كما رآها للمرة الأولى بعينيها الواسعتين، المندهشتين، التي تغطي نظرتها شيئًا غير مفهوم...

اتجه إلى الباب مرة أخرى وفتحه. لم يعد يسمع دوي صوت السيد دينسميد. ساد الصمت المنزل.

قال لنفسه.

"ليس بإمكاني أن أفعل شيئًا الليلة. غدًا ـــــ حسنًا. سوف أرى ماذا أفعل".

III

استيقظ كليفلاند مبكرًا. نزل الطابق السفلي عابرًا غرفة المعيشة، ومنها إلى الحديقة. كان الصباح صافيًا وجميلاً بعد المطر. كان هناك شخص آخر استيقظ مبكرًا أيضًا. في منتصف الحديقة، كانت تشارلوت تقف متكئة على السور تنظر إلى التلال. خفق قلبه بسرعة وهو يقترب لينضم إليها. كان مقتنعًا في داخله بأن تشارلوت هي من كتبت هذه الحروف. عندما اقترب منها، التفتت نحوه وقالت له: "صباح الخير". كانت عيناها مباشرتين وبريئتين، لا تخفيان أي سر فيهما.

قال مورتيمر مبتسمًا: "صباح مليء بالخير. الطقس هذا الصباح مخالف تمامًا لطقس الليلة الماضية".

"هذا صحيح".

كسر مورتيمر غصنًا من شجرة قريبة منه، ورسم بها بعبث على الرمال حروفًا أسفل قدميه. كتب الحرف S ثم الحرف O وأخيرًا S، وهو يراقب الفتاة وهو يفعل ذلك. ولكنه لم يلحظ أي تغير في ردة فعلها.

قال لها فجأة: "هل تعرفين ما تشير إليه هذه الأحرف؟".

عبست تشارلوت قليلاً وقالت متسائلة: "أليست هذه هي الأحرف التي تستخدمها السفن عندما تواجه مشكلات؟".

أومأ مورتيمر برأسه وقال لها بهدوء: "لقد كتب شخص ما هذه الأحرف على الطاولة المجاورة لسريري الليلة الماضي. ظننت أنك من فعل ذلك".

نظرت إليه في دهشة بعينيها الواسعتين.

"أنا؟ أوه، لا".

إذن كان مخطئًا. أصابه إحساس كبير بالإحباط. لقد كان واثقًا من ظنه للغاية ـــــ واثقًا للغاية. فقليلاً ما يخطئ حدسه ويضلله.

أصر على قوله: "هل أنت متأكدة؟".

"أوه، طبعًا".

التفتا وسارا معًا في اتجاه المنزل. بدت تشارلوت كأنها مشغولة بأمر ما. أجابت بشكل عشوائي عن الملاحظات القليلة التي أبداها. وفجأة قالت بصوت منخفض وبسرعة:

"من الغريب أن تسأل عن هذه الأحرف SOS. أنا لم أكتبها طبعًا، ولكن من الممكن أن أكون قد فعلت ذلك بدون أن أشعر".

توقف ونظر إليها، فأردفت تقول بسرعة:

"أعرف أن هذا يبدو سخيفًا، ولكنني خائفة للغاية، خائفة لدرجة الموت، وعندما جئت الليلة الماضية، بدا الأمر كأنه إجابة ـــــ إجابة لشيء ما".

سألها بسرعة: "ما الذي تخافينه؟".

"لا أعرف".

"لا تعرفين!"

"أعتقد أنه المنزل. منذ جئنا إلى هنا وهذا الشيء يزداد أكثر وأكثر. الجميع يبدون مختلفًا بشكل ما. أبي، وأمي وماجدالين، جميعهم يبدون مختلفين".

لم يبد مورتيمر أية استجابة في البداية، وقبل أن يتمكن من ذلك، واصلت تشارلوت كلامها قائلة:

"أتعرف أنه يقال إن هذا المنزل مسكون؟".

قال لها بعدما تزايد اهتمامه فجأة: "ماذا؟".

"نعم، قتل رجل زوجته في هذا المنزل، منذ سنوات عديدة مضت. لقد اكتشفنا هذا الأمر بعدما اشتريناه. والدي يقول إن الأشباح مجرد هراء، ولكنني، لا أعرف".

كان مورتيمر يفكر بسرعة.

قال لها بنبرة عملية: "أخبريني، هل ارتكبت جريمة القتل التي تحدثت عنها في الغرفة التي كنت فيها ليلة أمس؟".

قالت تشارلوت: "لا أعرف أي شيء عن هذا الأمر".

قال مورتيمر محدثًا نفسه: "أتساءل الآن، نعم، قد يكون ذلك صحيحًا".

نظرت إليه تشارلوت بدون أن تفهم ما يعنيه.

قال مورتيمر بود: "آنسة دينسميد، هل هنالك أي سبب يجعلك تعتقدين أنك

وسيطة روحية؟".

نظرت إليه في دهشة.

قال لها بهدوء: "أعتقد أنك تعرفين أنك كتبت أحرف SOS الليلة الماضية على الطاولة. أوه! بدون وعي منك طبعاً. هناك جريمة تحلق في الأجواء. وعقل حساس مثلك قد يتصرف وفقاً لهذه الجريمة بهذه الطريقة.
لقد كنت تعيدين عيش أحاسيس وانطباعات الضحية. لعلها كتبت هذه الأحرف منذ سنوات على تلك الطاولة، وقمت أنت بالتصرف نفسه الليلة الماضية".

أضاء وجه تشارلوت.

قالت: "فهمت، أتعتقد أن هذا هو التفسير؟".

ناداها شخص من داخل المنزل، فدخلت المنزل مسرعة تاركة مورتيمر يتمشى في الحديقة جيئة وذهاباً. هل هو مقتنع بتفسيره؟ هل يفسر الحقائق كما يعرفها؟ هل هذا هو السبب في التوتر الذي استشعره عندما دخل المنزل الليلة الماضية؟

ربما، ورغم ذلك، ولّد ذلك الشعور الغريب الذي انتابه عندما دخل إلى المنزل إحساساً أشبه بالذعر، قال في نفسه:

"يجب ألا أنجرف وراء التفسير النفسي، فقد يفسر حالة تشارلوت، ولكنه لا يفسر حالة الآخرين. لقد انزعج الجميع من حضوري، انزعج الجميع باستثناء جوني. أياً كان الوضع، فـ جوني خارج هذه المسألة".

كان واثقاً تماماً من ذلك، من الغريب أن يكون إيجابياً للغاية، ولكنه كان كذلك حقاً.

في تلك اللحظة، خرج جوني نفسه من الكوخ واقترب من الضيف.

قال له على استحياء: "الإفطار جاهز، هل ستدخل؟".

لاحظ مورتيمر أن أصابع الغلام كانت ملطخة للغاية. شعر جوني بنظرته وضحك باستهزاء.

"دائماً ما ألعب بالمواد الكيميائية، وهذا يثير جنون والدي أحياناً. إنه يريدني أن أعمل في البناء، ولكنني أريد أن أعمل في الكيمياء والأبحاث".

ظهر السيد دينسميد من النافذة الواقعة أمامهما مرحاً، مبتسماً. وبمجرد أن رآه مورتيمر، استيقظت بداخله كل مشاعر الريبة والتنافر. كانت السيدة دينسميد جالسة بالفعل على الطاولة. تمنت له يوماً طيباً بوجهها الشاحب، وانتابه مرة أخرى انطباع بأنها خائفة منه لسبب أو لآخر.

جاءت ماجدالين في النهاية. أومأت إليه بشكل مقتضب وجلست في المقعد المقابل له.

سألته فجأة: "هل نمت جيدًا؟ هل كان سريرك مريحًا؟".

نظرت إليه بشغف شديد، وعندما أجابها بلباقة بالإيجاب لاحظ ومضة إحباط تبدو على وجهها، فتساءل في نفسه عما كانت تتوقع سماعه.

نظر إلى مضيفه وقال له:

"هذا الغلام مهتم بالكيمياء، على ما يبدو؟".

سقط شيء ما. أسقطت السيدة دينسميد فنجان الشاي الخاص بها.

قال لها زوجها: "احذري يا ماجي، احذري".

استشعر مورتيمر أن هناك لومًا وتحذيرًا في صوته. التفت إلى مضيفه وتحدث بطلاقة عن مميزات العمل في المقاولات، وعدم السماح للصبية الشباب بالخروج من جلباب آبائهم.

بعد الإفطار، خرج إلى الحديقة وحده، وأشعل سيجارة. كان من الواضح أن الوقت قد حان ليغادر الكوخ، فاللجوء إلى الكوخ لليلة واحدة شيء، ولكن إطالة إقامته بدون وجود عذر شيء آخر، وأي عذر يمكنه أن يتقدم به؟ ولكنه كان عاقداً العزم على المغادرة.

قلب الأمر في رأسه المرة تلو الأخرى، وأخذ الطريق المؤدي إلى الجانب الآخر من المنزل. كان حذاؤه مزوداً بنعل من المطاط، فلم يصدر أي صوت. وعندما مر بنافذة المطبخ، سمع كلام السيد دينسميد من الداخل، فجذب كلامه انتباهه على الفور.

"إنه مبلغ مناسب من المال، أليس كذلك؟".

سمع صوت السيدة دينسميد يجيبه. تحدثت بصوت أضعف من أن يتمكن مورتيمر من سماعه، ولكن دينسميد أجابها قائلاً:

"تقريبًا 60000 جنيه إسترليني كما قال المحامي".

لم يكن مورتيمر ينوي التنصت، ولكنه عاد أدراجه وهو غارق في التفكير. لسبب أو لآخر، هناك مسألة تدور حول 60000 جنيه إسترليني، أصبح الأمر أكثر وضوحًا ـــــ أكثر قبحًا.

خرجت ماجدالين من المنزل، ولكن والدها ناداها على الفور، فدخلت المنزل مرة أخرى. انضم دينسميد إلى مضيفه بسرعة.

قال بلطف: "صباح جميل جدًا، آمل أن تكون سيارتك في حالة جيدة".

قال مورتيمر لنفسه: "يريد أن يعرف متى سأغادر المنزل".

شكر السيد دينسميد بصوت عالٍ مرة أخرى على كرم ضيافته.

قال الآخر: "لا داعي للشكر، لا داعي للشكر".

في تلك اللحظة خرجت ماجدالين وتشارلوت من المنزل معاً، مشبكتين ذراعيهما وجلستا على مقعد ريفي بعيد بعض الشيء. الفتاة السمراء والفتاة الشقراء صنعتا تضاداً حلو المظهر معاً، فقال مورتيمر فجأة:

"ابنتاك لا تشبهان بعضهما كثيراً يا سيد دينسميد".

ارتعشت يد الرجل الذي كان يوشك أن يشعل غليونه، فسقط الكبريت من يده.

"هل تعتقد ذلك؟ أعتقد أنهما متشابهتان".

راود مورتيمر إحساس غريب.

قال بسلاسة: "ولكن إحداهما ليست ابنتك".

رأى دينسميد ينظر إليه، ثم تردد للحظة، حتى اتخذ قراره.

قال له: "ذكاء كبير منك أن تقول ذلك يا سيدي. لا، إحداهما لقيطة وجدناها وهي طفلة رضيعة وربيناها. هي نفسها ليست لديها أدنى فكرة عن الحقيقة، ولكنها يجب أن تعرف ذلك عما قريب". قالها وهو يتنهد.

قال مورتيمر بهدوء كأنه يبدي اقتراحاً: "مسألة ميراث؟".

رمقه الرجل بنظرة ريبة.

ثم بدا كأنه قرر أن الصراحة أفضل خيار لديه، فأصبح يتحدث بصراحة وانفتاح تام.

"غريب أن تقول ذلك يا سيدي".

قال مورتيمر مبتسماً: "حالة تخاطر، أليس كذلك؟".

"الأمر يبدو كذلك. لقد أخذناها تلبية لرغبة زوجتي عندما كنت في بداية عملي في المقاولات. ومنذ شهور قليلة مضت، قرأت إعلاناً في الصحف، وشعرت بأن الطفلة موضع السؤال هي ماجدالين. فذهبت لأرى المحامين، ودار بيننا حديث طويل. تشككوا في الأمر في البداية ـــــ وهذا طبيعي، كما ترى، ولكن كل شيء اتضح الآن. سوف آخذ الفتاة إلى لندن الأسبوع المقبل، وهي لا تعرف أي شيء عن الأمر حتى هذه اللحظة. يبدو أن والدها كان أحد النبلاء الأثرياء. لم يعرف بوجود الطفلة إلا قبل أشهر قليلة من وفاته. فأرسل في كل مكان محاولاً البحث عنها، وترك كل أمواله لها إذا ما تم العثور عليها".

استمع مورتيمر إلى الحكاية باهتمام كبير. لم يكن لديه سبب ليشكك في قصة دينسميد. كان ذلك يفسر جمال ماجدالين الأسمر، كما يفسر أيضاً طريقتها المتحفظة في التعامل. ولكن رغم أن القصة نفسها قد تكون صحيحة، كان هناك شيء وراءها غير واضح.

ولكن مورتيمر لم يكن ينوي أن يثير شكوك مضيفه، فقرر أنه يجب أن يغادر المنزل لكي يخمد شكوكه.

قال له: "قصة مثيرة يا سيد دينسميد. تهانئي للآنسة ماجدالين. سوف تتمتع بالثروة والجمال أيضاً، سوف ينتظرها مستقبل طيب".

قال والدها بحنو: "وهي أيضاً فتاة صالحة للغاية يا سيد كليفلاند".

كان هناك دفء حميم واضح في طريقة كلامه.

قال مورتيمر: "حسناً، يجب أن أغادر المنزل الآن، ويجب أن أشكرك مرة أخرى، يا سيد دينسميد، على كرم الضيافة والوقت الرائع الذي أمضيته في منزلك".

رافقه مضيفه، ودخل المنزل ليودع السيدة دينسميد التي كانت تقف بالقرب من النافذة مولية ظهرها للباب، فلم تشعر بهما. وعندما سمعت صوت زوجها يقول مبتهجاً: "لقد جاء السيد كليفلاند لكي يودعك"، تحركت على نحو مفاجئ فأسقطت شيئاً كانت تمسكه في يدها، فالتقطه مورتيمر وأعطاها إياه. كان صورة مصغرة لـ تشارلوت ترتدي فيها أزياء قديمة كانت منتشرة قبل خمسة وعشرين عاماً مضت، فكرر لها شكره الذي قدمه لزوجها من قبل. ولكنه لاحظ نظرة الخوف في عينيها مرة أخرى والنظرات المستترة التي رمقته بها من أسفل جفنيها.

لم تظهر الفتاتان على الساحة، ولكن مورتيمر لم ينوِ أن يبدو مهتماً برؤيتهما، كما كانت لديه فكرة خاصة، التي ثبتت صحتها بعد وقت قصير.

ابتعد عن المنزل حوالي نصف ميل في طريق ذهابه إلى المكان الذي ترك سيارته فيه الليلة الماضية، وعندما هبت رياح على جانب الطريق أزاحت الأشجار التي كانت على الطريق، فظهرت ماجدالين على الطريق أمامه.

قالت له: "كان يجب أن أراك".

قال لها مورتيمر: "لقد كنت أنتظرك، أنت من كتبت SOS على الطاولة المجاورة لسريري الليلة الماضية؟".

أومأت ماجدالين برأسها.

سألها مورتيمر بلطف: "لماذا؟".

أشاحت الفتاة بوجهها وبدأت في قطع الأوراق من شجرة.

قالت له: "لا أعرف، لا أعرف حقًا".

قال لها مورتيمر: "أخبريني".

أخذت ماجدالين نفسًا عميقًا.

قالت له: "أنا إنسانة عملية للغاية، لست من الأشخاص الذين يتخيلون أو يتوهمون أشياء. ولكنني أظنك تؤمن بالأشباح والأرواح. أما أنا فلا. وعندما أقول لك إن هناك شيئًا غريبًا للغاية في ذلك المنزل". أشارت إلى أعلى التل، "فأنا أعني أن هناك شيئًا خاطئًا ملموسًا، ليس مجرد صدى للماضي. وقد استشعرنا هذا الشيء منذ مجيئنا إلى هنا. وهذا الشيء يشتد يومًا بعد يوم؛ فوالدي تغير، ووالدتي تغيرت، وتشارلوت تغيرت".

تدخل مورتيمر مقاطعًا إياها: "وهل تغير جوني؟".

نظرت إليه ماجدالين، وفي عينيها تقدير واضح، ثم قالت له: "لا، لقد فكرت في ذلك الآن. جوني لم يتغير. إنه الشخص الوحيد الذي لم يمسه هذا الشيء على الإطلاق".

سألها مورتيمر: "وأنت؟".

"كنت خائفة ـــــ خائفة للغاية، مثل طفلة صغيرة ـــــ بدون أن أعرف ما الذي أخشاه. وكان والدي غريبًا، لا أجد كلمة أخرى لوصفه، كان غريبًا. لقد تحدث عن معجزة، فدعوت الله أن تحدث معجزة، فطرقت أنت الباب".

توقفت فجأة محدقة إليه.

قالت له بتمرد: "أعتقد أنك تظنني مجنونة".

قال لها مورتيمر: "لا، على العكس تبدين طبيعية تمامًا. كل الأشخاص الطبيعيين يستشعرون الخطر إذا كان قريبًا منهم".

قالت ماجدالين: "أنت لا تفهم. أنا لست خائفة ـــــ على نفسي".

"على من إذن؟".

ولكن ماجدالين هزت رأسها مرة أخرى في حيرة ثم قالت: "لست أدري".

أردفت قائلة:

"لقد دفعني شيء ما لأكتب SOS. واتتني فكرة ـــــ سخيفة، بدون شك، وهي أنهم لن يسمحوا لي بأن أحدثك ـــــ أعني البقية. لا أعرف ما الذي كنت أريد أن أطلبه منك. وما زلت لا أعرفه حتى الآن".

قال لها مورتيمر:" "لا تبالي. سوف أفعل ذلك".

"ماذا يمكنك أن تفعل؟".

ابتسم مورتيمر قليلاً.

"بإمكاني أن أفكر".

نظرت إليه في ريبة.

قال لها مورتيمر: "نعم، بإمكاننا عمل الكثير بهذه الطريقة، أكثر مما تتصورين. أخبريني، هل هناك أية كلمة أو عبارة جذبت انتباهك قبل أن نتناول العشاء الليلة الماضية؟".

عبست ماجدالين، ثم قالت: "لا أعتقد ذلك. ولكنني سمعت والدي يقول شيئًا لوالدتي عن أن تشارلوت صورة حية لوالدتها، ثم ضحك بطريقة غريبة للغاية، ولكن، ليس هناك شيء غريب في ذلك، أليس كذلك؟".

قال لها مورتيمر ببطء: "نعم، باستثناء أن تشارلوت لا تشبه والدتك".

ظل غارقًا في أفكاره للحظة أو اثنتين، ثم نظر لأعلى فوجد ماجدالين تراقبه في تشكك.

قال لها: "اذهبي إلى المنزل يا ابنتي، ولا تقلقي، اتركي المسألة لي".

سمعت كلامه وسارت في اتجاه الكوخ، بينما ظل مورتيمر يتمشى قليلاً، ثم ألقى نفسه على المروج الخضراء. أغمض عينيه، مبعداً نفسه عن أية فكرة أو جهد واعٍ، وغرق في مجموعة الصور التي تراءت له.

جوني! كان دائمًا يتذكر جوني. جوني ـــــ بريء تمامًا ـــــ بعيد تمامًا عن أي جانب للشك أو الخداع، ولكنه يظل المحور الذي يدور كل شيء حوله. تذكر انكسار فنجان السيدة دينسميد على صحنها على الإفطار ذلك الصباح. ما الذي أثار انزعاجها؟ أنه تحدث عن إعجاب الغلام بالمواد الكيميائية؟ في تلك اللحظة لم يكن واعيًا للسيد دينسميد، ولكنه رآه الآن بوضوح شديد، وهو جالس على وشك أن يحتسي شايه.

أعاده ذلك إلى تشارلوت، عندما رآها عندما انفتح الباب الليلة الماضية. جلست تحدق إليه من وراء فنجان الشاي الخاص بها. وبعد ذلك بسرعة واتته صورة أخرى؛ صورة السيد دينسميد وهو يفرغ فناجين الشاي الوحد تلو الآخر، ويقول: "هذا الشاي بارد".

تذكر منظر البخار يتصاعد منه. طبعًا لم يكن الشاي بارداً لهذا الحد؟

بدأ شيء ما يدور في خلده. تذكر شيئًا ما قرأه منذ فترة ليست بعيدة، لعله منذ شهر. أمر ما يتعلق بعائلة كاملة تسممت بسبب طيش غلام. عبوة من الزرنيخ تركت في مكان حفظ الطعام سقطت بالكامل على الخبز الذي كان موضوعاً تحته. لقد قرأ

ذلك في الصحف. لعل السيد دينسميد قرأ الخبر أيضًا.

بدأ الأمر يبدو أكثر وضوحًا...

بعد نصف ساعة، نهض مورتيمر كليفلاند بخفة، ووقف على قدميه.

IV

حل المساء مرة أخرى على الكوخ. كان البيض مسلوقًا الليلة، وكانت هناك عبوة لحم بقري. دخلت السيدة دينسميد على الفور من المطبخ وهي تحمل إبريق الشاي الكبير. وأخذ كل فرد من أفراد الأسرة مكانه على الطاولة.

قالت السيدة دينسميد، وهي تنظر نحو النافذة: "الطقس مختلف تمامًا عن طقس الليلة الماضية".

قال السيد دينسميد: "نعم، إنه هادئ للغاية الليلة لدرجة تمكنك من سماع سقوط الإبرة على الأرض. والآن يا أم الأولاد، اسكبي الشاي".

ملأت السيدة دينسميد الفناجين ووضعتها حول الطاولة. وفجأة، عندما وضعت إبريق الشاي على الطاولة، أطلقت صرخة صغيرة ووضعت يدها على قلبها، فالتفت السيد دينسميد ونظر خلف كرسيه، في الاتجاه الذي نظرت إليه بعينيها المفزوعتين. كان مورتيمر كليفلاند يقف عل المدخل.

تقدم للأمام. كان يتصرف بلطف كأنه يعتذر عن مجيئه.

قال: "أخشى أن أكون قد فاجأتكم. كان عليّ أن أعود لشيء ما".

صاح دينسميد: "تعود لشيء ما؟". احمر وجهه، وانتفخت عروقه. "عدت لماذا، أحب أن أعرف؟".

قال مورتيمر: "بعض الشاي".

وبحركة سريعة أخرج شيئًا من جيبه، ورفع أحد فناجين الشاي من فوق الطاولة، ووضع بعضًا منها في أنبوب الاختبار الصغير الذي كان يمسكه في يده.

قال السيد دينسميد: "ماذا ـــــ ماذا تفعل؟". تحول لون وجهه إلى اللون الأبيض، كأنه يموت بفعل السحر. بينما أطلقت السيدة دينسميد صرخة طويلة خائفة.

"أعتقد أنك تقرأ الصحف يا سيد دينسميد؟ أنا واثق أنك تفعل. أحيانًا نقرأ عن تسمم أفراد أسرة كاملة، بعضهم تعافى، وبعضهم الآخر لا. في هذه الحالة، لن يتعافى الشخص. السبب الأول قد يكون اللحم البقري المعبأ الذي تأكله، ولكن إذا تشكك الطبيب في السبب، فلن ينخدع بأن سبب التسمم هو الأطعمة المعلبة؟ هناك علبة زرنيخ

في دولاب الطعام. على الرف الموجود بأسفل عبوة الشاي. وهناك ثقب في الرف الذي يعلوه، فمن الطبيعي تمامًا أن نفترض أن الزرنيخ سقط في الشاي بالمصادفة؟ ومن الممكن أن يلام ابنك جوني على إهماله، وهنا تنتهي القضية".

لفظ دينسميد أنفاسه وقال: "أنا ـــــ أنا لا أعرف ما الذي تعنيه".

أخذ مورتيمر فنجان شاي آخر وملأ أنبوب اختبار آخر وهو يقول: أظنك تعرف". وضع بطاقة حمراء على أحد الأنابيب وبطاقة زرقاء على الأنبوب الآخر.

قال: "الأنبوب الأحمر، يحتوي على شاي من فنجان ابنتك تشارلوت، أما الأنبوب الأزرق فيحتوي على شاي من فنجان ابنتك ماجدالين. أقسم أنني سوف أجد في الأنبوب الأول أربعة أو خمسة أضعاف الزرنيخ الموجود في الأنبوب الثاني".

قال دينسميد: "أنت مجنون".

"أوه! اعذرني، أنا لست مجنونًا. لقد أخبرتني بنفسك اليوم يا سيد دينسميد بأن ماجدالين هي ابنتك. وأن تشارلوت هي الطفلة التي تبنيتها، الطفلة التي كانت تشبه والدتها كثيرًا، وهو ما جعلني أظن عندما أمسكت صورة تلك الأم في يدي ظننتها صورة تشارلوت نفسها. يجب أن ترث ابنتك أنت الثروة، وبما يكون من المستحيل أن تبقي ابنتك تشارلوت الزائفة بعيدًا عن الأنظار، وأي شخص كان يعرف الأم بإمكانه أن يدرك حقيقة التشابه بينهما، لذلك قررت أن تضيف بعض الزرنيخ الأبيض في فنجان الشاي".

أطلقت السيدة دينسميد كركرة مفاجئة، وهي تسير جيئة وذهابًا على نحو هستيري.

صرخت قائلة: "شاي، هذا ما قاله، وليس الليمون".

صرخ زوجها في وجهها في غضب شديد: "أمسكي لسانك، ألا تستطيعين ذلك؟".

رأى مورتيمر تشارلوت تنظر إليه، بعينيها الواسعتين، المتسائلتين عبر الطاولة. ثم شعر بيد تمسك بذراعه، فأبعدته ماجدالين عن مسمع والدها.

قالت وهي تشير إلى القنينة الصغيرة: "هذا، أبي لن ـــــ "

وضع مورتيمر يده على كتفها وقال لها: "ابنتي، أنت لا تؤمنين بالماضي، ولكنني أؤمن به. لقد استشعرت شيئًا غريبًا يعج المكان. إذا لم يقرأ والدك عن الأمر، فلعله ـــــ أقول لعله ـــــ لم يفكر في الخطة التي نفذها. أنا أحتفظ بأنبوبي الاختبار لأحمي تشارلوت الآن وفي المستقبل. فيما عدا ذلك، لن أفعل شيئًا امتنانًا لتلك اليد التي كتبت SOS".

جدول المحتويات

كلب الموت
الإشارة الحمراء
الرجل الرابع
الغجرية
القنديل
المذياع
شاهد الإثبات
لغز الزهرية الزرقاء
حالة السير آرثر كارمايكل الغريبة
نداء الأجنحة
الجلسة الأخيرة
نداء استغاثة